مُعجِزاتٌ

وبعضُها مِنْ بعضٍ

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2021م

(اللهمَّ اهْدِ من كفر بالحقِّ إلى الحقّ، حتى يعود إليه كافرًا بالباطلِ).

المقدّمةُ

بسم الله حمدًا أُقدِّم مؤلّفنا (معجزات وبعضها من بعض) للقرَّاء والبحّاث الكرام؛ الذين يمتلكون عقولًا تتمكّن من التحليل والتعليل، كما تُمكّنهم من التفسير والنقد والتصحيح والإضافة؛ إذ لا كمال إلَّا لله تعالى.

ولأنَّ مؤلّفنا تناول باهتمامٍ موضوعي مفهوم المعجزات ودلالاتها فباهتمامه هذا تبيّن له أنَّ العلاقة بين السّماوات والأرض هي علاقة بين: (المستحل، والمعجز، والممكن)، ومن هنا فإنَّ المعجزاتِ لا تكون إلّا وبعضها من بعضٍ.

ولأنَّ الإنسان مهما عَظُمَ علمه فلمْ يؤتَ من العلم إلَّا قليلًا، إذن: فمن يقول: أَنَا عالم فقد جهل، وفي المقابل من يفتي بغير علمٍ فقد ضلّ؛ ولهذا وجب علينا البحث العلمي؛ لنتبيّن الحقّ من الباطل، ونبلغ المأمول الذي يُمكّن من الإقدام على الحقِّ والأخذِ بهِ، وفي الوقت ذاته يُمكّن من تجنّبِ الوقوع في الباطل والانتهاء عنه.

ولأنَّ هدف بحثنا هو التعرُّف على العلاقة بين (المستحيل والمعجز والممكن) فإنَّنا من دون شكٍّ نبحث في موضوعٍ جدلي وفيه من الصُّعوبات ما فيه، ومن ثمَّ فلا إجابة مطلقة يمكن استمدادها والتجادل بها والتحاج إلَّا من الذي بيده الأمر المطلق.

ومع أنَّ الإنسان بفكره تمكّن من غزو الفضاء فإنَّه لم يبلغ اختراق السّماوات الطّباق ولن يستطيع، ومن هنا فإنَّ تفكيره هذا وإن عظم شأنه لا يزيد عن تفكير كتكوت ما زال وسط البيضة؛ كونه لم ير الضوء بعد.

ولأنَّه لا مُعجزة إلَّا مِنْ معجزٍ، إذن: وإنْ تعدّدت الرّسالات (المعجزات) فلا تكون إلَّا وبعضها من البعض؛ ولذا فالمعجزُ واحد لا يتعدّد وإن تعدّدت صفاته.

ولتبيان ذلك ووفقًا لدائرة النسبيّة تعمّقنا بحثًا في بعض القضايا المختلف على شيءٍ من تفسيراتها، حتى توافرت بين أيدينا نتائج وحُججًا وبراهينَ موضوعيَّة لا إمكانيّة لإخفائها أو طمسها أو التأخير عن نشرها؛ وذلك لعلّها تُثري الفكر وبخاصّة الإسلامي، وتُنتج حوارًا جديدًا دون عصبيّة لرأيٍ ضدّ رأي آخر، ودون تبعيّة لرأيِ حاكمٍ، أو أيدولوجية فكريَّة، أو جماعة بعينها.

وما التوفيق إلَّا بالله، فإنْ غفلت أو أخطأت فاستغفر الله، وإن أصبت فالحمد لله ربِّ العالمين، ولا كمال إلَّا لله وحده.

أ.د عقيل حسين عقيل

2021م

(أهلُ السّياسة والفكر إنْ أحسنُوا رأيًا تمكّنوا من فكِّ الفتيلِ ونزعِه، وإنْ لم يتّقوا الله ليحسنوا رأيًا قد يوقدونها، ويقولون عنها: شُعلة).

الإعجازُ

الإعجازُ فعل تحدٍّ يتمّ الإظهار عليه من قِبل الخالق، ولا يُمكن فعله مِنْ قِبلِ المخلوقِ وإن رغب، أي: مع أنَّه في دائرة الممكن يتمّ الإظهار عليه وجودًا فإنَّه لا إمكانية لفعله؛ ولهذا فالإعجاز فعل الخالق ومثله مثل المستحيل، غير أنَّ المستحيل خَلقُ الشيء من لا شيء وجودًا، أمَّا الإعجاز فهو الفعل الظاهر من شيء ظاهر، ولا يكون المعجز متحقّقًا إلّا على أيدي الأنبياء والرُّسُل –عليهم الصَّلاة والسَّلام–وهمُ الذين اصطفاهم الواحد الأحد واحدًا من بعد واحدٍ ختامًا بمحمّد الرّسول الخاتم.

ولذا فإنَّ عملية إيجاد الشيء من الشيء تعدّ إعجازًا حتّى وإن كان الشيء متناهيًا في صغرهِ لا شيئًا؛ وبذلك فالإعجاز فعل ما لم يستطع الإنسان فعله، أمَّا المعجز فهو الذي يكون بين يديك ولا تستطيع فعل شيء مثله، مثل القرآن الذي بين اليدين ولا أحدَ يستطيع أن يأتي بمثله: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[1].

ولأنّه الأمر المعجز فقد رسّخ حقيقة إعجازيَّة مفادها: (إنَّ وراء كل مخلوق خالق)، وبهذه الحجّة نتجادل مع الذين قالوا: (إنَّ الكون خلق نفسه ولم يكن من ورائه خالق)، وهنا أقول: إذا سلمنا أنَّ الانفجار العظيم من تلك الذّرة التي قالوا عنها: إنَّها كانت متناهية في الصّغر، فلا بدّ أن نسلّم بخلق الذّرة، ونشوء الانفجار منها، وإذا سلّمنا بخلق اللاشيء فلا بدّ أن

[1] الإسراء: 88.

نسلّم بمن شاء له أن يكون لا شيء، وإذا سلّمنا بخلق الأرض شيئًا من لا شيءٍ فلا بدّ أن نسلّم بنشوئنا منها أشياء معجزة لا يمكن أن يَخلُقها إلَّا الخالق: قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}[2]، ومع أنَّنا تسليمًا مطلقًا نقول: (صدق الله العظيم) فإنَّ علماء الفيزياء الذين قالوا: إنَّ الكون قد خُلق من تلك البذرة المتناهية في الدقّة ولا خالق له، هل يمكن لهم أنْ يقولوا لنا من خَلق تلك البذرة؟ وكيف خُلقت؟ أم إنَّها نبتت من الأرض مثلما نبت الإنسان منها؟

في كل الأحوال سيظل السّؤال قائمًا؛ لأنَّهم لا يُمكن أن يقولوا: إنَّها قد نَبتت من الأرض مثلما نَبتَ الإنسان منها؛ ذلك لأنَّهم يعرفون وفقًا لبرهنتهم على وجود الكون خلقًا أنّه لا وجود للأرض إلّا من بعد انفجار تلك الذرة، ومن خلال ما اطّلعنا عليه من براهين قالوها، فلم نجد إجابة لهم إلَّا تمسّكهم بقولهم: إنَّ الكون خَلق نفسه ولا خالق من ورائه، وهذه علَّة، وقد كشفنا أوراقها في مؤلفنا: نحو النظريّة (خلقًا، ونشوءً، وارتقاءً).

وعليه: فالبذرة لا أحد يظنّ أنَّها الخالقة لنفسها كما ظنّ البعض بخلق الكون نفسه من لا شيء، ولكن من يسلّم أنَّ البذرة لم تَخلق نفسها فعليه بتصحيح تلك المعلومة الخاطئة التي كُتبت عن خلق الكون من غير خالق بمعلومة صائبة تؤكّد أنَّ: (وراء كلّ مخلوق خالق).

فالخالقُ خَلقَ اللاشيء (لا ذرة) ثمَّ خَلق الذرة شيئًا معجزًا؛ فعلى سبيل المثال: الخالق خَلق البشر نشأةً مِنْ بِذرةٍ ترابيَّةٍ (آدم وزوجه)، ثمَّ أصبحا

[2] هود: 61.

كمًّا بشريًّا هائلًا، وهكذا كان تضاعف البذرة النباتيَّة كمًّا عظيمًا هائلًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مَّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}[3]، ومن هنا فالإنسان الذي أصبح بعد نشوئه كمًّا هائلًا ألا يتذكّر أنّه قَبْلَ أن يُخلق كان لا شيء يذكر؟ ثمَّ أصبح شيئًا من الزّوجين يُذكر، ثمّ تزاوج فتكاثر: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}[4]؛ ولذا ألَا يكفي هذا دليلًا على وجود خالقٍ لكلِّ شيءٍ؟

وعليه: فالنّشوء إعجازًا مؤسّسٌ على خلق الحياة، ثمّ نشوء الأحياء، أي: لو لم تُخلق الحياة ما خُلق الأحياء؛ ولذلك فكلّ من تُكتب له الحياة يُخلق على الهيئة التي تميّزه جنسًا ونوعًا، ومن ثمّ ينشأ كلّ مخلوقٍ وفقًا لسلالته التي لا يمكنه الخروج عنها؛ فآدم وزوجه كونهما المخلوقين من تراب فسلالتهما من طين، أمّا بنوهما فسلالتهم من نطفة، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[5]؛ ولذلك فمن أين جاءت الصّلة بالقرود التي قالوا لنا عنها في تلك النظرية (النشوء والارتقاء)؛ والله جلَّ جلاله قال: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[6]؟ أي: إنَّ أصل الخلق زوجي، والخالق واحد أحد، إنَّه خلق الذكر والأنثى من كل شيء على أرضه؛ ولذا فلم تكن الدّجاجة قبل البيضة ولم تكن البيضة قبل الدّجاجة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، ومن هنا لا شيء قبل المستحيل

---

[3] البقرة: 261.

[4] الإنسان: 1.

[5] السجدة: 8.

[6] الذاريات: 49.

إلَّا خالق المستحيل شيئًا من لاشيء، ولا شيء من بعد المستحيل فوق دائرة الممكن البشري إلَّا المعجز الذي ربط العلاقة بين السماوات والأرض (علاقة المخلوق بالخالق)، وهذه العلاقة لا إمكانيَّة لبلوغها ومعرفتها وكشف أسرارها إلَّا باصطفاء الخالق لأنبيائه ورُسُله الكرام (إنباءٍ ورسالاتٍ).

ولهذا فالنّشوء إعجازًا لا يكون إلّا من شيءٍ، فلو لم تكن الأرض ما كان نشوؤنا منها، ولو لم يكن اللاشيء ما كانت الأرضُ شيئًا منه، وحسب وصفهم للانفجار الذي وصفوه بالانفجار العظيم ما كان يعرف أنَّ اللاشيء شيئًا، وهنا نقول:

. ألا يكون المنفجر شيئًا؟

. ألا يكون الانفجار ذاته شيئًا آخر؟

. وهل يمكن أن يكون المنفجر شيئًا لو لم يكن من ورائه مشيءٌ لانفجاره؟

. ثمَّ هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يكن هناك مؤقّتٌ له ومزمِّنٌ (مزمنٌ لوقت انفجاره)؟

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء شاءه، وهو الخلّاق لما يشاء متى ما يشاء، وكيفما يشاء، وأين ما يشاء، فإنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرًا، وهناك ما يأخذونه أمرًا ونهيًا، وهناك ما يدركونه عقلًا، وهناك ما يرونه مشاهدةً؛ فالبشر كما يسلِّمون يقينًا بما يعلمونه يسلِّمون يقينا بما يجهلونه؛ فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنَّ

السّماوات والأرض كانتا رتقًا ويجهلون كيفية فتقهما، ومتى تكون ساعة رتقهما من جديد: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[7].

ولأنَّ موضوع بحثنا هذا أمره بين المستحيل والمعجز فإنَّ علم ذلك (المستحيل والمعجز يقينًا) لا يكون إلّا علمَ غيبٍ، وقد تم الإبلاغ عنه، غير أنّ البعض غض عقله عنه، والبعض عقله به استنار؛ وذلك هو حقّ اليقين وعينه، أي: إنَّه الحقّ في ذاته ولا شكَّ: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[8]، إنّه العلم البيّن الذي أبلغ عنه ولم يتحقّق بعد؛ وهو في وقته الآتي سيتحقّق لا محالة: {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[9]، أي: لا شكّ أنَّ المستقبل آتٍ وسترون بأمّهات أعينكم كلّ ما أُعلمتم به قبل أن ترونه، وهكذا ستعلمون الحقائق، سواء أكانت معلومة بلا تفاصيل، أم إنَّها المجهولة تمامًا.

ولأنَّ الخالق خلق الشّيء واللاشيء؛ فَخَلقَ السّماوات والأرض أشياءَ، وخلق ما بينها اللاشيء، {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}[10]؛ فما بينهما: هو ذلك الفراغ المملوء أشياءَ متناهية في الصّغر، وبتناهي صغرها وصفها علماء الفيزياء بأنَّها لاشيء.

ومع أنَّ الخَلق والنّشوء إعجازًا من مشيئة الخالق فإنَّ الخلقَ سابقٌ على النّشوء ولا شيء قبله، أمَّا المعجز نشوءًا فلا يكون إلّا من شيء مخلوقٍ،

---

[7] الأنبياء: 104.

[8] التكاثر: 5.

[9] التكاثر: 7.

[10] المائدة: 17.

فينشأ منه خلق آخر، مثل خلق الإنسان من الأرض: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[11]، ومع أنَّ الله خلق الإنسان (الزّوجين: آدم وزوجه) من تراب الأرض فإنَّ صفات خلفهما (الذين جاءوا من بعدهما) وكأنَّها لم تكن على علاقة بالأرض التي خُلقا منها نباتًا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}[12]، ومن هنا نتبيّن المعجز وهو أنَّ صفات الإنسان التي نحن عليها وبها نتّصف لم تكن على الصّفة الأصل (صفة التراب) التي خُلق منها أبوينا (آدم وزوجه)؛ ذلك لأنَّ بني آدم لم يخلقوا نباتًا كما خُلقا أبويهما، بل من ماء مهين: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[13].

ومع أنَّ المعجز نشوءًا مترتّبٌ وجودًا على ما خلق، فإنَّه لا يكون إلّا وفقًا للمشيئة التي تكون دائمًا سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إعجازًا إلّا من مشيئة الخالق.

ومشيئة المشيء إرادة خَلقية، خَلقت الكون وفتقته من بعد رتقه وستعيده رتقًا: {قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[14]؛ ولذلك فَخَلق الشيء من الشيء وجَعله على الهيئة والصّفة يعدُّ نشوءًا من مشيئة الخالق، والنّشوء تكوين بنائي يُخلق على الهيئة والصّورة بغاية وظيفيّة؛ فالأرض التي خُلقت

---

[11] نوح: 17.

[12] الحج: 5.

[13] السجدة: 7، 8.

[14] يونس: 34.

بناءً مكوّرًا، هُيِّئت لوظيفة الإنبات والتكاثر والنّشوء والارتقاء: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[15].

إنَّ الإنبات في الأرض إضافةُ خلائقٍ، ونشوءُ حياةٍ، ولفتُ انتباهٍ إلى ما يشبع الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة بغاية بقاء الحياة إلى النّهاية.

فالنّشوء إعجازًا لا يكون إلّا من شيء، أمَّا الخَلق فليس بالضرورة، أي: إنَّ الخلق الأوّل لم يسبقه خلق (خلق مِن لا وجود)، أمَّا الخلق المترتّب عليه فهو النّشوء المعجز (نشوء الشيء من الشيء)؛ ولذلك فالنّشوء يتعدّد من الخلق الواحد أجناسًا وأنواعًا؛ فذلك الكون المرتق خلقًا أصبح أكوانًا منشأة انفتاقًا، وهكذا الأرض التي خُلقت خلقًا مرتقًا؛ فقد كان النّشوء منها متنوّعًا ومتعدّدًا (زوجين) من كلّ شيء.

وبما أنَّ المخلوق قبل أن يُخلق لم يكن شيئًا (لا وجودًا) إذن: فمن الذي جعله شيئًا؟ وهل يمكن الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ وبما أنّه موجودٌ، إذن فمن الذي جعله شيئًا؟

أي: لو لم يكن الشيء موجودًا فهل يمكن أن يقال عنه قد خَلق نفسه من لا شيء؟ ولماذا لا يرتقي التفكير العقلي إلى معرفة من خلقه شيئًا (وجودًا)؟ ولماذا خلقه شيئًا؟ بمعنى: لماذا لا يرتقي التفكير من المخلوق المشاهد إلى معرفة الخالق الذي يدرك ولا يشاهد؟

ولذلك فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك أنَّ وراء كلّ شيء مُشيئًا له؛ فلو لم يشأه ما كان شيئًا، وبما أنَّه أصبح شيئًا فهو لم يكن إلّا

[15] الشعراء: 7.

وفق مشيئة، وهذه تستوجب: مقدرة خلقية، وخالقًا يهيئ المخلوق للخلق قبل أن يخلقه، ومن ثمّ فلا شيء إلّا من مشيء: {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}[16].

ولأنَّ خَلق الشيء من الشيءِ يعدُّ نشوءًا معجزًا، إذن: فلا نشوء إلّا والحياة تملؤه، فالأرض لو لم تكن على الحياة ما كان ترابها صالحًا لخلق الإنسان وإنباته مثل النبات نباتًا. إنَّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجًا، أمَّا نشوء الأكوان فلم يكن إلّا انفتاقًا، ومن ثمَّ وجب علينا أنَّ نعرف أنَّ المعجزات بعضها من بعض، وهي ذات علائق وفقًا لما يأتي:

المستحيلُ:

المستحيل هو ما يفوق مقدرة الإنسان ولو كان نبيًّا؛ ذلك لأنَّ المستحيل لا يكون إلّا خلقًا بأمر الخالق جلَّ جلاله، وهذا ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم، ومن ثمَّ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانيّة لبلوغه، وهو الذي لو لم يكن ما كنَّا، ولأنَّه كائن؛ فلا إمكانيّة لتجاوزه، ولا إمكانيّة للقفز عليه وكأنَّه لا وجود. إنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه، وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانيّة، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقّع، وهو غير الخارق؛ فالخوارق هي الأخرى تبلغ من أصحاب العقول الذين يتحدّون

[16] الأنعام: 30.

الصِّعاب وإن عظمت، أمّا المستحيل فلا إمكانية؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوْجِدُ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنّه القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره، ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته؛ حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودًا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلًا مستحيلًا[17].

وعليه: فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيء يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء؛ إذ لا صفة له، بل هو الفعل المتحقّق بالقوّة وفقًا للمشيئة التي لا تكون إلَّا بيد الخالق تعالى، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيءٌ ونتحدث عنه؛ فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقفُ عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

[17] عقيل حسين عقيل، تصحيحًا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2018م، ص 25.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقفَ عند معجزة المستحيل في ذاته، أمَّا الأعظم من النّاس فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلًا لا يُخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعَّال له؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعًا؛ فإنَّهم عاجزون عن معرفة زمن توقفه، ولا إمكانيّة لهم لإيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقطة صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ألا يكون هذا الأمر بيد من خلق المستحيل مستحيلًا؟

ومع ذلك يرى بعض الفيزيائيين أنَّ الكون يتمدّد متسارعًا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببًا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق أن فُتقت لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها؛ عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنّ الفيزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ أم أنَّ الكون المتمدد قهرًا هو الذي يعرف الغاية من تمدّده كرهًا؟

إنَّ كونًا يتمدّد كرهًا ولا يعلم غاية تمدّده، هل يمكن أن يوصف بالخالق لنفسه ولا خالق من ورائه؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصيّة ليس بحكمٍ علميٍّ، بل مجرّد آراء لا تتعدّي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنّوا أنّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق؛ ولكن وفقًا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء شيءٌ ومشيء له كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم الذي هو من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيل لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع العلم أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملًا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا؛ إذ لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئيّةٍ عظيمةٍ من الزّمان والوقت، ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها؛ ولذا

فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه: خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنّه قد خُلِقَ من لا شيء.

ولأنّ وجود الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أنَّ من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوّل (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يخَلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلق مستحيل؛ إذن: فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلًا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت؛ فقوّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم،

وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقف له، أو مفجّر، أو راتق له؛ إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يُمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته، وبما أنزله على رُسُله من معجزات، حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانيّة لرؤية المصوِّر المطلق كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئًا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتآه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنّها خالقة لنفسها، ومِنْ لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء، في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنّهم قد خُلقوا من ترابٍ، وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنّ آدم من تراب ولم يكن ترابًا؛ فَمَن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنَّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونًا عظيمًا كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[18].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيُّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[19]. فكيف بمن لم يكن سابقًا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها، وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانيّة أن يخلق الشيء نفسه، أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيئًا غيرها؟

ولأنَّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

---

[18] الأنبياء: 30.

[19] الزّمر: 62.

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه، إنّها المسلّمة لمن يدرك أنّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنَّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنَّ أبويه (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، فإنَّهم عندما وقفوا على أكبرها (الكون)، قالوا: إنّه شيء، ولكنّه خالق، وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودًا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونًا، والخَلقَ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[20].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده، ومن ثمّ

[20] البقرة: 31.

فالمستحيل فعل أوجد كونًا متمدّدًا ومتسارعًا في تمدّده، ثمّ خُلق منه، وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقًا مستحيلًا؛ إذن فلا إمكانيّة لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا، استقراء علماء الفيزياء والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعًا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، ولكنّ ما هو أعظم: إنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحًا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علمًا ومعرفةً، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[21]؛ فقوله: (كَيْفَ خَلَقَ) هنا يكمن المستحيل؛ إذ لا إمكانيّة لمعرفة الكيفيّة التي بها خُلقت الأكوان طِباقًا؛ ولأنَّ معرفة (كيف؟) أمر مستحيل فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[22]، أي: بعد أن كان الكون ملتحمًا سماوات وأرضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع سماوات وسبع أرضين، وبما أنَّنا نعلم بفتق الأكوان فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل؛ لنتمكّن من معرفتها معجزات وبعضها من بعض.

ولذلك فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خليّة حيّة، وحتى إن خُلق الشبيه

[21] نوح: 15.

[22] الأنبياء: 30.

فسيظل شبيهًا؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا، إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولًا شكلًا أو صورةً أو شيئًا مشاهدًا وملاحظًا؛ ولأنّه المفعول فلا يكون إلّا بفعل الفاعل؛ ولأنّه بفعل فاعل المستحيل؛ فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي؛ حيث عقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

المعجزُ:

المعجزُ هو ما لم يكن في دائرة الممكن ممكنًا، وهو الذي لا يُبلغ أمره ولا يُظهر عليه إلَّا وحيًا على أيدي الأنبياء والرُّسُل، ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فِيما لا طاقة له به، فإنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة إلى دائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقًا للإرادة والمقدرة.

إذن: المعجز هو ما لم تَقدر عليه مقدرة العقل، ومع ذلك يؤخذ عقلًا وإيمانًا معجزًا كما هو في حالة الإنباء الذي لا يتم إلّا من عند الله تعالى للأنبياء والرُّسل المصطفين عليهم الصّلاة والسّلام؛ ولهذا فكلّ شيء

مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازًا (نضجًا وعمرًا)، ومن هنا ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى نفسه وأن لا يغفل عن معرفة الأهميّة لهذا الأمر العظيم؛ كي يحسن التدبّر والتفكّر؛ وكي ينمو قولًا وعملًا وإرادةً وسلوكًا، أي: يجب أن ينمو عقل الإنسان تذكّرًا حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلًا وإعجازًا؛ حتى يستطيع استجماع القوّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات، والتجارب، والقصص، والمواعظ والعبر التي تمكّنه –عن تدبّرٍ– من إنشاء شيء جديد يفوق ذلك الماضي ارتقاءً، ومع ذلك فلا يقف عنده غاية، فالغاية بالنّسبة إلى من تدبَّر أمره في حاضره ارتقاءً، هي: بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنَّ بلوغه ممكن، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي له أن يتوقّف نموًّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاءً وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه والحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنَّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازًا؛ فهو غير المتوقّف نموًّا وازديادًا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعًا؛ ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءًا معجزًا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموًّا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنَّ فعل المستحيل بيد الخَالق، فالخالق لو لم يفعل مستحيلًا ما نشأ الخلق وجودًا مُعجزًا، وما أمكن للإنسان ارتقاء. إنّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى؛ فحيثما كان

الخلق كان النّشوء إعجازًا، وحيثما كانا (الخلق والنّشوء إعجازًا) كان الارتقاء، أي: لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا لا نميّز بين ما هو مستحيل إلَّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلَّا بفعلٍ معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلق من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب: {وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[23].

وعليه: فلا نشوء خَلقيًّا مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقيًّا إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا: فلا يولد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانًا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنّه وجود آخر، فإنَّه لولا الوجود الأوَّل ما كان شيئًا آخر؛ ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[24]، أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل (الطّين) المعجز ثمّ (النّطفة) المعجزة، والنّشوء الآخر جنينًا متكاملًا

---

[23] نوح: 17.

[24] المؤمنون: 12 . 14.

معجزًا فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولولا النّطفة ما كان المولود شيئًا آخر، وهنا يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزًا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، فإنَّ نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوءًا تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاءً السُّنبلة تمتلئ بذورًا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات؛ ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموًّا وكثرةً ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددًا ومعرفةً.

ولأنَّ النّشوء الخَلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، ثُمَّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة، فينبغي أنْ تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة؛ إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة اكتشف شيئًا جديدًا يمدّه بالمزيد المعرفي، فللأرض خامات وثروات ثمينة تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاءً معرفيًّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءًا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلًا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونيَّة التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

الممكنُ: هو الذي: (لا شكَّ في حدوثه، أو ظهوره كلّما توافرت معطياته أو شروطه)؛ ولهذا لا يعد الممكن مستحيلًا، ولأنّه غير مستحيل فهو بالضرورة سيقع وفقًا لما نتوقّع أو وفقًا لما لا نتوقّع.

وتتكون دائرة الممكن من (المتوقّع وغير المتوقّع) التي تتساوى فيها فرص ظهور كل منهما وفقًا للفرض الصفري بنسبة ثابتة قدرها (50%).

. **المتوقّع**: هو الذي عند حدوثه لا يحدث الاستغراب ولا المفاجئة، ولا توضع علامات الاستفهام، والتعجّب؛ ذلك لأنَّ حدوث المتوقّع ومعطيات ظهوره متوافرة بين الأيدي، مما يجعل إمكانية إثباته (هو كما هو صائبة)، وفي دائرة الممكن يمكن أن يكون المتوقّع سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا وفقًا للآتي:

الموجب المتوقّع: كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرًا مرضيًا في نفس الأنا والآخر، والذين لا يأخذون حذرهم يقعون في هذا المربّع؛ ولذلك خططهم ترسم على موجب متوقّع، وكأن الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأن العلائق بين النَّاس لا تبنى إلّا على الصّدق؛ ولذلك هم يفاجئون.

أمَّا السَّالب المتوقّع: فهو كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرًا موجعًا في نفس الأنا والآخر، من مظالم وعدوان وخروج عن القيم الحميدة والفضائل الخيّرة. والحذرون هم الذين يقعون في هذا المربّع، ومع أنَّهم يتوقّعون وجود سالب ويعملون على تفاديه فإنّهم يقعون في مصيدته (يقعون في الفخ).

. **غير المتوقّع**: وهو الذي بحدوثه يحدث الاستغراب، وتكون المفاجآت سواء أكان موجبًا أم سالبًا، وبه قد تُسفّه الخطط والإستراتيجيَّات وتبطل، ممّا يستوجب إعادة التخطيط وفقًا لأهداف لم يسبق التفكير فيها.

وهو الذي لا تتوافر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاث ومع ذلك يقع، مما يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا؛ يقع (غير المتوقّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السّابقة على وقوعه، ما يجعله يقع (كما هو) إثباتًا.

وعليه: ينبغي أن يُتَعَرَّفَ على غير المتوقّع وعلى علله ومسبباته لاحقًا؛ ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

. **الصّعب**: وهو الذي يحتاج إلى مضاعفة الجهد والإمكانات مع صبر وقبولٍ للتحدّي دون تردّد في البحث عمّا يخرج من التأزُّمات؛ ولذا فالصّعاب هي تلك الأعمال التي تستوجب مزيدًا من الجهد دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يأمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرًا ومزيدًا من الثبات وبذل الجهد الممكِّن من إنجاز الأهداف أو تحقيق الأغراض أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به، ومن ثمَّ فلا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها؛ ولذا وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاءً، فالصّعاب

إن لم تداهم ارتقاءً، لا بدّ أن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي لنا تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاءً، فإنّه لا ارتقاء لخرق المستحيل، فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالمًا بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الر غم من الصّعاب.

. الخارقة: عمل ينجز، به يتم بلوغ ما لم يكن في الحسبان، ممّا يجعل المفاجأة إضافة جديدة بقوانين غير مسبوقة؛ ذلك لأنَّ الخوارق ولّادة ما لم يكن بالحسبان، وبها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذّهنية ذات الرّؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها، وعلى الكيفيّة التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا.

ومن هنا فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقًا (تجاوز المألوف) وأظهر ما كان مجهولًا أو مختفيًا لحيّز المشاهدة والملاحظة فيضيف جديدًا غير متوقّع لميادين المعرفة الواسعة.

والخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنَّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق، وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجآت التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة، ومن ثمَّ فالخوارق تُصنع؛ لأنَّها تأتي عن غير قاعدة مألوفة، وعن غير معتاد ولا متوقّع،

ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها وعلى مَن اكتشفها أو جاء بها.

وعليه، فإنَّ المستحيل بيد الخالق وصُنعه، ولا إمكانيَّة للتمكّن منه فعلًا أو عملًا، أمَّا المعجز فهو ما يظهر الله عباده عليه من غيب، والذي بإظهاره يصبح في دائرة الممكن نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياء ورسُلًا عليهم الصّلاة والسّلام.

ومن هنا، أصبح علم الغيب في دائرة الممكن بين أيدي النّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه، ولا تكون المعجزة إلّا من الله؛ وبذلك فالمعجزة هي نقطة العودة التي يكون من خلالها:

- التفكُّر.
- التبصُّر.
- الاسترجاع.
- التبيان.
- البدء بحياة جديدة مغايرة عما كانت عليه سابقًا.

من مُعجزةِ مُحمَّدٍ

(اقْرَأْ)

مع أنَّ المعجزَ ما لا يستطع بنو آدم فعله وبلوغه، فإنَّ الأنبياء يُمكّنون منه، فبالمعجز سَجد الملائكةُ لآدم بما أعلمه الله به؛ ولأنَّ الملائكة يعلمون، فلمَّا علموا بما لا يعلمون وعجزوا؛ سجدوا لمن علّمه الله؛ طاعة لأمر الله.

ولأنَّ معجزات الأنبياء متجاوزة للخوارق؛ فهي لا تكون إلَّا من عند الله، أي: إنَّ معجزات الأنبياء جميعها ليست بأيديهم وإنْ تمت بها، كما هو حال معجزة النبي نوح –عليه السَّلام– الذي صنع الفُلك (المعجزة)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}[25]، ومِن ثمَّ فالمعجزة وإن ارتبطت بنبيٍّ فهي ليست من عنده؛ ولهذا تختلف عن الخوارق التي ترتبط بمن يخترق دائرة غير المتوقّع فيضيف للعلم جديدًا، مع العلم أنَّ الخوارق وإن عَظُمت لن تبلغ دائرة الإعجاز التي لا يبلغها إلَّا نبي.

ولأنَّ المعجزة لا تكون إلَّا من عند الله بعث الله الأنبياء والرُّسُل؛ لِيُظهرَ على أيديهم المعجزات الكاسرة للأوهام، التي قيدت عقول النَّاس وجعلتهم يتخذون من دونه آلهةً وأربابًا.

ومع أنَّ العموم يعتقد أنَّ معجزات الرُّسُل من أيديهم، فإنَّ الخصوص يعرفون أنَّها من عند الله؛ ففي الوقت الذي يقول فيه العموم: إنَّ القرآن معجزة سيدنا محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– يقول الخصوص: وكذلك التوراة

---

25 المؤمنون: 27.

معجزة النبي موسى، والإنجيل معجزة النبي عيسى، والزبور معجزة النبي داود –عليهم الصَّلاة والسَّلام– وفوق ذلك نقول: هذه الرِّسالات المعجزة تنزَّلت على أقوام، وشعوب، وأمم، وكافَّة، أمَّا معجزات الأنبياء الخاصَّة فأعظمها معجزةُ نبي الكافَّة (محمَّد)؛ لأنَّها معجزةُ حُجَّة باقية، أمَّا معجزات الأنبياء الذين سبقوه فجميعها –على عظمتها– معجزات حسِّيَّة مؤقَّتة في الوقت الذي فيه معجزة سيدنا محمَّد عقليَّة دائمة باقية، إنَّها معجزة: (اقْرَأْ).

(اقْرَأْ): التي في لحظة نُطقها نسخت في حينها الأميّة وعَتَمتها من عقل النّبي محمَّد، فانجلت الظُّلمة بنورِ النبوَّة، وأصبح العقل الذي كان لا يدرك إلَّا المشاهد والمحسوس عن قُربٍ، يدرك عن وعيٍ تلك العلاقة المعجزة بين السَّماوات والأرض.

ومع أنَّ كلمة: (اقْرَأْ) كلمة آمرة لا تُقال إلَّا لمن يعلم، ليقرأ ما يعلمه أو يعرفه، فإنَّها بالنِّسبة إلى سيِّدنا محمَّد قِيلت له من العليم الذي يعلم أنَّه ليس بِقارئ، ومع ذلك قالها له ليقرأ؛ إذ أرسل الله إليه رسوله جبريل ليبلغه بالأمر: (اقرأ)؛ فقال: اقْرَأْ، قال: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَا أَنَا بِقَارِئٍ[26]، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[27]. فقرأ باسم ربِّه (بسم الله)، ولأنَّ الله أمره أن يقرأ باسمه فكيف لا يقرأ!!

26–ينظر: صحيح البخاري، كتاب: بدء الوحي، حديث رقم: 3، 7/1، طبعة دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1422هـ.

[27] العلق 1 – 5.

ومن ثمَّ ألا يكفي النبي محمَّد معجزةً أنَّ الله قد أمره أن يقرأ المعجزات باسمه تعالى، وهو يعلم أنَّه لم يكن بقارئ، فلو كان محمَّد قارئًا وأُمر أن يقرأ المعجزات فلا إعجاز، ولكن الإعجاز أن يقرأ المعجزات وهو لم يكن بقارئ، ولأنَّ أمر (اقرأ) أمر (كُن) فكان محمَّد الذي لا يعرف القراءة والكتابة قارئًا، وأصبح محمَّد الذي لا يدري داريًا.

ولذا فإنَّ القراءة كانت بالفعل (كُن) الذي جعل من الفعل (اقرأ) على لسان محمَّد فعلًا مفعولًا، إنَّها القراءة باسم الله، وليست القراءة باسم محمَّد؛ ولأنَّها باسم الله؛ فلا مُعجز أمام محمَّد أن يتكلّم باسم الله كلّما نزلت عليه آية أو سورة من القرآن وفقًا لمشيئته تعالى.

إنَّها بحقٍّ معجزة؛ إذ انتهت معجزات الأنبياء والرُّسل جميعها، وبقيت معجزة النبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–باقية، فمن شاء أن يقرأ كلام الله فلا يجده إلَّا بقراءة محمَّد (بسم الله) في كتاب الله.

(واقرأ) لم تكن أمرَ أرضٍ، بل كانت أمرًا من السَّماء، فلو كانت أمرَ أرضٍ ما قرأ محمَّد؛ لأنَّه أميّ، ولأنَّها أمرٌ من السَّماء فقرأ محمَّد بسم الله ما جاء من السّماء، وهذه عظمة المعجزة.

وعليه: فإنَّ معجزة النبي محمَّد (اقرأ) جاءت لتخاطب العقل، وتكسر وهم أميّته، التي فتحت لها مدارس بلا مدرسين، والمنتسبون إليها يُعلّمون بلا علم، وتقدَّست فيها الآلهة بلا مُقدَّس. فكانت (اقرأ) نبراس هداية من الله الذي تتعدَّد صفاته وهو الواحد الذي لا يتعدَّد.

اقرأ، هي معجزةُ محمَّد العقليَّة التي تخاطب العقل، وتُكسر الوهم، وتطمئن النّفس، وتُحدثُ النُّقلة من الأميّة إلى الدراية، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الشرك إلى الواحديَّة، ومن الكفر إلى الإيمان.

ولأنَّ (اقرأ) جاءت لرَسُول الكافَّة أمرًا مفعولًا (كن قارئًا طائعًا)؛ فبقيت للكافَّة فعلًا مأمورًا: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[28]؛ ولأنَّ اللهَ يعلمُ أنَّ الرَّسول محمَّدًا يعلمُ قال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}؛ ذلك لأنَّ الله –تعالى– لا يمكن أن يُعطي أمره لمن يجهل أمره؛ ولهذا فعندما قرأ محمَّد باسم الله مفوَّضٌ من ربّهِ –تعالى– باركه ربّه والملائكة بالصَّلاة عليه، ثمَّ أمر الله المؤمنين بمباركة النبي محمَّد والتسليم عليه، بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[29]، وهذه الآية الكريمة تدلُّ على الاعتراف بالمعجزة (رسالة الكافَّة)، وبالأمر المعجز (اقرأ)، والمباركة والتسليم لصاحب المعجزة (محمَّد) الذي قرأ ساعة الأمر بالقراءة وهو لم يكن من قبلها بقارئ.

وأضيف: إنَّ صلاة الله والملائكة على النبي محمَّد هي الأخرى معجزة من المعجزات التي وهبها الله –تعالى–للنبي محمَّد، أي: ألا يكفيه معجزة أنَّ الله وملائكته يصلون عليه، وأنَّ الله أمر الكافَّة أن تصلِّي وتسلّم عليه؟

نعم، إنَّ: (الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمّد) مُعجزة باقية مع

28 الحشر: 7.

29 الأحزاب: 56.

معجزة: (اقرأ) إلى يوم يبعثون.

ومع أنَّ كلمة (اقرأ) جاءت أمرًا مُلزمًا من الله إلى نبيّه محمَّد فإنَّ الإلزام بها لم يأتِ كرهًا، بل جاء الإلزام طلبًا لإظهار الإرادة والفاعليّة تهيؤًا وتأهُّبًا، ومن هنا قرأ محمَّد بسم الله ما لم يكن بقارئٍ له؛ ولهذا فكلمة (اقرأ) تعدُّ أوَّل كلمة تتنزَّل على محمَّد، وبها يُؤمر طلبًا بعد أن تهيأ لها وتأهَّب واستعدَّ.

ومع أنَّ مُعظم المفسّرين يرى أنَّ كلمة (اقرأ) هي مفتاح المعرفة فإنَّنا نرى أنَّ مفتاح المعرفة هو التعلّم لمن أراد أن يتعلَّم ويتعرَّف: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[30]؛ ولذا فقوله تعالى: (اقرأ) هو مفتاح الدِّراية التي هي أعمق من علم المعرفة بالقلم؛ فالدِّراية تُمكِّن من معرفة علم الله في خلقه، وهي التي بها نُسخت أميَّة محمَّد لحظة قراءته بسم الله طاعة لأمر الله، والفرق كبير بين أن تقرأ وتتعلّم على أيدي معلّمين وتتعرّف على ما تتمكّن منه تعلّمًا، وأن تُمكّن من معرفة العلم المعجز الذي ينسخ الأميَّة ويلغي وجودها كما نسخها وألغاها من ذهن محمَّد وملكات عقله حتى اطمأنت نفسه بعلم الدّراية الذي هو من عند الله تعالى: {كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}[31].

---

[30] العلق: 4، 5.

[31] الشورى: 52، 53.

ومن هنا فعلم الدِّراية لا يعلمه درايةً إلَّا الله أو من يُظهَر عليه أو على شيء منه؛ فينكشف الحجاب أمامه ليرى ما لم يره غيره: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[32].

إذن: علم الدّراية هو العلم المتجاوز للمعرفة التي لا تكون إلا في دائرة الممكن، سواء أكان الممكنُ متوقَّعًا أم غير متوقّعٍ؛ وبهذا فإنَّ علم الدراية متجاوزٌ لهذه المعارف، إنَّه العلم الذي يمتد إلى الدراية بالمعجز الذي لا يبلغ إلَّا وحيًا يُوحى، والذي مهما بلغ المخلوق من دراية فلن يبلغها دراية كاملة؛ مما يجعل الرَّاسيات بالدّراية علم غيب لا يعلمه إلَّا الله: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[33]، وقال تعالى: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[34].

ومع أنَّ الله أدرى عباده عن طريق رُسُله بما أدراهم به من معجزات فإنَّه أدراهم بأنَّهم لن يدروا كلّ شيء حتى وإن عرفوا من المعرفة ما عرفوا؛ ومع أنَّ الله قد أعلم خَلقه عن الجنّة والنّار وعلم السّاعة التي لا يعلمها إلَّا هو –جلَّ جلاله–فإنَّه لم يدريهم بحقيقتها كما هي؛ ولذا فمع أنَّنا نعرف عظمة الجنّة والنَّار فإنَّ معرفتنا لا تزيد عن كونها معرفة تقديرية؛ وذلك لعدم

---

[32] لقمان: 31.

[33] لقمان: 34.

[34] الزخرف: 85.

بلوغنا علم الدّراية، ومن ثمَّ فلا إمكانيّة لمعرفة المعجزات إلَّا بعلم الدراية الذي لم يبلغه العقل البشري إعجازًا واستحالةً.

إذن: علم الدراية غير علم المعرفة، علم المعرفة يتم رواية متناقلًا عبر التَّاريخ، وتعليمًا منهجيًّا كما تتم العملية التعليميَّة المدرسيّة، وبه تتغيّر أحوال المتعلمين من الجهل إلى التعلّم، وهكذا بالبحث العلمي يتعلّم المتعلمون معرفةً بها تتغير صفاتهم من (الجهل إلى التعلَّم)، أمَّا علم الدراية: فعلم تذكّر وتدبُّر وتفكّر واتعاظ حتى بلوغ التسليم حُجّة وبرهانًا وحقُّ يقين، ومن ثمَّ فلا شيء يخفى إلَّا المستحيل.

وعليه: فالمدري يَلمُّ بما يَعلمهُ ولا شيء منه يُفقد مع كشفه في دائرة الممكن لتلك الخفايا (الظاهرة والباطنة)، أمَّا المتعلّم فلا يلمّ إلَّا بشيء مما تعلَّم وإن عظمت معارفه؛ ولذا فمهما تعلَّم المتعلِّم فهو في حاجة لأن يتعلَّم، وهذا يعني: أنَّ جزءًا كبيرًا من الجهل ما زال يصاحب ذهنه وعقله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[35].

وعليه: فهناك علاقة ترابط بين مفهومي: كلمة (اقرأ)، وكلمة (دراية)؛ فمفهوم كلمة (اقرأ) المأمور بها قراءة تحمل في مضمونها الإلمام، وبالتمام الدراية تحمل في مفهومها التفحُّص الذي لا يكون إلَّا نتاج قراءة إلمام؛ ولهذا فمفهوم (اقرأ) ليس قراءة تهجّي أحرف أو كلمات وجمل ونصوص، بل قراءة التفحّص والتدبُّر درايةً وإلمامًا.

[35] الإسراء: 85.

ومن هنا جاء مفهوم (اقرأ) أمرًا يشير إلى تمكُّن المأمور (محمَّد) بقراءة كل المشهد الإعجازي الذي لم يكن من بعده محمَّدٌ أميًّا.

ولأنَّ محمَّدًا مأمورٌ أن يقرأ باسم ربَّه –تعالى–فقرأ ما أُمر بقراءته من قرآن، ومن هنا، وكما بيَّن اللغويون في قواميس اللغة جاءت كلمة القرآن من كلمة: (اقرأ)، وكلمة (**اقرأ**) تعني مما تعنيه:

. **اقرأ بمعنى تكلَّم**: فقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[36]، أي: تكلّم يا محمَّد باسم ربِّك، وبه انطق وأفصح: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}[37]، ومن ثمَّ فمن يأذن الله له أن يتكلّم باسمه ألا يكون هذا الإذن معجزة لمن أُذن له أن يتكلَّم باسمه تعالى؟

إنَّها معجزة محمَّد الذي خصَّه الله بها، وبها تميَّز، وبها عُظِّمت رسالته وتعظَّم دوره وشأنه.

ولذا فكلمة (تكلَّم) تعني مما تعنيه: انطق وأفصح مجاهرة بما أُمرت به رسالة للكافةِ: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[38]، أي: ارفع صوتك واجهر به ولا تتردد؛ ذلك لأنَّه وحده صوت الحقّ المطلق، ومن ثمَّ فالوحي الذي جاءك سرًّا من عند الله حان الوقت للمجاهرة به بإذن الله

---

[36] العلق 1.

[37] الحجر 94.

[38] الحجر: 94 – 96.

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}، وبصدعك به سَتُشَقُّ صفوفُ الكّفرة وصفوف الأمّيين الذين لا يدرون بما أُنبأت به وأُرسلت إليه.

. **اقرأ بمعنى تفحّص**: أي: تبيّن يا محمَّد ودقّق ثمَّ تمعَّن في المعجزات التي أدريتك بها وجعلتها بين يديك؛ لتبشِّر بها وتدعو، وتفحّص ولا تتردّد فكلّ المعجزات التي بين يديك يا محمَّد تستوجب أن تقرأها؛ لتتمكّن من التمييز الذي يُمكّنك من معرفة المستحيل مستحيلًا وتقف دونه، ومعرفة المعجز معجزًا وبه تصدع، ومعرفة الممكن ممكنًا وعليه تقدر؛ قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[39]، فاقرأ كتابك: تفحّص كتابك، وهو ما كنت عليه أيُّها الإنسان، وما فعلته من كبيرة وصغيرة؛ إذ كلّ شيء أصبح مكشوفًا، ولا شيءَ مخفيٌّ.

إذن: فكلمة (اقرأ) جاءت مفتاحًا للدِّراية قبل أن تكون مفتاحًا للعلم والمعرفة؛ ذلك لأنَّ مفتاح الدِّراية هو الوحي، وأنَّ الذي لا يوحى به لا يُدْرَى به؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[40].

أمَّا التعلّم فجاء مفتاحًا للعلمِ؛ قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ

[39] الإسراء: 14.

[40] الأحزاب: 63.

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[41].

أمَّا التجربة والخبرة فجاءت مفتاحًا للمعرفةِ؛ ذلك لأنَّ الخبرة إلمام بما ينبغي قبل الإقدام على الفعل؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[42] فهذه التوصيات نتاج خبرة معرفيّة، التي لو لم تكن مجرَّبة عند لقمان ومختبرة ما وصّى بها ابنه، أي: لو لم تكن فعَّالة ولها مردود موجب وفي مرضاة الله –جلَّ جلاله– ما حرص لقمان على أن يوصي بها ابنه؛ ليكون من بعده خير خلف لخير سلف.

اقرأ بمعنى بلِّغ، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[43]، فكلمة (اقرأ) جاءت وغاية التبليغ فيها، أي: بلّغ يا محمَّد ما أنزل عليك باسم ربّك الذي خلق؛ أي: اِقرِئ غيرك كما أنت قرأت، وإن لم تفعل ذلك فما بلغت الرّسالة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

---

[41] البقرة: 31 – 33.

[42] لقمان: 16 – 19.

[43] العلق: 1.

رِسَالَتَهُ}[44]؛ وقال تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[45]، أي: البلاغ المبيّن للحجّة وضوحًا كما أنزل بأمر الله تنزيلًا، فما عليك يا رسول الله إلَّا البلاغ المبين؛ ولهذا فالقراءة والإقراء رسالة واجبة التبليغ بيّنةٌ ببيّنةٍ.

إذن: فمعجزة محمَّد (اقرأ) أحدثت له نُقلة من الأميَّة إلى الدّراية، وجعلته رسولًا مبشّرًا ومنذرًا فمحمَّد هو من: (قرأ باسم الله، وبلّغ باسم الله، وبيّن باسم الله)؛ ولذا فمن يعطهِ الله كلّ هذا المعجزات ويخصّه بها ألَّا تكون هذه المعجزات مقيدة باسمه ومحصَّنة به.

مُعجزةُ

(بقاء الرِّسالة)

مع أنَّ المخلوق لا بقاء دائم له إلَّا في الحياة الباقية، وأنَّ معجزات الأنبياء هي الأخرى ليست بالباقيّة؛ فإنَّ رسالة محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– ومعجزاته وحدها الباقية (إنَّها معجزة محمَّد)؛ ولذا فبقاء رسالة محمَّد وبقاء معجزاته واستمرارها حيّة من بعده، وصالحة لكل زمان ومكان هي معجزة بذاتها.

ومع أنَّ محمَّدًا لم يكن على قيد الحياة الدُّنيا فإنَّ الصَّلاة والسَّلام عليه باقيان على قيد الحياة ما بقيت، أي: إنَّه النّبي الكريم الذي لم تنقطع الصَّلاة والسَّلام عليه أبدًا، ومن هنا فهي المعجزة الباقية.

---

[44] المائدة: 67.

[45] النور: 54.

وعليه: فإنَّ بقاء معجزات رسالة محمَّد باقية دائمة لا تنقطع؛ وذلك ببقاء صلاة الله وملائكته عليه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}[46]، قال: (يُصَلُّونَ) وهذه حُجَّة الدّيمومة والبقاء، ولم يقل: (صَلُّوا) فلو قال: (صَلُّوا) لكانت الصَّلاة وقد انقطعت، أمَّا (يُصَلُّونَ) فالصَّلاة دائمة مستمرّة فلا تنقطع، وهذه معجزة عظيمة ولم تُكتب لغير محمَّد.

أمَّا قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[47]، فهو أيضًا القول المعجز بقاء لمحمَّد؛ كونها الصَّلاة المأمور بها ديمومة وبقاء مع السَّلام الباقي الدّائم وهي صلاة المسلمين المؤمنين وسلامهم عليه في كل حينٍ ومكانٍ؛ ولذا فهي المعجزة الباقية إيمانًا والتزامًا وطاعة لأمر الله الباقي.

وعليه: فإنَّ الصَّلاة والسَّلام على محمَّد تحتوي ثلاث معجزات عظيمات وبعضها من بعض، هي:

1 ـ معجزة الصَّلاة والسَّلام كما سبق تبيانه ديمومة وبقاء.

2 ـ معجزة تعظيم الله وملائكته لمحمَّد؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}[48]، كيف وأنَّ الله وملائكته يصلّون على النبي محمَّد ولا تكون هذه الصَّلاة من أعظم المعجزات التي أعطيت لمحمَّد عطاءً وكأنَّه عطاء فطرة من الله تعالى؟

3 ـ معجزة الأمر بالصَّلاة والسَّلام على محمَّد، مع أنَّ الله تعالى صلَّى وملائكته على محمَّد تعظيمًا ومباركة ورفعة شأن؛ فإنَّه أمر المؤمنين أمرًا

---

[46] الأحزاب: 56.

[47] الأحزاب: 56.

[48] الأحزاب: 56.

بالصَّلاة والسَّلام على محمَّد: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، ومن هنا أصبحت الصَّلاة والسَّلام على محمَّد قاعدة رئيسة في الدين الإسلامي؛ إذ لا إسلام من دون الصَّلاة والسَّلام على محمَّد، وهذه معجزة.

ولهذا فصَّلاة الله على النَّبي محمَّد تعظيمٌ لشأنِه ومباركة له، وهذه من أعظم المعجزات، وإلَّا هل هناك من يعظّمه الله، وتعظّمه الملائكة، ويعظمه بنو آدم ولا يكون هذا التعظيم معجزةً منحت له؟

ومن هنا تعدُّ صَّلاة الملائكة صلاةُ العاملين على الأخذ بالأمر طاعة: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}[49]، وفي المقابل صلاة المؤمنين على النَّبي صلاة مباركة به ومباركة عليه؛ ولهذا فهم بالصَّلاة عليه يسلِّمون تسليمًا؛ استجابة لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[50].

وأمَّا صلاة النَّبي على المؤمنين فهي طمأنة قلبيَّة يسكن القلب إليها: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}[51]، ومن هنا يستمد المسلم سكينته بصلاة النبي عليه، والتي لا تتحقّق إلَّا بصلاة المسلم المؤمن على الرّسول الكريم؛ ولذا فمن يصلّي على النبي يصلّي النبي عليه.

وعليه: فعظمة الصَّلاة على النَّبي استمدت عظمتها من صلاة الله عليه، ولو لم يكن محمَّدٌ عظيمًا ما صلى الله وملائكته عليه، ولو لم تكن

---

49 الأنبياء: 27.

50 الأحزاب: 56.

51 التوبة: 103.

الصَّلاة وجودًا عظيمًا ما كان الإيمان بها وإقامتها؛ ولأنَّها شيء يقام ويتخذ رحمة؛ فهي ذات الأثر الموجب على الأنفس والقلوب والعقول المؤمنة؛ قال تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}[52]، أي: رضاك عليهم يجعلهم مطمئنين آمنين، فصلِّ عليهم (ارضَ عليهم).

ولأنَّ الصَّلاة شيءٌ موجودٌ فلا تكون إلّا بفعل فاعل (بخلق خالق)، وخالق الشّيء لا يمكن أن يكون شيئًا، ولا يكون لا شيء، ولا يكون شيئًا آخر؛ فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحًا، أي: فالخالق لا يكون إلّا خالقًا: (الخالق يَخلق ولا يُخلق)؛ ولهذا يصلَّى له تضرُّعًا، ويؤخذ أمره تسليمًا مطلقًا؛ ولذا فالصَّلاةُ على النَّبي مأمورٌ بها لأنَّها:

. ترضي المصلَّى له.

. ترضي المصلَّى عليه.

. ترضي المصلِّي.

وعليه: فلا أعظم إعجازًا لبشرٍ من أي معجزة أعظم من صلاة الله وملائكته على رسوله محمّد.

ولسائل أن يسأل: وماذا تعني الصَّلاة على محمَّد؟

تعني: رضا الكمال والجلال من الله –تعالى–على نبيّه، ومن ثمَّ: فصلاة الله على نبيِّه محمَّد رضًا عليه، وصلاة النَّبي على المؤمنين رضا عليهم؛

52 التوبة: 103.

ولذا فإعلان الرِّضا من الله على محمَّد والتبليغ به والأمر بالصَّلاة والتسليم عليه عين الإعجاز في ذاته.

إنَّها الصَّلاة المفعولة من الله –تعالى–على نبيّه، ولأنَّها المفعولة من الله جلَّ جلاله؛ فقد فُعلت من الملائكة صلاة على النَّبي؛ (استجابة لِصلاة الله عليه) قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}[53] أي: إنَّ الله يعظِّم نبيّه، والملائكة الطَّائعون له يصلّون على النَّبي؛ طاعة لصلاة الله عليه، وبما أنَّ فعل التعظيم والرِّضا والمباركة متحقِّقات للنَّبي من الله وملائكته فَلِمَ لا تتحقّق عليه مِن قِبل مَن يؤمن بالله وملائكته؟ ومع ذلك سواء صلّى عليه من يُصلي أو لم يصلِ فصلاة الله وملائكته الطّائعين على نبيّه دائمة غير منقطعة؛ وهذه عين الإعجاز {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}.

ومن هنا فالصَّلاة تُفعل استجابة بلا انقطاع كما يفعلها الملائكة الذين استجابوا ذاتيًّا مع صلاة الله على النَّبي فصلّوا عليه، وتُفعل مِن قِبل الذين فُعلت عليهم (الأنبياء، والمؤمنين الصّالحين) أي: إنَّ النَّبي يصلِّي على المؤمنين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}[54]، والمؤمنون بدورهم يصلّون عليه ويسلِّمون تسليمًا طاعة للأمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[55]، أي: فَمَن أراد أن ينال رضا الله فليصلِّ على من رضي الله عليه (على النَّبي)، وهذا يعني: لن ينال أحدٌ رضا الله –

53 الأحزاب: 56.

54 التوبة: 103.

55 الأحزاب: 56.

تعالى- ما لم (يصلِّ على النَّبي) وهذه معجزة باقية فصلوا عليه أيُّها العباد وسلموا تسليمًا.

وعليه: فإنَّ صلاة الله على النَّبي ليست دعاء، بل مباركة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}[56] مع أنَّه قال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ} فإنَّ الله لا يُجمع؛ لأنَّه لم يكن شيئًا، أي: خالق الشيء لا يمكن أن يكون شيئًا؛ ولهذا فلا يُجمع، ممّا يجعل الضمير الجمعي يتعلّق بالملائكة وحدهم؛ كونهم (جمع ملك)؛ فقوله: (إنَّ الله) تخصّ الخالق الذي بارك النَّبي (صلَّى عليه) في خَلْقِه واصطفائه ومباركته وخُلُقِه.

ولأنَّ خالق الشّيء لا يمكن أن يكون شيئًا فلا إمكانيَّة لخلق الشيء شيئًا إلّا بمُشيء شاءه أن يكون، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كُنَّا نطرحهُ على أنفسنا أعوام الدّراسة الإعداديّة والثّانويّة، وهو:

من الذي خَلق الخَالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنَّنا نقول: الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خَلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟

إنَّه الخالق الذي يَخْلُقُ ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق فهو ليس بالخالق؛ ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤال ليس في محلّه؛ لأنَّ السَّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة؛ إذ لا هيئة للخالق،

56 الأحزاب 56.

بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّةٍ في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوَّر بما هو على هيئة الصّورة، ومن ثم فمن يتصوَّر لله هيئةً يجعله وكأنّه داخل الإحاطة، ومن يفكِّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد على كونه تفكير كتكوت داخل البيضة الذي لا إمكانية له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن): كيف كان؟

نعم، الله (لم يكن) حتى نسأل عنه كيف كان، فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان؛ كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ولذلك؛ فلا ينبغي أن يكون السُّؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السُّؤال:

. من هو الله؟

. ما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم كما سمى به نفسه: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}[57]، وهو الذي لم يكن كائنًا حتى يسأل عنه كيف كان؛

[57] طه: 14.

ولذلك فالكائن لا يكون إلَّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون؛ ومن ثمَّ فأيِّ كائن لا يكون إلَّا على هيئته، ووفق مشيئةٍ ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علمًا، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟

أي: كيف لنا بهذا، ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكَّن بعد من الخروج عنه بأيِّ سببٍ، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوَّر الكون باعتبارنا جُزيئًا فيه، أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمَّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على غير صورة، ومن ثمَّ لا إمكانيّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنيّة، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها.

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السُّؤال: كيف كان الله؟

. فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسُّؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسَّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا أنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان خالقه؟

أي: ألا يكفي إجابة أنْ يعلم عجزه عن معرفة كيفيَّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟!

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف: كيف خُلق؟ وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق؟ ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف: كيف خُلقت؟ وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق؟ ووفق أيّة مشيئة هي خُلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي لا شكَّ أنَّك ستعرف نفسك ثمَّ تعرف أنَّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه عليك، وهو الواحد الذي لا يتعدّد[58].

وعليه:

فالخالق خَلَقَ ويَخْلُق، وعظَّم ويعظِّم، وبارك ويبارك؛ ولأنَّ الله بارك النَّبي (عظَّمه بالصَّلاة عليه)، فصلَّى الملائكة عليه مباركة به، والصَّلاةُ هنا ليست ركوعًا ولا سجودًا، بل تعظيمًا وتسليمًا بالنَّبي المبارك في خَلقه واصطفائه؛ لأنَّ النَّبي محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام خُلق على الحمد خلقًا.

ولأنَّ الصَّلاة من الله وملائكته على النبي محمَّد دائمة غير منقطعة؛ مصداقًا لقوله: {يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي} التي أنزلت بصيغة الاستمرار ولم تأتِ تنزيلًا بصيغة الماضي، التي لو جاءت به لكان القول: (صلّوا على النبي)، وليس {يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}. ألا يكفي أن نقول: إنَّ معجزة محمَّد أنَّ الله وملائكته يصلون عليه دائمًا أبدًا؟ أي: هل هناك ما هو أعظم من أن يصلي الله وملائكته عليه صلاة باقية دائمة لا تنقطع.

58 عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م، ص 278.

ولذا فقد جاءت صلاة الملائكة إيمانًا بالمبشَّر به نبيًّا قبل أن يرسل نبيًّا؛ ولهذا جاء قوله: يصلون عليه فعل مستمرٌّ، ولم يأتِ ماضيًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[59]، ومع أنَّ كلمة (يصلُّون) جاءت مضارعة فإنَّ مفهومها في هذه الآية الكريمة يدلُّ على أنَّ الصَّلاةَ على النَّبي تحصيل حاصل؛ كون مفهومها في علم الله –تعالى– متحقّقًا، ومن ثمَّ فيجب على خلقه المؤمنين أن يباركوه صلاة وتسليمًا؛ لأنَّهم من يحتاج للصَّلاة على النَّبي؛ فهم بالصَّلاةُ عليه ينالون صلاة الله وملائكته الذين يصلون عليه، أي: ينالون رضا الله ومباركة الملائكة، ومن ثمَّ ينالون رضا الرَّسول عليهم؛ فالرَّسول الذي يصلِّي الله عليه، لم يعد في حاجة لمن يصلِّي عليه، ولكن المصلِّي عليه في حاجة لأن يصلِّي على النَّبي إذا أراد نيل مرضاة الله، قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبي الْأميّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[60]، أي: فمن يرغب الهداية والمباركة فعليه بالصَّلاة والسَّلام على النَّبي؛ الذي بالصَّلاة والسَّلام عليه ينال رضا الله الذي يصلِّي على المؤمنين: {وَمَن لَمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا}[61] يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان بالله (توحيده)، وأنَّ الإيمان بالرَّسول (الصَّلاة والسَّلام عليه، والأخذ بما جاء به والانتهاء عمَّا نهى عنه)؛ ذلك لأنَّ الصَّلاة والسَّلام عليه لا يقتصران على القول اللساني، بل يتعدَّيانه

59 الأحزاب: 56.

60 الأعراف: 158.

61 الفتح: 13.

إلى الإيمان القلبي الذي يُمكِّن من الأخذ بالأمر الذي جاء به محمَّد رسولًا للكافَّة.

وعليه:

لا يمكن للمؤمن أن يكون مؤمنًا ما لم يصلِّ ويسلّم على النَّبي؛ ولهذا فلا داعي للغفلة التي تلهي العباد عن طاعة أمر خالقهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ على النَّبي فيها ذكر لله، وتمجيدٌ لصلاته على محمَّد الذي أمر بالصَّلاة والسَّلام عليه؛ ولذلك فقول المؤمن: (اللَّهُمَّ صلِّ على النَّبي) فيها ذكر الله (اللَّهُمَّ) الذي يجب أن يذكر كثيرًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[62]، ومن ثمَّ فبالصَّلاة والسَّلام على محمَّد ينال المؤمن صلاة الله عليه.

من مفاهيم الصَّلاةِ على النَّبي:

مع أنَّه من حيث المنطق ينبغي أن يتطابق المفهوم مع اللُّغة، فإنَّه من حيث الاستخدام نجد اختلافًا، وهنا يظهر اللبس الذي يستوجب البحث الموضوعي، وتصويب المتقاطعات وفك الملابسات التي تتعلَّق بالصَّلاة والسَّلام على النَّبي –عليه الصَّلاة والسَّلام–من حيث:

. **المفهوم الأوَّل**، القول بأنَّ الله صلى على النَّبي، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبي}، فمع أنَّ القول استخدامًا جاء (صلَّى الله على النَّبي)، ولكن نصّا قرآنيًّا جاء: {يُصلُّونَ على النَّبي} ولم يقل: (صلّوا)؛

62 الأحزاب: 41 -43.

ولهذا مفهومًا ينبغي أن نقول: (الله يصلّي على النَّبي) أو (يصلِّي الله على النَّبي) ولا نقول: (صلَّى الله على النَّبي)؛ لأنَّ الصَّلاةَ الأولى متَّصلة (مستمرّة)، أمَّا الثَّانية فمنفصلة (ماضية)، أي: منتهية، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الماضي يدخل الله في الزّمن، أمَّا الاستمرارية فلا تراه إلَّا باقيًا ومحيطًا (يحيط ولا يُحاط).

وعليه:

عندما نقول: صلَّى الله على النَّبي، فنحن نخبر عن صلاة الله على النَّبي وكأنَّنا الشُّهود عليها مع أنَّنا لسنا كذلك.

وفي المقابل لو قلنا: (الله يصلّي على النَّبي) فنحن نقرّ بما أُعلمنا به من عند الله {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}.

. المفهوم الثَّاني: قول: (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[63]، فهذا القول (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه)، مفهومه دعاء الدَّاعي الذي يدعو الله أن يصلّي على النَّبي، وبدعائه هذا وكأنَّه لم يعلم أنَّ الله يصلِّي على النَّبي، ومع أنَّه يعلم فإنَّه يدعو بهذا الدُّعاء، وهنا لا أتحدث عن النيَّة؛ فالنيَّة لا شكّ أنَّها في اتجاهٍ والدُّعاء في اتجاهٍ آخر، ونحن هنا نريد أن نخاطب العقل؛ ليميِّز بين ما يُقال، وما يُضمر عليه، وينوي به، ومع ذلك فإنْ كان دعاؤنا بنيّة المباركة ففيه من الخير ما فيه.

63 الأحزاب: 56.

إذن، قولنا: (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على النَّبي) فيه من التباس المفاهيم ما فيه، من حيث:

ـ مع أنَّنا لا نشكُّ في أنَّ الله يصلِّي على النَّبي فإنَّ قولنا: (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على النَّبي) يتضمن مفهومًا وكأنَّنا ندعو الله ونرجوه أن يصلي على النبي في الوقت الذي قال فيه نصًّا: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}.

ـ وفي دعائنا هذا ندعو الله أنْ يسلِّم تسليمًا على النَّبي في الوقت الذي لا يمكن أن يسلِّم فيه الخالق للمخلوق وإن كان نبيًّا معظَّمًا؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي} ولم يقل: (ويسلِّمون تسليمًا)؛ لأنَّ أمر التسليم لا يكون إلَّا من قِبل من لا يسيطر على المستحيل والمعجز، ولأنَّ الله هو المهيمن والمسيطر فلا تسليم، بل التسليم ممن يقف عاجزًا أمام المستحيل والمعجز، وهذا من قصور الخلق أمام كمال الله وجلاله، بمعنى: ينبغي أن يكون التسليم من المخلوق للخالق تعالى، وليس التسليم من الخالق للمخلوق؛ ومن هنا تغيب الحجَّة.

ـ المفهوم الثَّالث: قول: (عليه الصَّلاةُ والسَّلام)، هذا القول يعد أخذًا بالأمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، وهذه استجابة المأمور بالصَّلاة والسَّلام على النَّبي؛ فعندما يقال لك: (صلِّ وسلِّم على النَّبي) فينبغي أن تقول: عليه الصَّلاةُ والسَّلام، أي: الصَّلاة والسَّلام على النَّبي.

أمَّا عندما يقال لك: (صَلِّ على النَّبي وسلِّم تسليمًا) وتقول: (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه)، ففي مفهوم هذا القول وكأنَّك قد أحلت الأمر من

صلاتك على النَّبي إلى الله ليصلِّ عليه نيابة عنك، أي: بدل أن تقول: (عليه الصَّلاةُ والسَّلام) قلت: (اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه) وهنا فإنْ لم يكن هذا القول بنيّة المباركة والتعظيم للرّسول الكريم فإنَّك قد حمَّلت هذا المفهوم ما لم يحمل من ثقل من حيث:

ــ إنَّ الله يصلي على النَّبي مسلّمة من مسلّمات الحق: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي}.

ــ إنَّ الله يصلي على النَّبي، ولكن لا تسليم له من الله تعالى، وصلاةُ الله على النَّبي سارية دائمة، ومتَّصلة باقية فلا تنقطع، ولا تنتظر داعيًا؛ فالتي تنتظر داعيًا الصَّلاةُ والتسليم اللذان يُعدَّان فرضًا على المؤمن حتى يؤديهما قولًا وإقامةً وأداءً.

ــ وهناك فارق مفهومي بين قوله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[64]، وقوله: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}[65]؛ فمفهوم الأولى كما سبق تبيانه: يؤكّد على صلاة الله على النَّبي بقاء وديمومة لا تنفصل، وكذلك يظهر أمر الله للمؤمنين بالصَّلاة والسَّلام والتسليم على النَّبي.

أي: هناك مفاهيم ثلاثة تستوجب التبيان:

الأوَّل: الصَّلاةُ على النَّبي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ}؛ لأنَّه لم ينطق عن الهوى، والصَّلاةُ هنا اتباعه فيما يقول ويفعل ويعمل ويسلك،

64 الأحزاب: 56.

65 الصافات: 181.

وليست الصَّلاةُ مجرّد قول ينطقه اللّسان، ولتقريب المفهوم: العرب عندما تثق في شخصٍ ما وتصدِّقه، تقول: هذا الشّخص الكريم يصلّى على طرفه، أي: وكأنَّه منزّه من الزلل؛ ولهذا فمفهوم (صلّوا عليه) خذوا ما آتاكم وانتهوا عمَّا نهاكم: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[66]

الثَّاني: التسليم للنبي اعتراف وقبول واستيعاب (وَسَلِّمُوا) بمعنى: اعترفوا به نبيًّا متميّزًا بنبوَّته، ورسالته، وأطيعوه فيما آتاكم به رسولًا، واتبعوا سُنَّته.

الثالث: التسليم للنبي طاعة (تسليمًا): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[67]، بمعنى: تسليمًا لا يلحقه الشكّ ولا الظن؛ لأنَّه رسول الله المصلَّى عليه تمجيدًا وتعظيمًا[68].

. أمَّا قوله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}[69]؛ فهو قول التعظيم لكل الرُّسُل الكرام ولا تفريق بينهم؛ ولذا فمن يؤمن بالله والرسول الخاتم فهو كما يصلّي على محمّد ويسلم عليه يصلي ويسلّم على جميع الرّسل الذين اصطفاهم الله وأرسلهم موحدين ومبشرين وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

---

66 الحشر: 7.

67 النساء: 59.

[68] عقيل حسين عقيل، أمحمَّد أمي، مكتبة القاضي، القاهرة: 2021م، 68.

[69] الصافات: 181.

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[70].

وعليه، فإنَّ سلام المؤمن على المرسلين؛ سلام إيمان وطاعة لأمر الله، وتعظيم لهم ولما قاموا به وأدوه طاعة لأمر الله؛ ولأنَّ كلَّ الرُّسُل –عليهم السَّلام–أتموا ما أرسلوا به على الرّغم من الصِّعاب والشدائد التي واجهتهم (فسلام على المرسلين).

ولهذا فسلام الله على المرسلين تحمل في مفهومها جزاء الله لرُسُله الجزاء الأوفى (الفوز بالجنَّة الواسعة)، أمَّا من المؤمنين فسلام على المرسلين تعني: المباركة والتمجيد والتسليم بالأنبياء وما أنزل عليهم، وما فعلوه بغاية واحديَّة الله، والدَّعوة لإحقاق الحقّ والعدل وفقًا لمشيئته –تعالى– فسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين[71].

---

[70] البقرة: 285.

[71] مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م، ص 96.

معجزةُ

التبشيرِ بمحمَّدٍ

ولأنَّ مفهوم كلمة النَّبي لا تحديد ولا قيد عليها فهي ذات مفهوم يتعلَّق بأيِّ نبيٍّ، ولكنَّ التنزيل خصَّ بذلك النبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–وهو المبشَّر به؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}[72].

لا شكّ أنَّ مَن يفهم مقاصد هذه الآية الكريمة يفهم أنَّ لمحمَّدٍ معجزة التبشير بنبوّته قبل خلقه على قيد الحياة محمَّدًا، مع العلم أنَّ خطاب البُشرى من الله –تعالى–موجَّه إلى بني إسرائيل، والمبَشِّر به هو عيسى ابن مريم – عليه الصَّلاةُ والسَّلام–والمبشَّر به هو أحمدُ رسول الله من بعد عيسى – عليهما الصَّلاةُ والسَّلام–؛ ولذا فمِن الأولى أن يكون بنو إسرائيل هم أوَّل المؤمنين المسلِّمين والمتَّبِعين للرَّسُول الخاتم المبشَّر به في زمن عيسى (المسيح ابن مريم).

ولأنَّ البشرى دائمًا تسبق المبشَّر به، فكان عيسى –عليه الصَّلاة والسَّلام– هو أوَّل مؤمن بالنَّبي محمَّد –صلَّى الله عليه وسلَّم–، وهذه معجزة لمحمَّدٍ أنْ يؤمن به نبيٌّ سابقٌ عليه قبل أن يُخلق ويُبعث، أي: كان إيمان النبي عيسى بمحمد نبيًّا تسليمًا بعلم الغيب أنَّ محمَّدًا يقينًا سيبعث رسولًا فيبشر

[72] الصف: 6.

به عيسى طاعة لأمر الله، الذي أمره بأن يُبشِّر به قومه وَمَنْ يأتوا من بعدهم من شعوبٍ وأممٍ وأقوامٍ، وبهذا السّر بقيت البشرى سارية المفعول عبر الزَّمن حيَّة إلى أن خُلق محمَّد المبشَّر به (أحمدُ صفة لرسول الله) وبُعثَ رسولًا خاتمًا وللكافَّة[73].

ولذا فالبُشرى بمحمَّد رسولًا قبل أن يُخلق أجداده وأبواه هي مُعجزة في ذاتها، فالبشرى به لا تماثلها بشرى فيما علمنا من علم الله تعالى، فالجنّة المبشر بها المؤمنون مخلوقة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِن حَيْثُ شئتما وَلَا تَقْربّا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا ربّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنّة وَنَادَاهُمَا ربّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا ربّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنّة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا}[74]، وكذلك النَّار المبشر بها الكافرون مخلوقة؛

---

[73] ارتأينا ذكر كلمة أحمدُ مرفوعة على الحكاية كما وردت في اللفظ القرآني، في سورة الصف الآية ٦.

[74] الأعراف 19 – 27.

مصداقًا لقوله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّار الَّتِي وَقُودُهَا النَّاس وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[75]؛ ولهذا فكل المؤمنين يسعون ويعملون من أجل بلوغ الجنَّة، وفي المقابل سيكون الكافرون بها حطبَ جهنَّم.

ومن ثمّ فالاستغراب والتعجُّب هنا من متناقضات الإيمان لدى النصارى الذين بيّن لهم النبيّ عيسى –عليه السَّلام–الحقَّ من الباطلِ، وأبلغهم عن الجنَّة والنَّار والبعث فآمنوا بها؛ ولما بشَّرهم برسولٍ من بعدهِ وصفته (أحمدُ) لم يأخذوا بتبليغه؛ ولذا فمِن الاستغراب أن يؤمن قومٌ برسولٍ ولا يسلِّموا بكلِّ ما بُعث به إليهم رسولًا، مع العلم أنَّهم شهدوا بعثة الرَّسول محمَّد المبشر به من رسولهم الكريم عين يقينٍ وحقَّ يقين؛ وذلك بعد أن كان يقينًا في علم غيبه.

وعليه:

فالذين لم يؤمنوا بمحمَّدٍ نبيًّا ورسولًا خاتمًا هم الذين لم يأخذوا بما بشَّرهم به نبيّهم عيسى –عليه الصَّلاةُ والسَّلام– ومن لم يؤمن بما بشَّرهم به نبيهم المسيح عيسى ابن مريم لا يُعدّ من الآخذين بما جاء به عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ وذلك لعدم أخذهم بما بشَّرهم به من معجزة لمحمّد، ومن ثمَّ فإنْ كانوا مؤمنين حقًّا بعيسى وبما جاءهم به من رسالة من الله فعليهم بأخذ ما جاءهم به مبشِّرًا، ويصلّون عليه ويسلِّمون تسليمًا؛ ولذلك نقول: التوراة وحدة واحدة، والإنجيل وحدة واحدة، والقرآن وحدة واحدة فلا يؤخذ بجزء ويترك الجزء الآخر من أيٍّ منهما؛ فما جاء به عيسى من إنجيل لا يؤمن

[75] البقرة: 24.

به إلَّا من آمن به وحدة واحدة، ومن يؤمن به وحدة واحدة لا يترك جزءًا منه غير مؤمن به، فإن كان الإيمان بالحقّ حقًّا فلا يحقّ لأحدٍ أن يجزِّئ الحقّ كما يتراءى له حيادًا عنه.

ولأنَّ أهل الدِّيانات السَّماوية مسلمون، فلا يحقّ لهم أو لبعضهم أن يؤمنوا بالله وينكرون جزءًا من أمره تعالى، أي: إنَّ المبشِّر هو الله، والبشير هو عيسى ابن مريم، والمبشَّر به هو محمَّد رسول الله، فكيف يؤمن البعض بالمبشِّر والبشير ولا يؤمن بالمبشَّر به (أحمدُ)؟ فهل هذا شكٌّ في المبشِّر؟ أم شكٌّ في البشير؟

فإن كان شكًّا في المبشِّر (الله تعالى) فلا داعي أن يتمَّ الإيمان بالبشير (عيسى ابن مريم)، وإن كان شكًّا في البشير، فكيف يتمّ الإيمان بجزء ممّا جاء به والكفر بجزئه الآخر الذي لا يتمّ الإيمان إلَّا به؟!!

ولأنَّ البُشرى خيرٌ فكان عيسى ابن مريم بشيرَ خير، والمبشَّر به هو الخير في صفاته وأقواله وأفعاله وأعماله وسلوكيَّاته، وسُنَّته ورسالته التي اصطفاه الله لها رسولًا ينبغي الصَّلاة والسَّلام عليه والتسليم به.

وعليه فإنَّ التبشير بمحمَّدٍ -عليه الصَّلاة والسَّلام-رسولًا قبل أن يُخلق وجودًا على قيد الحياة الدُّنيا مُعجزةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّها لم تتحقّق لأحدٍ من قبله ولا لأحدٍ من بعده، ومن ثمَّ ألا يكفي معجزةٌ لمحمدٍ أنَّ الله بشّر به عباده من خلال النبي عيسى -عليه السَّلام-في الوقت الذي لم يكن فيه محمَّدٌ خَلقًا موجودًا إلَّا علم غيب لا يعلمه إلَّا الله.

وعليه: فَمِن أعظم المعجزات التي خصّ الله بها نبيّه محمّدًا أن بَشّر به نبيًّا آتيًا وهو ما زال في علم الغيب لم يُخْلَقْ بَعْدُ، أي: إنَّ الخالق الذي بيده أمر الخلق قد بلّغ رسوله عيسى –عليه السَّلام– بالنبيّ الخاتم الذي سيأتي من بعده مرسلًا من عند الله اسمه أحمدُ: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[76]، وهذهِ المعجزةُ الخاصّةُ خاصّةٌ بالنّبي عيسى الذي أبلغه الله بمعجزة محمّد، وخاصّةٌ بسيدنا محمّد الذي بُلِّغ به نبيًا مرسلًا قبل أن يُخلق على قيد الوجود حياةً.

ومع أنَّنا لم نكن بصدد استعراض معجزات النبي عيسى –عليه الصَّلاة والسَّلام–وهي كثيرة، وعلى رأسها: أنَّه بُعث رسولًا لبني إسرائيل وهو لم يكن من قومهم؛ ولهذا –وكما أُنزل في القرآن الكريم–لم يخاطبهم بكلمة (يا قومي) ولو في موضع واحد، وهذه تخالف مخاطبات الأنبياء العظماء لأقوامهم الذين سبقوه اصطفاءً، باستثناء آدم الذي كانت معجزته أنَّ الله قد خلقه من تراب وليس من نطفة؛ ولهذا فكانت المخاطبة من بعده لبنيه.

ومن هنا نكتشف علاقة عظيمة بين معجزة خلق آدم، ومعجزة خلق عيسى، ومعجزة خلق محمّد عليهم الصَّلاة والسَّلام:

. فآدم من أعظم معجزاته الخلقيَّة: أنَّ الله قد خلقه من تراب، وعلّمه ما لم يكن يعلم.

---

[76] الصّف: 6.

. وعيسى ابن مريم من أعظم معجزاته الخلقيَّة: إنَّه نبيٌّ ولا ينسب لقومٍ أبدًا؛ كما كان ينسب الأنبياء الذين سبقوه إلى أقوامهم؛ ذلك أنَّ الذين يُنسبون إلى أقوامهم يكونون أبناء رجل حتى يَؤلوا إليه ويُنسبون، ثمّ من بعده ينسبون إلى القوم الذين هو منهم، ولأنَّ عيسى ابن مريم لا أبَ له حتى يُنسب إليه؛ إذن فلا قوم له؛ ومن هنا قال الله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[77]؛ إذ لا أبوّة لآدم ولا أبوة لعيسى، ومن ثمَّ فلا نسب لآدم إلّا للتراب، ولا نسب للمسيح عيسى إلّا لأمّه مريم عليهما السَّلام، ومع أنَّ عيسى أُرسل إلى بني إسرائيل فإنَّه لم يكن من قومهم؛ ولهذا فلم يخاطبهم إلَّا بقوله: (يا بني إسرائيل)، أي: ولم يخاطبهم –ولو مرة واحدة– بقوله: (يا قومي).

. ومن أعظم معجزات النبي محمّد التي خصّه الله بها: أنَّ ولادته جاءت في علم الغيب نبيًّا ورسولًا قبل أن يولد على قيد الحياة وجودًا؛ وذلك كما بَشّر به المسيح عيسى في قوله تعالى: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}.

ومن هنا تتضح العلاقة بين ولادات ثلاث: ولادة من تراب وهي أمر عظيم ومعجز، وولادة بلا أب، وهي أمر عظيم ومعجز، وولادة في علم الغيب وهي أمر عظيم ومعجز.

[77] آل عمران: 59.

معجزةُ

الاسم (مُحَمَّدٌ)

محمَّدٌ اسمًا وصفةً متطابقان؛ من حيث إنَّ اسم النَّبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–اسمٌ موصوف بما حُمِّد عليه خَلقًا من الله تعالى؛ ممّا جعل الاسم محمَّدًا في حالة تطابق تام صفةً وموصوفًا، وهذه من خصوصيَّات اسم النَّبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فصار الاسم هو عين الصِّفة، والصِّفة هي عين الموصوف.

ومحمَّد تدلُّ على أنَّه المحمَّد في خَلقِه، وخُلقه، وذاته، فهو على ما هو عليه موصوف به تحمُّدًا يُمجَّد، ويُخلَّد، ويُعظَّم.

وجاءت صفة التحميد والتمجيد لسيِّدنا محمَّد معظِّمة للموصوف بما يُحمد به ويُحمد عليه؛ فكان التطابق بين الصِّفة والموصوف في اسمه محمَّد، الذي يدلُّ على أنَّه المحمَّد من الله –تعالى–تحميدًا، أي: إنَّه قد خُلق على الحمد خلقًا؛ ولذلك كان لاسم محمَّد مفهومٌ ومرتكزه (الحمد)، الذي خُلق عليه محمَّدٌ خلقًا.

وعليه:

لقد كان النَّبي الكريم –عليه الصَّلاة والسَّلام–محمَّدًا بتسمية الله له، أي: إنَّ الله قد أظهر الصّفة الاسميَّة للنَّبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام، وهي: (أحمدُ)، أي: إنَّ صفة الرَّسُول محمّد (أحمدُ)[78]، والصّفة التي عليها (أحمدُ) لا تستمد إلَّا من الحمد الذي خُلق عليه محمَّد في علم غيبه، والذي سيكون عليه محمَّدٌ من بعد بعثه كما هو محمَّد في كينونة خلقه غيبًا، وهذه لا يعلمها إلَّا الله الذي بشَّر بهذه الصّفة (الحمد) التي جعلت صفة (أحمدُ) صفة للرّسُول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وهنا وجب التمييز بين الاسم والصِّفة حتّى نتبيَّن، وفي المقابل لا نفرِّق بين مفهومي الاسم والصّفة المفضلتين من الله تفضيلًا وتعظيمًا:

[78] ارتأينا ذكر كلمة (أحمدُ) مرفوعة على الحكاية كما وردت في اللفظ القرآني في سورة الصف الآية: ٦.

فاسم (أحمدُ): يتعلّق بمن حمدَ الله، وحمده لله لا ينقطع أبدًا، فـ(أحمدُ) صفة تعظيم لحامدٍ، ويعكس صفة الحمدِ على قائلها كما في كلمة (محمَّد)؛ مع العلم أنَّ هذا الأمر المنزَّل هو في علم السَّماء الذي بُلِّغ به عيسى، ولا علاقة له بعلوم الأرض، أي: لو لم يظهره الله لنبيّهِ عيسى –عليه السَّلام– ما عَلِمنا بكينونته في علم غيبه: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[79].

ومن ثمَّ فعندما نأخذ باسم (أحمدُ) كما جاء منزّلًا في سورة الصّف (الآية: 6) فإنَّنا نأخذ بلسان حال القائل: (أحمدُ)، فهذا القول وكأنَّه على لسان (أحمدُ) مع أنَّه أُنزل قولًا من الله تعالى، ولم يُنزَّل على لسان من اتصف بالصفة (أحمدُ)؛ ذلك لأنَّ محمَّدٌ في زمن عيسى لم يُخلق بعد (زمن التبليغ به رسولًا) مع أنَّه في علم الغيب (علم اليقين) لا فرق بين من يُسمى في علم الغيب ولم يُخلق بعد، ومن خُلق على قيد الحياة وسُمّي بما بشّر به علم غيبٍ.

ولأنَّ الله شاء أن يُظهر لعيسى من علمِ غيبه ما فيه مما فيه من معجزات؛ فأظهره على شيء منها، ومنها: معجزة خَلقهِ لمحمَّدٍ على صفتهِ (الحميد) قبل أن يَخلقه ويُسمّى في الحياة الدُّنيا: محمَّدًا؛ ولذا فإنَّ اسم (أحمدُ) هو اسم صفة الإعجاز السَّابقة على المبلَّغ به قبل أن يخلق ويبعث رسولًا لله وخاتمًا للأنبياء والمرسلين.

---

[79] الصف 6.

ولأنَّ زمن التبشير بمحمَّد كان فيه محمَّدٌ في علم الغيب ولم يكن على قيد الحياة مخلوقًا بعد؛ فإنَّ العقول التي لم يدخل الإيمان قلوبها يقينًا قَصُرت عن معرفة الحقِّ في زمن عيسى وما زالت من بعده عن معرفته قاصرة، أي: إنَّ محمَّدًا لما بُلِّغَ به وبُشِّر كان صفةً ولم يكن مسمى؛ كونه المخلوق في علمه على صفة الحمد خلقًا.

ولأنَّ محمَّدًا في علم الله –تعالى–هو المخلوق على صفة الحمد خلقًا فإنَّ الله يعلم في غيبه أنَّ من يُخلق على صفة الحمد لن يكون إلَّا (أحمدُ)، أي: إنَّ محمَّدًا في علم غيبه خُلِقَ مسبِّحًا بحمد الله الذي خَلقهُ على صفةٍ من صفاتهِ وهي: (الحميد) بمعنى أنَّ: (محمَّدًا حَمِدَ الله في علم غيبه)؛ ولذا فمن معجزات محمَّد أنَّ الله قد أبلغ عن الصفة التي سيخلق عليها في علم غيبه قبل أن يُخلق وجودًا في بطن أمّه.

إذن: أحمدُ صفة حمدٍ مستمدّة من الحميد جلّ جلاله، ومن يستمدّ صفته من الحميد بطبيعة الحال سيكون متّصفًا بها؛ كونه الدَّائم على تسبيح حمده لله –تعالى–والذّاكر له، ومن ثمَّ سيكون على صِّفة الحميد التي خُلق عليها محمَّد؛ ومن هنا فقواعد المنطق تقول: إنَّ الذي يُخلق من صفة لا يكون إلَّا عليها.

إذن: لا يُمكن أن يُستمد الحمدُ إلَّا من الحميد، ومن يستمدّ صفته من الحميد فليس له إلَّا أن يكون حامدًا، أمَّا الذي خُلق على الحمد خلقًا (محمَّد) فليس له إلَّا أنْ يكون (أحمدُ)، أي: كثير الحمد.

ولذا فَصِفة الحمد التي خُلق محمَّدٌ عليها، هي التي جعلت من اسم (أحمدُ) صفة له؛ فأحمدُ (مكثر الحمد وحمده لله لا ينقطع)؛ ومن ثمَّ فمحمّد لم يستمد صفته من الحمد، بل محمَّد خُلق على الحمد خلقًا، أي: لو قُلنا إنَّ محمَّدًا استمدَّ صِفته من الحمد؛ نجد أنَّ عقولنا قد خالفت القاعدة المنطقيَّة، التي تقول: لولا الحميد ما كان للحمد وجود، أي: لا يمكن أن يستمدّ الحميد صفته من الحمد، بل الحمد هو الذي يستمد صفته من الحميد، ومن ثمَّ فلو لم يكن الحميد ما كان للحمد وجودٌ، وهذا الأمر ينطبق بالتمام على استمداد الرَّسُول محمَّد صفته من الحميد الذي خلقه على الحمد خلقًا؛ ولأنَّه خُلق على الحمد فلا بدّ وأن يكون أحمدُ (كثير الحمد لخالقه على الحمد)، وقد أبلغ الله عباده عن طريق نبيّهِ عيسى –عليه السَّلام– على أمرين اثنين:

الأمر الأوَّل: أنَّ الله قد أبلغ عيسى من علم غيبه عن الكينونة التي سيكون عليها اسم من يُخلق على الحمد وهي: (أحمدُ).

الأمر الثَّاني: أنَّ الله قد أبلغ عيسى من علم غيبه الكينونة التي سيكون عليها خَلقُ محمَّدٍ، وهي خلقه على صفة من صفاته:(صفة الحميد جلَّ جلاله).

وعليه: فاسم (أحمدُ) لا يكون اسم صِفة إلَّا للمسمّى مُحمَّد؛ ذلك لأنَّ صفة أحمد لا تكون لمحمودٍ، لأنَّ المحمودَ لا يكون محمودًا إلَّا من غيره من النَّاس وفقًا لمرجعياتهم الأخلاقيَّة التي بها يُحمد من يُحمد وبها يُذم من يُذم، فـ(أحمدُ) لا تكون صفة إلَّا لمن خُلق على صفة الحميد عزَّ وجلَّ،

وهذه الخاصيَّة لم يُخلق عليها إلَّا الرَّسول محمَّدٍ –صلى الله عليه وسلَّم– الذي بَشَّر به الرَّسول عيسى –صلى الله عليه وسلَّم– علم يقين، وبهذه الخاصيَّة تطابق اسم محمَّد صفة وموصوفًا، فهو مُحمَّد المخلوق على صفة الحميد، وهو محمَّد بالرِّسالة التي اصطفاه الله لها رسولًا خاتمًا وللنَّاس كافَّة، قال تعالى: {وَمَا محمَّد إِلَّا رَسُولٌ}[80].

ومن هنا أقول:

. إنَّ محمودًا اسم مفعول موصوف.

. وحامد اسم فاعل موصوف.

. أمَّا (أحمدُ) فهو مبالغة التعظيم لحامد (اسمٌ ممنوع من الصّرف)، وهو صفة مقتصرة على من خُلق على صفة الحميد، وهو: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؛ ولهذا فصفة أحمدُ هي الصِّفة التي بها محمَّد يحمد ربَّه، وهي الصّفة التي بلَّغ الله عنها نبيّه عيسى عليه السَّلام، أي: إنَّ التبليغ جاء بالصّفة المعظَّمة من العظيم الأعظم جلَّ جلاله، أمَّا مُسمَّى محمَّد فكان في علم غيبه –تعالى– محمَّدًا؛ وأصبح بالتمام في علم وجوده على قيد الحياة محمَّدًا، أي: إنَّ الذي بُشّر بخلقه على الحمد في علم الغيب؛ هو الذي كان على الحمد رسولًا في وجوده: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}[81].

---

[80] آل عمران: 144.

[81] آل عمران: 144.

وعليه: فاسم محمَّد اسم تعظيم صفة تطابقت مع الموصوف (محمَّد في خَلقه ومحمَّد في اسم صفته)، وهذه معجزة خصَّ الله بها محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّهُ محمَّد من الله –تعالى–فقد أُنزل عليه الحقّ الذي به كفَّر سيئات المؤمنين، وأصلح بالهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى محمَّد وَهُوَ الحقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[82].

ولأنَّ النَّبي محمَّدًا مسمّى من عند الله محمَّدًا (تطابق الاسم والصِّفة)، وهذا المسمَّى الكريم يختلف عمَّن سمي محمودًا؛ لأنَّ المحمود كما سبق تبانه لا يكون محمودًا إلَّا من قِبل النَّاس الذين ارتأوه على خُلقٍ حميد فوصفوه بها محمودًا، أمَّا محمَّد في مفهومه فهو اسم وصفة؛ لأنَّهُ خُلق على الحمد الذي لا يستمدّ إلَّا من صفة الحميد تعالى، وهذه لا تكون إلّا مباركة لمحمّد ورضًا من الله الحميد جلَّ جلاله؛ ولذا فهي معجزة عظيمة من المعجزات التي خصَّ الله بها محمَّد وجعله رسولًا للكافَّة وجعل رسالته الخاتمة، رسالة الحلّ.

[82] محمَّد: 2.

معجزة الإسراء

الإسراء جزءٌ من الليل ولا يخرج عن الوقت، ولكنَّه أيُّ إسراءٍ؟

نقول: إنَّ الإسراء بمحمَّد حدث بالمشيئة المأمورة والمفعولة، ولم يحدث بإعداد العدّة والتخطيط المسبق (وفقًا للاختيار والرّغبة البشريَّة)؛ أي: إنَّه الإسراء وفقًا للقرار الساري به في مشيئته تعالى، وليس بقرارٍ من محمَّد (المسرى به)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[83]، فمع أنَّ مفهوم (سُبْحَانَ) تعظيم شأن، وفيه من الاستغراب ما فيه، فإنّه لم يكن استغرابًا من القائل، بل الاستغراب من المقال له، أي: لم يكن استغراب من الخالق، بل هو إشارة إلى استغراب المخلوق الذي كانت المفاجأة له بما سمع من قولٍ عظيم، فمع أنَّه حقّ اليقين فإنَّ

[83] الإسراء: 1.

الاستغراب والاندهاش لم يفارق العقول التي انقسمت بين مصدّقٍ ومكذبٍ: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}، وما يميّز هذا التعظيم إنَّه لم يكن ثناءً وتعظيمًا من بشر، بل من الله تعالى؛ وذلك لإظهار عظمة المعجزة التي لا تكون إلَّا من مُعجزٍ (الله) ولا تكون إلَّا لعزيزٍ (لمحمَّدٍ) فكانت إسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

ولأنَّ لكلِ مُرادٍ غاية؛ فأخبر الله –تعالى–عن الغاية من الإسراء بمحمَّد؛ ليريه ما لم يسبق له رؤيته: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، أي: لنريه معجزة الإسراء، ثمَّ معجزات أخرى مترتّبة على الإسراء وهي عظيمة.

ولأنَّ خالق الآيات (المعجزات) أظهر مُحمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام–على بعضٍ منها، ولم يظهر غيره عليها؛ ألم تكن هذه معجزة بذاتها؟ أي: إنَّ الآيات التي جاءت مُنكّرة عن الغير {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، لم تكن منكّرة على محمَّد؛ ولذا فنبيٌّ يُريه الله ما لم يُره لبقيّة خلقه ألا تكون هذه معجزة من أعظم معجزاته لمحمَّد الذي أراه من آياته ما أراه؟!!

ولهذا قلنا:

إنَّ حدوث الإسراء في جزء من الليل بخرق مسافة لا تُقطع إلَّا بقوَّة الطيران وفعله، والبشر لم يكونوا على هذا الفعل، ومع ذلك فقد أسرى الله بمحمَّد ليلًا في وقتٍ كان خارقًا للمتعارف عليه ومعجزٍ للقياس زمنًا؛ أفليست هذه معجزة وقد مُنحت لمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام؟ ثمَّ ألا يكون

إظهار محمَّد على معجزات عظام وهو في آفاق السّماء مُسرى به بمعجزة وقد خصَّه الله بها؟

ومن ألطف معجزات الإسراء وأعظمها إنَّه قد أُسري بمحمَّد بصفة العبوديَّة (عبدًا) إنسانًا عابدًا، وليس بصفة الرِّسالة (ساعة من ساعات التبليغ) ولا بصفة النبوَّة (ساعة من ساعات نزول الوحي)، وهذا يدلُّ على أنَّ ساعة نزول جبريل إليه بغاية الإسراء كان محمَّدٌ في ساعة من ساعات التعبُّد ليلًا (لحظة تعبُّده ربَّه)؛ ولأنَّ جبريل –عليه السَّلام– وجد محمَّدًا يتعبَّد في ساعة من ساعات تعبُّده ليلًا، أي: كان الإسراء به على صفة العبوديَّة، وهي الصّفة التي تخصّ علاقة العابد بالمعبود ربَّا؛ فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً}[84]، ومن هنا جاء تعظيم الله لذاته العليَّا بقوله تعالى: {سُبْحَانَ} وهذا التعظيم بذاته يُعظِّم ذات محمَّد الذي قدَّر الله أن يسري به؛ تعظيمًا لعبوديَّته ربَّه، وبذلك فقد أراه ربَّه من معجزاته معجزات.

ولأنَّ صفة العبوديَّة ترتبط بأداء العبادة على وجهها إخلاصًا؛ حتى يوصف بها العابد عبدًا؛ قال تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[85]، وقال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[86]؛ وقال: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}[87]؛ وقال:

---

[84] الإسراء: 1.

[85] الإسراء: 3.

[86] ص: 44.

[87] ص: 45.

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[88]، وقال: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}[89].

من خلال قراءة الآيات السَّابقة وتدبُّرها يلاحظ أنَّ العلاقة بين صفة العبد وأداء العبادات تميَّز العابد رفعةً عند المعبود حتى يذكره المعبود عبدًا مقرَّبًا إليه، أي: حتى يخصَّه المعبود (الله) بما يخصّه به من تمكين ورفعة مكانة كما خصّ به في الآيات السَّابقة عبيده: (نوح، وأيوب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وداود، ومحمَّد).

[88] ص: 17.

[89] ص: 41.

النَّبيُّ الأميُّ

معجزة

الأميّ هو الذي لا يدري ولا يعلم بما لم يُعْلِم به، والنّبي الأميّ هو محمَّد الذي لم يدرِ ولا يعلم بأمر الرِّسالة التي كُلِّفَ بها قبل تنزيلها عليه تنزيلًا؛ ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشيء لن يكون له من الشيء شيئًا به يدري، أمَّا الذي يَعلَم فإنَّه يُعلِم بما أُعلِم به ويُعلِّمَه لمن هم لا يعرفونه ولا يدرون.

ومع أنَّ اللُّغويين كما جاء في: (لسان العرب) قد عرَّفوا الأميّ بأنَّه: "المنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه، أي: لا يَكتُبُ، فهو لأَنَّه لا يَكتُب أميّ؛ لأن الكِتابة مُكْتسَبَةٌ؛ فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أي: على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه"[90]، فإنَّنا نرى في المقابل أنَّ الأميٌ ليس كذلك، بل هو من لا

90 لسان العرب، ج 12، ص 22.

دراية له بما لا يُعلم به، ومن هنا فلا علاقة بين الأمّيِّ وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلُّم، أو بين التيه والمعرفة، أمَّا الأميّة فليس لها علاقة إلّا بعدم الدِّراية؛ ولذلك فالنَّبيُّ الأميّ هو الذي أُنبِئَ بما لا يدري حتى أصبح نبيًّا يدري، وهذه معجزة وقد وُهبت لمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

إنَّ صّفة (النبي الأمي) هي الصّفة التي جمعت صفتين لمسمى واحدٍ (النبي، والأمي) أي: إنَّ النبي هو محمَّد، والأمي أيضًا هو محمَّد، فمحمَّد الذي كان أميًّا أصبح نبيًّا.

ولأنَّ النبي لا يمكن أن يكون أميًّا فإنَّ إنباءَ الأمي جعل من الأمي نبيًّا؛ ولهذا فبعد الرِّسالة أصبح وصفُ محمَّدٍ (النبيَّ الأميَّ)؛ وذلك بعد أنَّ كان وصفه في علم الغيب (أحمدُ).

ومن هنا علينا أن نميّز بين صفات ثلاث، ولكلّ منها مفهوم ودلالة:

1 . صفة محمَّد، التي خُلِقَ عليها خلقًا (على صفة الحميد جلَّ جلاله).

2 . صفة (أحمدُ)، التي بُلِّغَ بها تبليغًا؛ وهي المستمدّة من حَمد مُحمَّد لله –تعالى–الذي خلقه على صفة من صفاته، وهي: (صفة الحميد).

3 . صفة النّبي الأميُّ، التي تُشير الى صّفة الأميَّة التي كان عليها محمَّد قبل الرِّسالة، وتشير أيضًا إلى الصفة التي أصبح عليها نبيًّا من بعد الرِّسالة.

وإذا رأى البعض أنَّه لا يليق أن نصف النبي بالأميِّ (عدم الدّراية) فنقول: إنَّ النبيَّ الأمي تعني: (أنَّ الذي كان لم يدرِ أصبح يدري) أي: (محمَّد الذي كان أميًّا أصبح نبيًّا) فمحمَّدٌ كان أميًّا أربعين سنة تقريبًا قبل الرِّسالة، وأصبح من بعدها نبيًّا ثلاثة وعشرين سنة تقريبًا؛ ولهذا فثلثي عمر محمَّد كان أميًّا والثلث من بعدها أصبح فيه نبيًّا؛ ومن هنا فلا صفة تجمع صفتي حياة محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–إلَّا صفة (النبيِّ الأميِّ) وهنا تكمن معطيات المعجزة، كيف يكون الأميُّ نبيًّا؟!!

ومن ثمَّ فالأميّ هو الصّافي الذي لا تشوبه شائبة من أيّ دراية مُسوَّقة لخدمة غرض من الأغراض الدينيّة أو الدنيويّة، وهو من لا تلتصق به التهم فيما لا يعلم ويدري وإن نُعت بها.

والأميّة حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النسبيَّة ودائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن يكن أميًّا يصبح في دائرة الممكنِ عالما فلا استغراب في هذا الأمر؛ وإن كان بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب، فما بالك باستنارة النبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بقوله: {اقْرَأْ} فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

وحتى لا تلتبس المفاهيم بعقولنا وتحيد بها عن صوائبها أُوضحُ المفاهيم الآتية من خلال تضاد مفاهيمها:

. العلم في مواجهة الجهل (عَلمَ جهلَ).

. المعرفة في مواجهة التّيه (عَرَفَ تَاهَ)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدليل شيءٌ؛ ليستدل به على الشيءِ معرفة.

. الشَّك في مواجهة اليقين (شكَّ تيقَّنَ).

. الغفلة في مواجهة الفطنة (غَفلَ فطنَ).

. الهداية في مواجهة الضلال (هَدى ضَلَّ).

. الأميّة في مواجهة الدراية، ولا اشتقاق من الأميّة إلّا مفهوم عدم الدّراية مما يجعل التضاد بين: (أمّيّ داري)، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[91]، وقال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[92].

جاءت هاتان الآيتان مبيّنتان لمفهوم الأميّة بأنَّها عدم الدراية بالمطلق، وهذا يخالف الجهل؛ إذ لا جهل بالمطلق، ولا علم بالمطلق؛ ومن هنا فالجاهل وإن لم يتعلّم فإنَّه يعرف تمييزًا وتفكيرًا وتدبُّرًا.

وهذا يدلُّ على أنَّ مفهوم الأميّة أكثر بعدًا من مفهوم عدم المعرفة، فالإنسان الذي يعرف ليس بالضرورة أنَّه يدري، ومن هنا فمع أنَّ الأميين يعرفون ما يعرفونه من شئونٍ وأمور فإنَّهم لا يدرون بقوانينها ولا يدرون بالأسرار التي تختفي من ورائها، ولا علاقة لهم بالمعجز الذي به تستنير العقول وتطمئن القلوب.

ولذا فالنّبي محمَّد قبل الرِّسالة لا دراية له بها (أمي)، ومن بعدها أصبح يدري (نبي)، ومن ثمَّ فمفهوم الدّراية هنا يدلُّ على: (الإلمام بعلم اليقين، الذي يجعل من المعرفة عينَ يقين، ومن الخبرة حقَّ يقين)، وفي المقابل، الأميّة لا تكون إلَّا في دائرة ما يخالف هذا، فالذي لا يتكلم اللغة الفرنسيّة

---

91 الأحزاب: 63.

92 عبس: 3.

بالنسبة إلى المتحدثين بها جاهل، والذي لا يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنسبّة إلى هذا الأمر جاهل، حتى وإن كان من المتحصّلين على الشهادات العالية والدّقيقة، أو كان عالما في علوم الفقه والدّين، وهكذا في المقابل بالنّسبة إلى من يجيد اللغة الفرنسيّة، أو أي لغة وهو لا يعلم أو لا يعرف شيئًا عن علوم الفقه والدّين، فهو لا يخرج عن دائرة الجهل النسبيّ؛ ولذلك كل العلماء والمتعلّمين في دائرة عدم المعرفة النسبيَّة، ومع ذلك فالجهل لم يكن أعظم حالًا من الأميّة، بل الأميّة أعظم أثرًا؛ كونها تدلّ على عدم الدّراية بالمطلق، وليس على عدم المعرفة؛ ذلك لأنَّ المعرفة عقليّة؛ ولذا فالكل في دائرة النسبيَّة يعرف ما يعرفه، أمَّا الأميّة بالشيء فلا معرفة ولا علم ولا دراية به، وبخاصّة عندما يكون أمر الشيء أمرًا يتعلَّق بالسَّماء، ومن هنا فأمر الدين (الوحي الموحى) لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّد إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر (كن)، فكان محمَّدٌ قارئًا بالأمر (اقرأ) فقرأ، وهذه من عظيم معجزات محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

والرَّسول الكريم بالنّسبة إلى علم القرآن قبل نزوله كان أميًّا قراءة وكتابة ومعرفة ودراية؛ مصداقًا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[93].

93 العلق: 1 . 5.

إنَّه الأمر الأوَّل الصَّادر للنبي الأميّ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}؛ ولأنَّ محمَّدًا -عليه الصَّلاة والسَّلام-أميٌّ، أي: لا دراية له بأمر القراءة فقال: ما أنا بقارئ، فقال له: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} فقرأ ما قيل له (باسم الله) فأصبح بما قرأ يدري، أي: غير أميّ.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[94] ف(منهم أميّون) للتبعيض، وهي عائدة على بعض ممن لا يدرون بما جاء في الكتاب المبين، ويقصد اليهود الذين هم أميّون بالنسبة إلى من أنبأ أو عُلِّمَ أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أنَّ الأميّين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة، وهناك من يقول: "{ومنهم أميّون}، أناس من يهود"[95].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[96] العرب الأميّون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ}؛ ولأنّه الرَّسول فهو صاحب الرِّسالة الخاتمة، ولأنّه النبي فهو الذي أنبأه الله: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ

94 البقرة: 78.

95 تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

96 الأعراف: 157.

مُخْتَلِفُونَ}[97]، ولأنّه الأميّ فهو الذي لم يكن له سابق علم ولا دراية بما أُعلم به وأنبأ وكُلِّف.

أمَّا قوله: {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ} فهم أصحاب التَّوراة والإنجيل الذين يعلمون أنَّ رسولًا خاتمًا ودينًا للكافَّة سيكون على لسان الأميّ (أحمدُ) صلوات الله وسلامه عليه.

ولأن الرَّسول –صلوات الله عليه وسلامه–لم يعد أميًّا بعد الرِّسالة الخاتمة، فأمره حقّ يستوجب الاتباع؛ ولهذا قال تعالى: {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ}، ولأنَّ هذا الأمر من الله أعطاه لمحمَّد حقًّا في سبيل إحقاق الحقّ، فاتِّباعه واجبٌ، ومن يعصي أمر محمَّد –صلوات الله وسلامه عليه– بالمعروف يعصي أمر الذي أصدر له الأمر وهو الله جلَّ جلاله؛ ولذا لا يعتقد في أنَّ الله –تعالى–يعطي أمره لمن يجهل أمره (أميّ)؛ ولهذا لا يعد محمَّد أميًّا وبين يديه نور الله أمرًا مكلّفًا به.

ولأنَّ محمَّدًا لم يعد أميًّا بأسباب امتلاكه الدراية الكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حق النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}؛ ولذا عندما كان محمَّدٌ أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ، أو هذا التفويض، أو هذه الصلاحيَّات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرّف بأمر الطاعة بيد من لا

97 النبأ:2-3.

يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يقبل التحليل والتحريم والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلِّل أو يُحرِّمُ؟

هنا أقول: بالطّبع، لا.

ولهذا فمحمَّد –صلّى الله عليه وسلّم– بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأميّ؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرّسالة، وعليه: الكلام أو الحديث عن محمَّد قبل الرّسالة كلام أو حديث عن أميّ، والكلام أو الحديث عن محمَّد بعد الرّسالة –صلى الله عليه وسلم– حديث أو كلام عن رسول يعلم؛ ولذلك على المسلمين أن يفرّقوا بين الحديثين والشخصيّتين (شخصيّة محمَّد الأميّ، وشخصيّة محمَّد الرَّسول النبي الذي أصبح يعلم) وإلّا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّدٌ هو صاحب الرّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة ويقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلموا مما علّمهم به حتى أصبحوا علماء وحكماء.

وعليه: هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعيّة ورسولها أميّ؟

ولأنَّ محمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام– رسول للنّاس كافَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[98] أي: إنَّ محمَّدًا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يكن رسولًا خاصًّا بالعرب، بل هو الرَّسُول الخاتم وللكافَّة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[99].

إذن: كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أميًّا والنَّاس على يديه علماء وحكماء ويعلمون؟!

أقول: رسول الكافَّة ليس بأميّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرّم وأمر ونهى، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه: فالقول بـ(الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّدٍ) هو إقرار بأنَّه لم يعد ذلك الأميّ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[100] قال: {يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} ولم

98 الأعراف: 158.

99 سبأ: 28.

100 الأحزاب: 56.

يقل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ) أي: إنَّ الله وملائكته صلاتهم على النبي لا تنقطع أبدًا، ومن ثمَّ فالأمر هنا إذا أردنا المقارنة بقصد التبيان يختلف عن أمر سجود الملائكة لآدم الذي حدث أمرًا وتسليمًا بما ميّزه الله به من نبأ لا يعلمه الملائكة، فكان السجود طاعة لأمر الله ساعة الخطاب والإنباء، وهكذا سيكون هو الأمر لو جاء قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ)، أي: لكانت صلاةُ ماضٍ (صلاة وقد انتهت)، ولكنَّها جاءت بلفظ {يُصَلُّونَ} بصيغة المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث والاستمرار؛ فهي صلاة دائمة باقية، وهذه من أعظم معجزات النبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّنا من الذين أسلموا وجههم لله ربّ العالمين وآمنوا به واحدًا أحدًا لا شريك له، وبمحمَّد رسولًا خاتمًا فإنّنا نصلّي ونسلّم عليه مباركة وإقرارًا بأنَّ ما جاء به هو الحقّ من الحقّ المطلق جلّ جلاله؛ ولذا فالصَّلاة والسَّلام على محمَّد هي اعتراف واعٍ وعن دراية بأنّه الرَّسول الذي اصطفاه الله للنّاس كافَّة بالرِّسالة الخاتمة؛ ولأنَّه يعلم بأمر الرِّسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه، أو آمنوا بها من بعده؛ لذا فالصَّلاة والسَّلام إعلان تسليم بالحقِّ والرَّسول الحقّ المصطفى من الحقّ المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[101]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون، بل تدلُّ على أنَّ الأميّة هي: (في دائرة النسبيَّة)، وإلَّا هل هناك

101 الجمعة: 2.

من يصدّق أنَّ العرب جميعهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ ولذا فهم بالنسبة إلى الدين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ دراية هو رسولهم النبي محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل.

وعليه: فالرَّسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– كما جاء في الآيات السَّابقة يتلو القرآن، ولأنَّه كذلك، فكيف يحقّ لنا أن نصفه أميًّا؟ أي: هل يحقّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنَّه أميّ؟ وأيضًا كيف نصف من يزكّي ويُعلِّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنَّه أميّ؟ أي: كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأميّ، ويوصف المتعلّم على يديه بالعالم؟

وفي هذه الآية الكريمة تتضح بعض المهام الرَّئيسة للرَّسُول الكريم وهي:

1 ـ أن يتلو القرآن على الأميّين؛ ليعلموا بالحقِّ ويتبعوه، والقرآن الذي يتلوه عليهم لم يَتعلَّمه بالقراءة والكتابة كحالنا نحن، بل تعلَّمه وحيًا موحى، وبهذا فقد عَلِمَه، أي: أُعْلِمَ به إعلامًا، والإعلام بالشيء كالخبر به، والفرق بين هذا وذاك هو أن الإعلام بالشيء يكون أمره (هو كما هو عليه)، والإخبار به للعلم بالشيء أو ما يتعلق به دون إلزام الأخذ به، والعلم

بالشيء الإلمام به دون غفلة عن شيء منه؛ ولهذا قد علَّمه شديد القوى ما لم يكن يعلم.

وعليه: فالإعلام بالقرآن لا يتمّ إلَّا مع من يجهله، ومن يجهله (أميّ) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أميّ؛ ولهذا كان محمَّدٌ قبل نزول القرآن أميًّا به، أي: لا يعلمه، ولا يعلم عنه شيئًا ولا يدري بخلاف سيدنا عيسى والذين آمنوا برسالته؛ فهم يعلمون أنَّ رسولًا سيصطفيه الله برسالته اسم صفته (أحمدُ)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[102].

ولأنَّ محمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام– كان أميًّا بالرسالات السّابقة للرّسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرِّسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[103]. إنّه القول الحقّ فلو كان يعلم بالأمر مسبقًا ما كان أميًّا بأمر الرِّسالة، وهو أيضًا لم يكن يعرف الكتابة التي تُخَطُّ بأيدي الكتّاب؛ ولذا فلو كان قارئًا لكان كاتبًا لما يقرأ ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلّم بدلًا من دائرة الموصوفين بالأميّة.

2 ـ أنْ يُزكّيهم؛ وتزكيتهم باتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر باتباعه والأخذ به، وبتحليل ما أحله الله لهم، وقول الحقّ وفعل الحقّ والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها أو

---

102 الصف: 6.

103 العنكبوت: 48.

سفك الدّماء بغير حقٍّ، فمن يتبع ذلك يعد مزكّيًا؛ حيث لا ذنب عليه في شيء؛ ولذا فالمزكّون هم المطهّرون.

3 ـ أنْ يُعلِّمهم الكتاب والحكمة، وهذه خطوة مترتّبة على الخطوة الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني: عدم الجهل به؛ ذلك أنَّ العالم به هو مَنْ لا يجهله.

فكلمة: (يُعلِّمهم) تدلُّ على أنَّه متعلّم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي: إنَّه بالعلم كان سابقًا على الأميّين في تعلّمه، وإلَّا ماذا سيعلّمهم لو لم يكن عالما متعلّمًا؟! وبما أنَّه المتعلّم بما علّمه الله به؛ إذن لا يحق أن يوصف بالأميّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[104]. (ومنهم) جاءت للتبعيض؛ وذلك لإظهار الجزء من الكل، وهذا يدلُّ على أنَّ البعض الآخر غير أميّ، فالذين يعلمون بالكتب والرُّسُل ورسالاتهم غير أميّين، والذين لا يعلمون شيئًا من هذا فهم الأميّون؛ ولذلك فبعض من اليهود، وبعض من النصارى، وبعض من العرب أميّون لا يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ إلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنْ الْحِسَابِ مَا فِيهَا، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

104 البقرة: 98.

وَسَلَّمَ–أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنُ اللتبية حَاسَبَهُ. وَكَانَ لَهُ كُتَّابٌ عِدَّةٌ –كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَزَيْدٍ وَمُعَاوِيَةَ–يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ، وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ، وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إلَى النَّاس إلَى مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"[105].

وعليه كان الرَّسول محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– أميًّا قبل نزول الرِّسالة عليه، أي: إنَّه أميّ قبل الرِّسالة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[106] أمَّا بعد نزول الرِّسالة عليه فليس بأميّ؛ وذلك لأنَّه أوَّل من قرأ القرآن، وأوَّل من أعلم به النَّاس، وأوَّل من علَّمه لهم، وأوّل من صلى بهم قارئًا، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[107].

ولأنَّ البعض أميّ قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[108]، ولأنَّه قرآن كريم نزل لِيُحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويدمغه حتى يزهق، قال: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} أي: بعض من أهل الكتاب وليس كلهم، فلا تعميم؛ حيث البعض يؤتمن جانبه والبعض لا يؤتمن جانبه، ومن لا يؤتمن جانبه إذا داينته بدين لا يرده إليك؛ فهؤلاء هم مثل الذين

105 مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

106 العنكبوت: 48.

107 البقرة: 151.

108 آل عمران: 75.

يأكلون الرّبا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}[109]، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[110].

وعليه فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميّة (اقرأ) لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا.

ومن ثَّم وجب علينا أنْ نميّز بين مفهومي: علم التوحيد، وعلم المعارف المتنوّعة؛ فعلم التوحيد علم يقين، وتقابله الأميّة فيكسر وهمها: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[111]، أمَّا علم المعارف المتنوّعة في دائرة النسبيَّة، فيقابله الجهل فيكسر وهمه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[112].

ولتوضيح الفارق في المفاهيم أقول:

الجهل لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أن جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعد جاهلًا، وليس بأميٍّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها.

---

109 البقرة: 275.

110 النساء: 10.

111 النمل: 75.

112 الاسراء: 85.

أمَّا الأميَّة فإنَّها لا وجود لشيءٍ يحوطنا ونحن لم ننتبه له، أو نتعرَّف عليه، أو ننهل منه ونتعلَّم، أي: ما نحن منه على أميَّة لم يولد بعد، ولم يكن في دوائر تفكيرنا وتوقّعاتنا، وبالتَّالي فنحن أميّون بكل ما لم يُخلق، ونحن نجهل أمر ما خُلق ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

ولأنَّ الأميَّة تعني: لا دراية بالأمر، فإنَّها تعني غيابًا كاملًا بالموضوع الذي نحن من دونه أميّون، أي: لا وجود لجزء ولا متجزئ لمعلومة وإنْ عظمت في صغرها.

ومن ثمَّ فالجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا.

ولذا نجد من بين الذين آمنوا من لا زال في دائرة الجاهليَّة؛ ذلك كونهم لم يتعلّموا القرآن ويتدبَّرونه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[113] جاء في هذا الآية الكريمة استغراب بقوله: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) أي: لو تدبروه لعلموا بالحقِّ دراية، أي: فهم بالنسبة إلى الذين يتدبّرونه غير متدبّرين (لا دراية)؛ وقوله: (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) القلوب التي عليها أقفالها هي القلوب التي لم تتدبَّر القرآن؛ ولأنَّها كذلك فهي لم تُفتح بما يجب أن تتعلّمه وتتدبرّه، فبالتدبّر تدخل الحكمة إليها؛ ولهذا القرآن الكريم لا يقتصر

113 محمَّد: 24.

أمره على القراءة والكتابة، بل يمتد ليشمل التدبُّر؛ ولذلك فالأميّ هو الذي لا يدري الأمر الذي سيُسأل عنه.

أسلِم تسْلَمْ

مع أنَّ (أسلِم تسلَمْ) كلمتان، ولكلٍّ منهما معنى؛ فإنَّهما معًا يحملان مضمونًا واسعًا، اختلفت القلّة على ما يدلَّان عليه، وفي المقابل الكثرة اتفقت، فالبعض استوقف عقله عند أمر فعلهما، والأكثرون استوقفتهم عقولهم عند الأفعال المعظِّمة للأمر.

فمضمون كلمتي: (أسلِم تسلَمْ) يحوي لبَّ رسائل النبي محمَّد–عليه الصَّلاة والسَّلام– المرسل بها إلى الملوك والحكَّام، الذين عاصروا رسالة الإسلام ونبوّة محمّد، وكان لهم من المخاوف والأوهام ما لهم؛ فبعثَ النَّبي إليهم ما يطمئنهم، ويكسر وهمهم، ويُظهر لهم لبَّ حقيقةِ الإسلام: (أسلِم تسلَمْ)، بمعنى: اطمئنوا فلا خوف من الإسلام، فعندما لا يعتدي أحدٌ علينا نسالمه؛ وبهذا كانت الغاية من إرسال الرُّسُل للملوك والحكام للتعريف بنبوءة محمَّد، ورسالة الكافَّة، والدّعوة إليها بـ(أسلِم تسلَم)، وفي المقابل من لا يريد أنْ يسلم فلا يسلم؛ إذ لا إكراه؛ ولهذا فإنَّ الغاية كانت للتعريف بالنبوّة وطمأنة الخائفين، وليس بغاية التهديد الذي يخالف أمر الرِّسالة.

ولأنَّ محمّدًا رسول للكافّة فالتبشير بالرّسالة لا يقتصر على قوم أو أمّة بعينها، بل يستهدف الكل بلا استثناء؛ ولهذا ليس له إلَّا البلاغ المبين (البلاغ الذي يبيّن الحقّ من الباطل، ويبيّن المعلوم من المجهول)، ومن هنا بَعَثَ محمَّدٌ الرُّسُلَ من طرفه ليبلِّغوا الكافّة وبخاصّة الذين على رؤوسهم ولاة أمرٍ من ملوكٍ وحكّامٍ وأباطرةٍ برسالة الإسلام (أسلِم تسلَم)، التي تعني مما تعنيه: إنَّ الإسلام لا إكراه فيه.

ومع أنَّهما كلمتان عظيمتان فإنَّ الرِّسالةَ المحمولةَ في مضمونهما تحمل بلاغًا أعظم، بلاغًا يُنبئ بأمرٍ يتعلّق بالكافَّة؛ ذلك لأنَّ أولئك الحكَّام وشعوبهم كانوا يعتقدون أنَّ محمَّدًا بُعث رسولًا للعرب فقط، وللتصحيح بعث محمَّدٌ رُسُلَهُ ليبلِّغوا برسول الكافَّة، والهداية بالحقّ واتباعه بغاية: (الكفرُ بالكفرِ)أ أي: الكفر بمن يكفر بالحقّ وإحقاقه؛ ولذا فالنبي محمَّد علم أنَّه إن لم يُبلّغ ما أُمر به فما بلَّغ الرِّسالة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[114].

إذن فمضمون رسالة النَّبي: (أسلِم تسلَم) مضمون إبلاغي؛ ولأنَّه إبلاغي فالمبلِّغ به يأمر بالسَّلام، وكما ينهى عن الكفر بالحقِّ ينهى عن أفعال الإكراه بالمطلق؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[115]؛ ولهذا فلا تهديد في رسالة: (أسلِم تسلَم)، أي: لو كانت رسالة تهديد لكان المهدد به مُضمَّنٌ فيها ومنصوصٌ عليه.

ولأنَّه لا إكراه في الدِّين ورد في الرَّسائل الموجَّهة إلى بعض الحكَّام والملوك عبارة: (فإنْ أبيت) وعبارة: (فإنْ توليت) وفي الحالتين: سواء في حالة الإباء، أم في حالة التولِّي هناك مترتّب على أفعال الإيباء والتّولّي؛ ففي حالة الإيباء، قال في الرِّسالة الموجهة إلى كسرى: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على مَنِ اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبده

[114] المائدة: 67.

[115] البقرة: 256.

ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله إلى النَّاس كافّة؛ ليُنذر من كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين فأسلِم تسلَم، فإنْ أبيت فإنَّ إثم المجوس عليك"[116]، قال: (فإنْ أبيت، فإنَّ إثم المجوس عليك)، ولم يقل: (فإنْ أبيت سأقاتلك)، وقبل هذا القول قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) وهذا دليل على أنَّ ما أَرسلَ محمَّد به رُسُله هو بأمر من الله وليس بأمر من عنده؛ ولهذا قال: (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، أي: إنَّ محمَّد خاطب كسرى باسم الله وليس باسم محمَّد؛ ذلك لأنَّ مهمّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام (مبلِّغًا ومبشرًا ومنذرًا) وهذا ما تؤكّده رسالة (أسلِم تسلَم) التي تعني: (أسلِم) يا كسرى باتباع الحقّ والحياد عن الباطل (تسلَم) من عقاب الله وعذابه، وهذه تدلُّ على أنَّ المرسلين (حملة الرِّسالة إلى كسرى) هم من طرف محمّد، أمَّا المرسلين به إلى كسرى فهو بأمر الله الذي لو لم يأمر نبيه محمَّد أن يرسل رُسُله إلى كسرى بمقولة: (أسلِم تسلَم) ما أرسلهم إليه أبدًا؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[117].

ولأنَّ ما أُرسِل به محمَّد هو رسالة هداية وليست رسالة إكراه ولا مقاتلة أَرسَلَ رُسله بالدّعوة إلى ما أمره الله أن يدعو إليه؛ ولهذا قال في رسالته لكسرى: (وأدعوك بدعاية الله) وهي الدعاية التي شاءها الله أن تكون هداية ودعوة للحقّ؛ ولذ فيا كسرى يا عظيم فارس (أسلِم تسلَم) من المترتب على الكفر بالله تعالى، وعلينا أن لا نغفل عن الكلمة التي صاغها رسول الله –

---

[116] السيرة النبوية لابن كثير 508/3.

[117] الإسراء: 105.

صلى الله عليه وسلّم- بقوله: (إلى كسرى عظيم فارس) فهنا جاء وُرود كلمة (عظيم)؛ لتدلّ على الاعتراف بالآخر هو كما هو عليه بغاية أخذه إلى ما ينبغي أن يكون عليه في سلام، وهذه تنسجم مع مقولة الهداية والسَّلام: (أسلِم تسلَم).

أمَّا في حالة التولِّي فقد قال في رسالته إلى هرقل: "بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم: سلام على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فإنّي أدعوك بدعوة الإسلام، (أسلِم تسلَم) يؤتك الله أجرك مرَّتين، وإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين"[118]، قال: (فإنْ توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيّين)، هذا ما قاله بالتمام، ولم يقل: (فإنْ توليت سأقاتلك بالسَّيف)، وفي افتتاحية هذه الرِّسالة: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) كما قالها افتتاحية رسالته إلى كسرى بالتمام، وهذا القول (باسم الله) يرسخ أنَّه المأمور من عند الله؛ الذي لا يحقّ له أن يتكلّم باسمه لو لم يأذن له ويفوضه بذلك، وقال: (أدعوك بدعوة الإسلام) ولم يقل: (أدعوك بدعوة الاقتتال)؛ ذلك لأنَّ دعوة السَّلام هي دعوة من الله وليس بدعوة من محمَّد فما محمَّد إلَّا رسولٌ مبشّرٌ ونذيرٌ.

وفي الرِّسالة الموجّهة إلى المقوقس قال: "بسم الله الرّحمن الرّحيم مِن محمَّد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد: فإنّي أدعوك بدعوة الإسلام أسلِم تسلَم يؤتك الله أجرك مرَّتين: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ

[118] البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران (4278). مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النّبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (1773).

بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[119] قال: (فإن توليت فعليك إثم القبط)[120]، ولم يقل له: (فإنْ توليت سأرسل إليك جيش المسلمين يقاتلك).

وعليه: كان لمضمون الرسائل مفهومٌ مفاده: في كل الأحوال إنْ لم تقبلوا بما أرسلتُ به رُسُلي إليكم نصحًا، وتبشيرًا، وإنذارًا، وتسليمًا (تصديقًا) فإنَّ أثم وذنب شعوبكم وأقوامكم التي تتحكَّمون في أمورهم وشئونهم ستكون أوزارًا على ظهوركم وستحاسبون عليها أمام الله؛ ولذلك جاء أمر الله (أسلِم تسلَم).

ولأنَّ ما تَصدَّر به مفهوم: (أسلِمْ تسلَمْ) لا إكراه فيه؛ جاء عجزه مؤكِّدًا للمفهوم ذاته وساندًا له بلا إكراه، (فإن توليت فإن عليك إثم جميع الأريسيّين)، وهكذا جاء الصَّدر في رسالة كسرى: (أسلِم تسلَم) وجاء العَجُز: (فإن أبيت، فإنَّ إثم المجوس عليك).

كما أنَّ مفهوم (أسلِم تسلَمْ) مفهومٌ إنذاريٌّ، أي: وكأنَّ المفهوم يقول: إن لم تسلِمْ ستقع في مصائب نحن نعلمها، ويا ليتك تعلمها؛ حتى لا تقع فيها عن غفلة، ومن ثَمَّ فمن يرغب في معرفتها فعليه بما يكسر وهمه وهو: (الإسلام)، وإلّا سيفاجئ بما لم يعلم، والإسلام يعلمه.

ولذا فرسالة: (أسلِم تسلَمْ) هي رسالةُ كَسْرِ وهمِ الذين ظنوا أنَّ رسالة محمَّد هي رسالة إكراه بحدِّ السَّيف، وعندما تبيّن لهم أنَّها ليست

---

[119] آل عمران: 64.

[120] عبد الرّحمن بن حسن التميمي، المطلب الحميد في تبيان مقاصد التوحيد، دار الهداية للطباعة والنشر، 1991م، ص 151.

كذلك فمعظم الملوك قد أسلموا؛ إذ أسلم النجاشي ملك الحبشة، الذي أرسل الرَّسُول إليه رُسله برسالته الشهيرة بنصّها وأثرها العظيم على النجاشي الذي اتبع أمر الرّسالة والتسليم بالرّسول وما يهدي به، وما يهدي إليه؛ فكانت الرّسالة: "بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا كتاب من محمَّد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسوله، فأسلِم تسلَم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[121]، فإنْ أبيت فعليك إثم النصارى من قومك"[122].

وهكذا أسلم جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين حكّام عُمان، والمنذر ملك البحرين، وكاد أن يسلم هرقل ملك الرّوم لو لم يغالبه الوهم.

ولأنَّ كلمة (تسلَمْ) تعني: تنجو، إذن فمفهوم (أسلِم تسلَمْ) يعني: (أقبِل على ما يُنجيك)؛ وبهذا المعنى يصبح مدلول (أسلِم تسلَمْ) مدلول نصيحة مع وافر الحرص على سلامة من يُدعى بالقول: (أسلِم تسلَم)؛ ولهذا فالفرق كبير بين من يقل لك: (أسلِم تسلَم)، ومن يقل لك: (استسلِم تسلَم)؛ فالفرق بينهما: أنَّ مفهوم الأولى متمركزٌ على التقدير والاحترام والحرص على سلامة المدعو، مما يجعل النصيحة لصالح المنصوح.

---

[121] آل عمران: 64.

[122] دلائل النبوّة للبيهقي: (187/2)، السيرة النبويّة لابن إسحاق 81/1.

أمَّا مفهوم الثَّانية فمتمركزٌ على تحقير المدعو والتقليل من شأنه، وهنا تصبح النصيحة في صالح النَّاصح وليس المنصوح؛ ذلك لأنَّ الاستسلام فيه من الإذلال ما فيه مع تقديم المزيد من التنازلات السَّالبة للإرادة، والتي لا يمكن أن تكون في صالح المنصوح.

وعليه: فإنَّ (أسلِم تسلَم) تعني: (إذا أسلَمت سَلِمتَ) أي: إذا أسْلَمتَ نفسك لله –تعالى–سَلِمتْ ونجوت من معصية أمر الله.

مع العلم أنَّ مضمون (أسلِمْ تسلَمْ) مضمون تحفيزي، وكأنَّه يقول لك: لا تتأخّر فأنا متأكّدٌ من نجاتك وسلامتك إذا أخذت بما أنصحك به وأرشدك إليه باسم الله.

أسلِم تسلَمْ رسالة إيضاح وتبيين يملأها الحرصُ قيمةً وفضيلةً، وهي قاعدة أخلاقيّة إنسانيّة تعمُّ ولا تخصُّ، حتى وإن أُرسلت لمخصوصٍ؛ كونه المتولّي للأمر على أيِّ رقعة من الأرض وعلى أيّ شعب أو أمّة.

ولا شيء وراء مفهوم (أسلِم تسلَم) إلَّا بلوغ السَّلامة وتحقيقها؛ ذلك لأنَّ السَّلامةَ نجاةٌ من المتوقّع حدوثه يقينًا وهو الذي لم يتوقّعه من يتعلّق الأمر به؛ ولأنَّ وقوعه سيكون لا محالة مؤلمًا؛ وجب على من يعلم وهو المكلّف بالرِّسالة والتبليغ (الرَّسُول الكريم) أن يبلّغ كل المستهدفين بها، حتى لا يؤخذون على حين غرّة؛ بغاية سلامتهم وسلامة من يتولّى رعاية أمرهم وشئونهم سياسةً واقتصادًا واجتماعًا.

و(أسلِم تسلَم) رسالةٌ مفتوحةٌ لكلِّ النَّاس دون استثناء فردًا وجماعةً ومجتمعًا وأممًا وشعوبًا؛ ولذا فمن سَلمت يداه من السّلب والنّهب والسّرقة

وتزوير الوثائق والحقائق وكفر بها سَلم من العقاب والذّنب، ومن سلم لسانه من الذّم والقدح في أخلاق النَّاس وذمهم وكفر بها سلم من الفتنة والمطاردة، ومن سلم عقله (تذكرًا، وتفكّرًا، وتدبّرًا) وكفر بسوئها صنع له مستقبلًا مرضيًا في مرضاة الله تعالى، ومن سلم قلبه من البغض والحقد وكفر بهما نام مطمئنًا آمنًا، ومن سلمت نفسه من الحسد والكيد والمكر وكفر بها سكن قلوب النَّاس محبّة، ومن سلمت غريزته من إشباع الشّهوة المحرّمة وكفر بها موحدًا لله –تعالى– ومؤمنًا بالرُّسُل الكّرام وما جاءوا به مبشّرين ومنذرين ومحذّرين دخل الجنّة.

وعليه: فمن أخذ بالرّسالةِ (أسلِم تسلَم) سَلِمَ مما ذكرنا ذنبًا وعقابًا، ومن كفر بها فلن يسلم مما يترتّب عليها ذنبًا وعقابًا.

ومع أنَّ للرّسالة (أسلِم تسلَم) مفهومها الدَّال عليها فإنِّ لكل كلمة منها مفهومًا خاصًّا به؛ فمفهوم كلمة (أسلِم) يشير إلى التخلّي عمَّا لا يجب وهو (اتباع الباطل) والأخذ بما يجب (اتباع الحقّ)، أي: إنَّ مفهوم رسالتها يشير إلى الذي حالته لم تكن على ما يجب أن يكون عليه، وأنَّ عقله لا يدري بالضرر المترتّب على أخذه تلك المواقف التي جعلته على تلك الحالة التي لا بدَّ وأن تؤدِّي به إلى ذنبٍ وضررٍ وعقابٍ؛ ولأنَّ الذي خاطبه بالكلمة (أسلِم) يدري بالمترتّب العقابي ولا يريده أن يقع فيه بوقوعه في ذنوبها قال له: (أسلم)، بمعنى: أخرج من تلك الطّريق (طريق التهلكة) قبل أن تلحقك التهلكة، ومن ثمَّ فاسلم تعني مما تعنيه (انتبه لنفسك فأنت في طريق التهلكة).

أمَّا كلمة (تسلَم) فتعني: (تنجو)، أي: إذا أخذت بالكلمة (أسلِم) تنجو مما أنت سالكه ومنتهجه (أسلِم تسلَم)، بمعني: خذ بالحق واتّبعه تنجو من المترتب ضررًا على ما أنت عليه وأنت لا تدري؛ ولهذا فالذين تبيّنوا الحقّ وأسلموا له تغيّرت أحوالهم من الضلال إلى الهداية كما هو حال معظم الملوك الذين خاطبهم سيدنا محمَّدٌ –صلى الله عليه وسلم–كما سبق تبيانه بقوله: (أسلِم تسلَم)؛ إذ أسلم النجاشي ملك الحبشة، وأسلم جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين حكّام عُمان، والمنذر ملك البحرين، وكاد أن يسلم هرقل ملك الرّوم لولا وهمٌ وقد غالبه.

إذن: فمفهوم الرِّسالة (أسلِم تسلَم) جاء مفهومًا تناصحيًّا إرشاديًّا بغاية إنقاذ المرسل إليه ولم يكن بغاية تهديده وتقليل شأنه أو العدوان عليه.

ولسائلٍ أنْ يتساءل:

وعلى ماذا تستند هذه المقولة: (أسلِم تسلَم)؟

أقول: تستند على قوله تعلى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[123]، إذن: لا إكراه بعد التبيُّن، وخير مُبيّن للذين لا يدركون الدّين قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: (أسلِم تسلَم)، إنَّه القول الحق وكأنَّه الرِّسالة الملخّصة للرِّسالةِ.

وكذلك تستند رسالة (أسلِم تسلَم) على قوله تعالى: {مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[124]، أي: رسالتنا

---

[123] البقرة: 256.

[124] سبأ: 28.

إليك يا محمَّد رسالة الكافَّة (وأنت رسول الكافَّة) فلا تستثني أحدًا وبشّر وأنذر بالسّلام؛ ذلك لأنَّه من يُسلِم يَسلَم:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[125]، في هذه الآية الكريمة تبيين وتحديد لمهمة الرَّسُول الكريم وهي التبشير والإنذار للكافَّة (أمرًا ونهيًا)؛ ذلك لأنَّ الله ربُّ الجميع ولا استثناء: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}.

ولأنَّ رسالة الإسلام رسالة رحمة؛ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[126]. أي: إنَّها الرِّسالةُ الرّحمة والرَّسُولُ الرّحمة المبشر والمنذر رحمةً بالعالمين؛ ولذا فمفهوم هذه الرِّسالة يعني مما يعنيه: لا للظلم والعدوان، لا للإكراه والاستعباد والاستبداد؛ ولهذا جاء مرتكز رسالة محمَّد (أسلِم تسلَم)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}[127] ولكلٍّ حسابه: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[128].

وعليه: فقول الرَّسُول صلّى الله عليه وسلّم: (أسلِم تسلَم) قول حقّ (حقّ على الرَّسُول أن يقوله؛ لأنَّه المكلف بالتبشير به والتبليغ)، وكذلك حقّ لمن أُرسل الرُّسُل إليهم؛ كونهم لا يدرون بعد بالحق المنزَّل على محمَّد تنزيلًا من عند الله جلَّ جلاله، ومن ثمَّ فقول الحقّ لا يرتبط بالإكراه؛ ولذا جاء المفهوم بمعنى: فَقلهُ يا محمَّد، ثمّ اترك لمن يشاء اتباع الحقّ أنْ يتبعه ولمن شاء اتباع الباطل أنْ يتبعه، ولا محاسب ولا معاقب إلَّا الله وحده، ومن هنا

---

[125] الإسراء: 105.

[126] الأنبياء: 107.

[127] الإسراء: 54.

[128] مريم: 93 . 95.

فالإكراه مضاد للمشيئة الخلقية التي شاء الله أن يكون خلقه عليها: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[129]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[130]، مع العلم أنَّ هذا الاختلاف سيظل بينهم باقيًا ولن يزول إلّا بزوال الباطل الذي بزواله يسود الحقّ بين المهتدين بالحقِّ والمتبعين له والعاملين عليه وعلى إحقاقه.

ولهذا فقد أرسل رسول الله رُسُله بالرِّسالة المرسّخة للهداية بلا إكراه: (أسلِم تسلَم) وهذه بالتمام رسّخت قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}.

وعليه: فمن يخالف هذا الأمر (أسلِم تسلَم) قد خالف أمر الله تعالى ورسوله الكريم، ومن هنا نلاحظ أنَّ مفهوم الرِّسالة (أسلِم تسلَم) موجّهٌ إلى أمرين:

الأمر الأوَّل: إنَّ الرِّسالة موجّهة إلى المرسَل بها؛ كي لا يتصرّف بما يخالف الأمر المنزّل من الله –عزّ وجلَّ–والمرسل به من قِبل رسول الله، وكذلك لا يخالف الإرادة والرّغبة بالنسبة إلى المرسل إليهم.

الأمر الثَّاني: إنَّ الرِّسالة موجهّة إلى المرسل إليه؛ لتبيّن له أهميّة الإرادة في اتخاذ القرار الذي سيترتّب على التبليغ بالمرسل به، ولا يخالف المشيئة الخَلقيَّة: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}.

---

[129] الكهف: 29.

[130] هود 118، 119.

ولذا فالدّين الإسلام دين هداية؛ ودين الهداية لا يُمكن أن يسود بالإكراه والترعيب والتفخيخ وقتل النفس التي حرّم الله: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}[131]، وقال تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[132]، أي: من قتل نفسًا ظلمًا فكأنما قتل النَّاس جميعًا، وفي المقابل من أحياهم بالحقِّ عدالة ورحمة ومودّة وحُسن معاملة ولا إكراه فكأنما أحياء النَّاس جميعًا، وهذا الأمر وحده الذي بُعث الرُّسُل جميعهم به، وهو الأمر ذاته الذي أرسل به محمَّد رُسُلَهُ بالرِّسالة: (أسلِم تسلَم)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}[133]. يفهم من هذه الآية الكريمة حريّة الإرادة التي بها آمن من آمن وبها كفر من كفر؛ إذ لا إكراه في الدين، وهنا نلاحظ ما هو مستغرب مِن البعض وهم الذين يريدون أن يكره النَّاس باسم الدين الذي أمر الله ألّا يكون فيه إكراه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[134]، أي: قد تبيَّن الحقّ على أيدي الرُّسل المرسلين من الله –تعالى– وهم الذين جاءت رسالتهم الخاتمة على يد محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أسّس رسالته المرسلة إلى الملوك والحكّام على مفهوم الرِّسالة المنزّلة وروحها: (أسلِم تسلَم).

---

[131] الإسراء: 33.

[132] المائدة: 32.

[133] المائدة: 32.

[134] البقرة: 256.

معجزةُ (قُلْ) للنبي محمَّد

كلمة (قُل) كلمة حقّ لقولِ حقٍّ يأتي من بعدها، ولخصوصيّة نزول كلمة (قُل) في القرآن الكريم جاء تمييزها من حيث إنَّ كل الضّمائر تعود على ما قبلها إلَّا (قُل) فضميرها لا يكون إلَّا لاحقًا عليها.

وجاءت (قُل) في القرآن الكريم متضمِّنة لمفهوم (بسم الله)، أي: كل قول يأتي من بعدها تنزيلًا لا يقال إلَّا باسم الله، بمعنى: لا يُبلّغ ولا يُنذر ولا يُؤمر ولا يُنهى بالقول المنزّل من بعدها إلَّا باسم الله تعالى، بل كل القرآن مبنيٌّ على كلمة القول: (قُل بسم الله).

ولذا فـ(قُل) كلمة ذات أمر قاطع الحدوث: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي}[135]، فلو جاءت هذه الآية دون أن تسبقها (قُل) لقال الظّانون إنَّه قول محمَّد؛ كون هذا القول عائد على محمَّدٍ وبلسانهِ، ولكن كلمة (قُل) حسمت الأمر (فجعلت قول الله) يقال باسمه على لسان محمَّد: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[136].

أُنزلت الكلمة (قُل) من الله –تعالى–فعلَ أمرٍ مُلزِمٍ لتكسر وهمًا بحجّة ودليل، فكان الحفاظ عليها تنزيلًا (طاعة للأمر)، الذي لا ينفصل فيه القائل عمَّا قال.

---

[135] الأنعام: 57.

[136] ق: 18.

(قُل) تنزيلٌ: هي أمرٌ من الله تعالى، قيلت لجبريل –عليه السَّلام– نبأً للنبي محمّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– ليبلِّغ بها الكافّة، فهي أوَّلًا: قالها الله لجبريل، وثانيًا: قالها جبريل لمحمَّد، وثالثًا: قالها محمَّد للكافة، وهي تعني مما تعنيه أنَّ الله –تعالى– قال: (قل يا جبريل لمحمّد) أن يقول: (قُل) أينما تنزّلت عليه هي كما هي، ولا ينوب عنّي في أمري بها.

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[137]، وهذا القول يعدُّ واحدًا مما مجموعه 332 مرة، قيلت فيها كلمة (قُل) في القرآن الكريم، وقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} بمعنى: قل يا جبريل لمحمَّد أن يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وهنا يكمن اللَّبس والغموض لدى بعض الذين قالوا: بما أنَّ الله قال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، إذن ينبغي أن نقول: {هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}؛ معلِّلين قولهم بأنَّ (قُل) فعل أمر يتطلَّب قول ما يرد من بعده، وهو الذي يجب أن يقال، وإلَّا سنجد أنفسنا نكرر في الأمر الذي أُمرنا به، وكأنَّنا لم نفهم ما قِيل لنا.

فهنا بالتَّمام يكمن سوء الفهم غموضًا، **ولفكِّ هذا الغموض علينا أن نميِّز بين أمرين:**

الأمر الأوَّل: أنْ يقول الله لجبريل: قل لمحمَّد: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

الأمر الثَّاني: أن يقول الله لجبريل قل لمحمَّد أن يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

فالذين فسَّروا التباسًا وغموضًا ووهمًا أخذوا بالأوَّل، وهو ما لم يقله الله جلَّ جلاله، فلو قاله الله لحذفت (قُل) من قِبل الرَّسول الكريم؛ كونه

[137] الإخلاص 1.

يعلم ما لا نعلم: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[138]، ولكن لأنَّ (قُل) بقيت كما أُنزلت؛ فهذا يُبرهن إثباتًا على أنَّ الله –تعالى– قال لجبريل: قل لمحمَّد أن يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وبهذه الصِّيغة أصبح محمَّدٌ ملزمًا بقولها إثباتًا لأمر الله نصًّا.

ومن ثمَّ فافتراضًا لو لم يقل النبي محمَّد: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وقال: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وحذف فعل الأمر (قُل) لأمكن للمشكِّكين والواهمين أنَّ يعيدوا قول: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) إلى النبي، ولا يعيدونه إلى الله تعالى؛ ولذا ففي أي موضع في القرآن فعل الأمر (قُل) لا يعود فعل الأمر والإجابة المترتبة عليه إلَّا لله تعالى، وفي المقابل لو تمَّ حذفه فمن حقِّ المفسِّر أن يعيد الكلام إلى الرَّسُول في الوقت الذي لم يكن القول قوله؛ لأنَّه قول الله.

وعليه: لو قال الله لجبريل أن يقول لمحمّدٍ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، لكان من حقِّ محمَّد أن يقول: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، ولكنَّه قال له: قُل يا جبريل، أن يقول محمَّد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)؛ ولهذا ليس له بدٌّ إلَّا قولها كما أُمر.

ولأنَّ الفعل (قُل) فعل مُلزم القول فهو مُلزم الأخذ به والتقيُّد؛ حيث لا اجتهاد من بعد (قُل) ولا وهم: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ}[139]؛ فلو حُذفت كلمة (قُل)؛ لكان لسائلٍ أن يسأل: هل الضّمير هنا يعود على عِبَادِ الله، أم على عِبَادِ النبي؟ ولهذا تُعدّ كلمة (قُل) الكلمة الحاسمة للأمر؛ إذ لا التباس من بعدها ولا أوهام: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}[140]، أي: إنَّه

---

[138] الحشر: 7.

[139] الزمر: 10.

[140] الحاقة: 40.

القول المنزَّل على الرَّسُول، ومن ثم هو القول الحقّ؛ لأنَّ الرّسول لا يقول إلّا ما قاله الله كما قاله الله، قال تعالى: {وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[141] في هاتين الآتين لو حذفت (قُل) لأصبح اللبس في العقول، هل هذا القول قاله الرَّسول، أم قاله الله؟ ثمَّ هل هذا الأمر خاصّ بالرّسول، أم إنَّه أمر وللكافّة؟

ومن ثمّ فإنَّ (قُل) قد قنَّنت كلّ ما قِيل من بعدها، ولم تتركه فضفاضًا للتناقض وسوء التفسير وأوهام البشر؛ فهي من أهم الكلمات التي نقلت المبلّغ به إلى المبلّغ إليه دون أن تترك له رأيًا فيما أمرت به وقيَّدته؛ إذ لا اجتهاد فيما يَرِد من بعدها.

ولهذا فإنَّ (قُلْ) تربط القول بقائله، وليس بالمقال له، أي: لا تربطه بجبريل، ولا تربطه بمحمَّد؛ حيث لا اجتهاد لهما فيما أمر الله به، مما يجعل العلاقة مباشرة بين القول (القرآن)، والقائل (الله)، والمبلغ (النبي)، والمبلغ به (الكافة).

ولأنَّ أمر (قُل) ورد في القرآن 332 مرة فإنَّ أمرها ليس هينًا؛ ولذا فهي لم تأتِ على مفهومٍ واحدٍ، بل على أوجه من المفاهيم، وفي كلّ الأوجه كانت الإجابات والأخبار المترتّبة على (قُل) دالة على أهميّة ما يريد الله أن يلفت النَّاس إليه اهتمامًا خاصًّا، سواء أكان إقدامًا وأخذًا، أم إحجامًا وانتهاءً، أم درسًا للاتعاظ وأخذًا للعبر.

[141] المؤمنون: 97، 98.

وعليه: فإنَّ (قُل) أمرٌ من عند الله، فلا يمكن أن يكون من بعده تردُّد، ومن ثمَّ ليس للمؤمن أن يتردَّد في الاحتكام بما ورد مأمورًا به من بعد (قُل)، أو منصوحًا به من بعدها، وبخاصَّةٍ أنَّ الأفعال المترتّبة على (قُل) لا تكون إلَّا حلًّا للتأزُّمات، وخيرًا ولا إكراه.

ومع أنَّ (قُلْ) كلمة واحدة لآمرٍ واحد (الله) فإنَّ المأمور بنقلها (جبريل)، والمأمور بأخذ ما تحمله من رسالة هو (محمَّد)، والمبشَّرين برسالتها (الكافَّة)، ومن هنا أقول: كلّ القرآن مؤسّسٌ على (قُلْ) سواء ذُكرت (قُلْ) أم لم تذكر؛ لأنَّ القرآن قول الله، الذي قاله جبريل وحيًا للنبي محمّد، والذي بدوره بلَّغ ما قيل له رسالة.

ولهذا فالفعل (قُلْ) فعلٌ تبليغي، مؤسّسٌ على قول اسم الله: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)، الذي لا يمكن لنا قوله ما لم نقل: قال الله –تعالى– في كتابه العزيز؛ لتكون القراءة من بعده بسم الله، ثمَّ نقول أو نقرأ ما قاله الله جلَّ جلاله.

أمَّا إظهار كلمة: (قُل) فهي لترسيخ العلاقة المباشرة مع الله تعالى؛ ولذلك فعندما يقال لك: (قُل) كما أمر الله بها تنزيلًا؛ فهي كمن يقول لك: لا تغفل، ولا يخالجك وهم؛ إذ لا علاقة لي بما أبلغتك به سوى أنّني المؤمن به، والمبشر المنذر، والدّاعي إلى الأخذ بما أمر الله وأنزل؛ ولذا فمتى ما تجد (قُل) تنزيلًا تعلم أنَّ القرآن لم يكن حوارًا بين الله ورسوله، ومن ثمَّ فإظهار كلمة (قُل) في مواقع وجودها وإظهارها في المصحف تعد حُجَّة

لإظهار الحقيقة وأحكامها هي كما هي؛ حيث لا زيادة ولا نقصان؛ ومن ثَّم فإنَّ كلمة (قُل) كما أنزلت إنْ لم تكن حُجَّةً لنا، ستكون حُجَّةً علينا.

وما ينبغي الإشارة إليه والوقوف عنده أنَّ كلمة (قُل) كما تُرسّخ أمر الله –تعالى– ترسِّخ لسان حال محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أي: وكأن محمَّدًا هو القائل، فهو المأمور بها وهي المجسّدة لمعتقده وإيمانه، وهي العاكسة للسان حاله نبيًّا ورسولًا، ومن هنا فقد جمعت (قُل) قول الله –تعالى– مع ما يقوله محمَّد وتطابقت معه، ومن ثمَّ فأينما وردت كلمة (قُل) في القرآن الكريم يكاد أن لا يُفرّق بين قول الله وقول محمّد وهذه من أعظم المعجزات التي وُهبت لرسول الله محمّد؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[142]، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[143]، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}[144]، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}[145].

إذن: فمن يتفحّص مضامين ومفاهيم هذه الآيات الكريمة يعرف أنَّها قول الله –تعالى– يقينًا، وفي الوقت ذاته هي ما قاله محمَّد يقينًا، وهذه معجزة من المعجزات التي وهبها الله تعالى لنبيّه ورسوله الكريم الذي جعل

---

[142] الأعراف: 158.

[143] يونس: 104.

[144] يونس: 108.

[145] الحج: 49.

طاعتهُ من طاعتهِ تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}[146]، وفي تفويضه للرّسُول الكريم؛ قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[147]، وقال جلَّ جلاله: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}[148].

إذن: فمن أطاع الله أطاع الرَّسُول، ومن عصى الرَّسُول فقد عصى الله؛ ولهذا {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، ومن هنا جاءت ولاية النبي على من أطاعه طاعة لله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}[149]، وفي المقابل من يعصي طاعة الرَّسُول ويخالف أمره ولا يأخذ بما قاله محمَّد فقد عصى أمر الله تعالى.

وعليه: فإنَّ (قُل) هي مفتاح كلّ الآيات القرآنيَّة سواء التي ذُكرت فيها كلمة (قُل) أم التي لم تُذكر فيها؛ ذلك لأنَّ كلّ القرآن جاء بأمر الله لجبريل –عليه السَّلام–ليقول لمحمّد ما قاله له تنزيلًا؛ ومن هنا فكل القرآن قاله محمَّد كما أُنزل عليه بالأمر قُل (بسم الله).

ومع أنَّ كلمة (قُل) مُطلقة المفهوم فإنَّها أُنزلت على الخصوص مُعجزة لمحمَّد؛ ليقهر بها أيُّ قول يخالف ما خُلق الإنسان عليه في أحسن تقويم.

---

[146] آل عمران: 32.

[147] الحشر: 17.

[148] النساء: 13، 14.

[149] المائدة: 55.

ومن هنا تعدّ كلمة (قُل) تفويض لمحمَّد ورُخصة إعجازية وقد أُعطيت له ووهبت؛ ليقول، ويُطاع، ويُتَّبع: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ}[150].

ومن يتفحّص مفهوم كلمة (قُل) وكلمة (اقرأ) يلاحظ ويتبيّن وجود علاقة الأمر بينهما خاصَّة بمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام: (اقرأ يا محمَّد، وقُل يا محمَّد)، أي: إنَّ محمَّدًا لم يقرأ لنفسه، بل قرأ ليأمُر بأمرِ الله (قُل)، ومن ثمَّ تأسَّست دراية محمَّد وَمُحِيَتْ أميَّته بـ(اقرأ)، وبُلِّغت رسالة محمَّد وتناقلت بـ(قُل)؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[151]، وقال عزَّ وجلَّ: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[152].

ولهذا فأمر (اقرأ) من أمر (قُل)، وأمر (قُل) من أمر (اقرأ)، وقد جاءتا (اقرأ، وقُل) بمعنى: اقرأ يا محمَّد ما أقوله لك، وقل يا محمَّد ما أقوله لك، وكلتاهما من معجزات الرَّسُول محمَّد صلَّى الله عليه وسلّم، فقوله: (اقرأ بسم ربّك) تعني: قُل (بسم الله)، وقوله (بسم الله) يعني: أنَّه (قرأ باسم الله)، ومن هنا فالمعجزات بعضها من بعض.

إذن: فكلمة (قُل) من الله –جلَّ جلاله–إلى محمَّد لا تعني: قل لي ما عندك يا محمّد، بل تعني: قل ما أقوله لك، وكلمة (قُل) على هذا المفهوم

---

[150] الأنفال: 1.

[151] المائدة: 67.

[152] الأعراف: 158.

تدلُّ على إعطاء صلاحيّة القول لمحمَّد ووجوب اتباع قوله: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[153]، ومع أنَّ القول من الله –تعالى– فإنَّ قول الله بعد أن يقوله محمَّد يصبح القول متطابقًا (بسم الله على لسان محمَّد)؛ ولذا فإنَّ قول الله لمحمّد أن يقول باسم الله ما يقوله الله لا شك أنَّها معجزة، وقد أعطيت لمحمَّد ووُهبت له.

ومع أنَّ كلمة (قُل) آمرة فإنَّ مضمونها ذو مفهومٍ اعترافي؛ فالله –تعالى– عندما يقول لمحمَّد (قُل)؛ يجنّبه الشّكوك والظّنون؛ ذلك لأنَّ إسناد كلمة: (قل) وما يترتّب عليها في القرآن الكريم لا يُسند إلَّا لله وحده، أمَّا قول محمَّد لما قيل له أن يقوله لا يسند إليه إلّا مبشّرًا ومنذرًا وآمرًا وناهيًا ونبيًا رسولًا؛ ولأنَّه كذلك يتطابق قول محمَّد مع قول الله تعالى، ومن ثمَّ فإنْ قُلت قاله الله فأنت صادق، وإن قلت قاله محمَّد فأنت صادق؛ ذلك لأنَّ قول الله وكلامه لا يقال إلَّا باسمه عزَّ وجلَّ، ومن ثمَّ فكل ما قاله محمَّد باسم الله فهو لا يكون إلَّا بأمره تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}[154].

ومع أنَّ كلمة (قُل) آمرة فإنَّها المخبرة عن الرِّسالة والمبلِّغَ بها، فرسالة محمَّد كّلها مبنيَّة على (قُل يا محمَّد)، أي: قُل ما أقوله لك وما هديتك إليه؛ لتهدي به مَن تهدي من بعدك: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

---

[153] الحشر: 17.

[154] الأنعام: 164.

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[155].

ومع أنَّ كل ضمير لا يعود إلَّا على سابق فإنَّ كلمة (قُل) وحدها تأتي الضّمائر من بعدها مخبرة وتتبعها، فأينما وردت كلمة (قُل) وأنزلت في القرآن الكريم اتبعتها الضمائر سواء أكانت ضمائر مستترة أم متصلة أم منفصلة (جميع الضّمائر وإن تعدّدت)؛ قال تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا}[156]، نعم إنَّ الذين اتقوا هم أهل الخير الذين لا يرون ما أنزل من الله إلَّا خيرًا مفصَّلًا به يكسر الوهم، وينعم النَّاس، وتتحقّق المعجزات وتسود الهداية والإصلاح، ومن ثمَّ فلا إكراه.

الجزيةُ

تكسرُ الوهم

[155] الأنعام: 161 – 163.

[156] النحل: 30.

مع أنَّ مفهوم الجزية لغة مستمدٌّ من معنى الجزاء؛ فإنَّ الجزاء لا يكون إلَّا على احتمالين: احتمال المكافأة على الفعل الحسن، واحتمال المعاقبة على الفعل السيئ، وإذا نظرنا إلى مفهوم الجزية بدلالة واحدة فلا إمكانيَّة لمعرفة مفهومها؛ ذلك لأنَّ مفهوم الجزاء منكَّرٌ؛ فأيُّ جزاء تعني؟ أتعني: المعاقبة على الفعل السيئ، أم تعني المكافئة على الفعل الحسن؟ وفي المقابل مفهوم الجزية ليس بمنكَّرٍ.

الجزيةُ هي الجزية كما أُنزلت وحيًا منزَّلًا؛ فهي تجمع مفهومي الجزاء في الفعل الواحد في الوقت الواحد، فالجزية ليست بمكافئة خالصة الحُسن، ولا بعقاب خالص الإساءة، ولم تكن مَنزَلة بين المنزِلتين (مجهولة الهويّة)؛ ولهذا جاءت في القرآن مُعرّفة: (الجزية)، ولم تأتِ منكَّرة (جزية)، فهي كما جاءت بدلائلها المحدّدة تنزيلًا: تُعطى من قِبل الذين أُتوا الكتاب، وفي دلالتها مفهوم اعترافيّ متبادل: (اعترف بي، أعترف بك، وإن أنكرت وجودي، فلا تنتظر مني اعترافًا). فهي أوَّلًا: اعتراف أهل الكتاب والتزامهم بضوابط الدّولة الإسلاميَّة، وثانيًا: اعتراف الدّولة الإسلاميَّة بحريّة ممارسة المعتقد وأمن النَّاس بلا فوارق؛ إذ لا إكراه.

ولذا جاءت الجزية حلًّا لكسر وهم الخوف الذي كان حائلًا بين من خَسِرَ الرِّهان ومن كسِبهُ، فالذي خَسِرَ رهان المعركة اقتتالًا أصبح الخوف يملأ قلبه على: (نفسه، وذويهِ، ودينه، وما يملك)، فكان ردُّ المنتصر (السَّلام)، الذي لا اصطناع في إعطائه؛ كونه عنوان الإسلام في الدّولة.

وبهذه المنحة كُسِرَ الوهمُ وفُرجت كُرب الخائفين، وقَبِلوا بدفع الجزية عن يدٍ (عن إرادة) والاطمئنان لم يفارق قلوبهم.

ولأنَّ السَّلام عنوانُ الدَّولة، فالدَّولة الإسلاميَّة لا تقاتل من لا يقاتلها، قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[157] ماذا تعني هذه الآية الكريمة؟

تعني مما تعنيه: إذا انتصر المسلمون في قتالٍ كُتب عليهم، أو استسلم لهم العدو فعليهم أنْ لا يقاتلوهم إذا امتنعوا عن القتال وقبلوا بإعطاء الجزية، التي بها الحقوق تُضمن والواجبات تؤدَّى، إي: عدم مقاتلة كل هؤلاء الذين ذُكرت صفاتهم في هذه الآية إذا أعطوا الجزية، بمعنى: في حالة ما إذا كُتب عليهم القتال كرهًا قاتلوا من يقاتلهم ويعتدي عليهم، وعندما يُحقِّقون النَّصر فلا إكراه في الدين؛ ولهذا جاءت الجزية حلًّا، وليست عقابًا.

ومع أنَّ البعض يعتقد أنَّ مفهوم الجزية مقتصرٌ على الإسلام فإنَّ البعض يعرف أنَّ ورودها بهذا المفهوم قد عُرف في الديانات السَّابقة وبخاصّة المسيحيَّة؛ ولهذا جاءت الجزية في الإسلام حلًّا بما يعرفه المستهدفون بها، أي: جاءت المخاطبة القرآنيَّة للذين أُتوا الكتاب بما لا استغراب فيه؛ وهو: إعطاء الجزية كما يعرفونها، وفي هذا الشَّأن ورد في إنجيل متَّى المحاورة الآتية: "ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أمِن بنيهم

[157] التوبة: 29.

أم مِن الأجانب؟ قال بطرس: مِن الأجانب. قال يسوع: فإذًا البنون أحرار"[158].

ولأنَّه لا إكراه في الدّين، قال تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ}، ولم يقل: {حتى تؤخذ الجزية}؛ ذلك لأنَّ كلمة: (خُذ) آمرة (فعلها أَمْرٌ)، وفي المقابل كلمة: (يُعطوا) إراديَّة ولا أمر فيها؛ ولهذا أفعال كلمة (يُعطوا) غير مترتِّبةٍ على أفعال الاستعطاء من أحدٍ؛ إذ في أفعال الاستعطاء ترجٍّ وتوسُّلٌ، فيه من تقليل الشَّأن ما فيه، أي: إنَّ إدارة الدّولة الإسلاميَّة في عصرها لا تستعطي الجزيّة من الذين يتعلّق أمرها بهم استعطاءً، بل إنَّ إقرار الجزية من عند الله جاء حلًّا لمشكلٍ، ولو لم تُقرّ لكانت أفعال الترجّي والتوسُّل والاستجداء مِن قِبل مَن كُتبت عليهم بما لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم.

ولهذا فالأفعال المترتِّبة على كلمة (يُعطوا) أفعال إرادية وفقًا للواجبات التي ينبغي أن تؤدَّى تجاه الدّولة المسلمة.

ولأنَّ الإعطاء لا يكون إلَّا إراديًّا؛ إذن: فلا إكراه بأفعال تترتب عليه، ومن ثمَّ فكل من يستجيب لإحقاق الحقِّ وإعطائه فلا تصغير لشأنه، بل تكبيره أولى، فأهل الكتاب الذين استجابوا لإعطاء الجزية واجبة الإعطاء في مقابلة حقوق تمارس فلا تصغير لشأنهم، بل التصغير لا يلحق إلَّا من لم يستجب للأخذ بما يجب وهو إعطاء الجزية بلا تردد وعن إرادة ومقدرة.

ومن يمتنع عن إعطاء الجزية وهو قادرٌ على إعطائها فقد أقدم على فعلٍ لا يؤدّي به إلَّا إلى تصغير شأنه؛ ولذا فمن لا يستجيب لإعطاء الجزية

---

[158] إنجيل متى، الإصحاح 17، الآيات: 24-25.

فقد كانت عدم استجابته سببًا في تصغير شأنه وتقليله، وسيظل مصَّغرًا حتى يعطيها، وبإعطائه أيَّاها فلا تصغير يلحقه، بل الاحترام والتقدير.

إذن: فمن حيث المفهوم، سيظل مصغَّرٌ كلَّ من يُكتب عليه دفع الجزية كونها واجبٌ، حتى يستجيب إرادة ويعطها، وبإعطائه أيَّها شأنه يقدَّر، أي: إذا لم يُعطها فلا تقدير له ولا شأن؛ وذلك لإخلاله بنواميس الدّولة وتنظيمها الأخلاقي والإداري الضابط لسلوك الأفراد والجماعات والمجتمع بأسره.

وعليه: فمن يستجيب اعترافًا بوجوب إعطاء الجزية إرادة فلا تصغير له، ومن يتأبَّى فإنَّ قوانين الدّولة وتشريعاتها عقابًا لا بدَّ وأنْ تطبَّق عليه حتى يعطها عن يدٍ وهو صاغر الشأن؛ إذ لا تهاون في ضبط العلاقات بين المواطنين بمختلف معتقداتهم وأديانهم وفقًا لقاعدة (الحقوق تمارس والواجبات تؤدَّى)؛ فقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[159] يعود مفهوم هذه الآية الكريمة على الذين اعتدوا على الدّولة المسلمة وقاتلوا أهلها حتى خسروا الرِّهان، فهؤلاء كونهم من أهل الكتاب يعرفون ماذا يعني فرض الجزية وإعطائها، ومن ثمَّ فلا قتال لأحدٍ أعطاها، بل وجب صون حياته وسلامته وأمنه؛ كونه قد أعطى الجزية وهو قابلٌ أن يسري عليه ما يسري على بقيّة المواطنين في الدّولة، أمَّا مَن يمتنع عن إعطائها ويتوجّه إلى مقاتلة المسلمين فمقاتلته واجبة؛ كونها دفاعًا عن النَّفس وعن الدّولة وكيانها، حتى

[159] التوبة: 29.

يُعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر، ومن ثمَّ فبإعطائه الجزية يحترم ولا يصغَّر أبدًا.

وعليه: فإنَّ إعطاء الجزية يُمكّن مُعطيها من ممارسة حقوق المواطنة مع احترام الدّين، الذي لا يقاتل أو يجاهد من أجله إلَّا الذين آمنوا به، ومن ثمَّ فيجب تقدير الإنسان ودينه وحقّهِ في المواطنة وفقًا لقاعدة:

1 . احترام الدّين والمعتقد: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[160].

2 . تحقيق الإرادة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[161]؛ وقال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[162].

3 . تحقيق العدالة: {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[163].

4 . المقدرة والاستطاعة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}[164].

---

[160] الكافرون 6.

[161] البقرة 256.

[162] يونس 99.

[163] الجاثية 22.

[164] البقرة 286.

5 . مواجهة الفساد: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[165]، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}[166].

ولذا فلا تصغير لمواطنٍ إلَّا إذا صغَّر نفسه بالتخلّي عن أداء واجبٍ به ينال التقدير والاحترام.

ومن هنا فإنَّ إعطاء الجزية لا سلبيّة فيه، بل كلَّه إيجابيّة؛ ذلك لأنَّ إعطاء الجزية يرتقي بمعطيها إلى نيل حقوق المواطنة مما يجعل الذي أعطاها مثله مثل أيِّ فرد من أهل البلاد (مواطنو الدّولة) مع احترام الدين وفقًا لقاعدة (لكم دينكم ولي دين).

وعليه: فمن حيث المفهوم لكلمة (صاغرون) جاءت كلمة (حتَّى) لتنهي التصغير من بعدها؛ إذ لا تصغير من بعد كلمة (حتّى)؛ كونها الغاية التي من بعدها يُراد الوصول إلى المأمول ونيله، فقوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[167] تستوجب مقاتلة من يقاتل المسلمين ويعتدي عليهم (حتَّى) تحقيق النصر أو الاستشهاد دونه، ومن ثمَّ فبتحقيق النّصر يقف القتال، ولمن يدفع الجزيّة كلّ الاحترام والتقدير؛ ولذا فقوله: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) جاءت كلمة (حتَّى) لتدلّ على أنَّ التصغير لا يلحق من يدفع الجزية، بل يلحق من يستمر في المقاتلة ويتأبَّى

---

[165] البقرة 11، 12.

[166] الأعراف 85.

[167] التوبة 29.

عن الانصياع لنظم الدولة الإسلاميَّة التي لا ينبغي أن تظلم، وإذا ظلمت فقدت صفتها.

ومن هنا فالتّصغير لا يلحق إلَّا من تأبَّى عن اتباع الحق وطاعة أمر الله ربِّ النَّاس كلهم (مَنْ أسلم وَمنْ لم يسلم)، ولأنَّ كلمة (حتَّى) جاءت قيدًا وشرطًا من ربّ النَّاس عدلًا، ولم تأتِ بقرارٍ بشري فالتوقّف عند قيدها، والأخذ بشرطها عدلًا؛ سيكون في مرضاة الله تعالى، ثمَّ في مرضاة من يُعطها عن مقدرة، وكذلك في مرضاة من يأخذها ليعطها، وهكذا ستكون في مرضاة من تُعطى له وهو في حاجة إليها.

إذن: فكلمة (حتَّى) أقرَّت احترام المنهزمين الذين لا شك أنَّ مشاعر التصغير تملأ نفوسهم، وحتى لا تستمر هذه الحالة الانهزاميّة المصغّرة للشأن؛ أقرَّ الدين الإسلامي دفع الجزية لفك هذه التأزُّمات والارتقاء بمن يدفعها إلى مرتبة المواطن بالتمام (له ما له وعليه ما عليه) مع احترام الدّين وتقدير الإنسان الذي لم يخلقه الله عبثًا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}[168].

ولأنَّ الله تعالى قال: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[169]؛ إذن فلا إمكانيَّة للإكراه وتقليل الشَّأن، إلَّا إذا كان هناك من يريد أن يكره النَّاس بغير حق، وأنْ يخالف قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[170]، أي: بما أنَّ مشيئة الله جعلت الإنسان مخيّرًا فيما ليس فيه تسيير، فلماذا تميل

---

[168] المؤمنون: 115.

[169] البقرة: 256.

[170] يونس: 99.

عقول البعض إلى الإكراه وتقليل شأن من خلقه الله في أحسن تقويم؟! بمعنى: لماذا الله يقول: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[171]، وفي المقابل هناك من يخالفه، وكأنَّه مصدر الحُجَّة فيتصرَّف بما يخالف النصّ!.

وعليه فقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} جاءت بغاية عدم استصغار النَّاس؛ ولذا فالله تعالى قال: (صاغرون) ولم يقل (مُستصغَرون) فلو قال: (مستصغَرون) هنا لم يُعطوها إعطاءً بل تؤخذ منهم أخذًا وهم أذلة صاغرون كما جاء في مفهوم الآية الكريمة: {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}[172].

والفرق بين مفهوم (صَاغرُون) في سورة التوبة وسورة النَّمل هو أنَّها في سورة التوبة جاءت: {عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وفي سورة النَّمل جاءت: {أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وبالمقاربة بين المفهومين يتّضح الفارق الكبير بين (عن يدٍ) أي: عن مقدرة وإرادة، وقوله: (أذِلَّةً) أي: عن قهرٍ واستصغارٍ واستحقارٍ.

وعليه: فإنَّ مفهوم (صَاغرون) في سورة النَّمل يدلُّ على تقدير الذين يُعطوا الجزية عن يدٍ (عن مَقدِرة وإرادة) لمن أعطاهم تقديرًا واعترافًا، وهو المنتصر (الدّولة الإسلاميّة) التي جعلتهم على التخيير بين الإسلام أو إعطاء الجزية التي بإعطائها يُمكِّن مَن أعطاها من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات مع نيل الاحترام والتقدير، في الوقت الذي فيه المنتصر بإمكانه أن يُملي شروطًا تُقلِّلُ من شأن المهزوم وتُكرهه على ما لا يُحب. ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم

---

[171] الكهف: 29.

[172] النمل: 37.

(صاغرون) كما جاء في سورة التوبة هم المعترفون بدفعها، وهم الذين بدفعها يتجنَّبون التصغير، وهم الذين عندما يجدون طيب المعاملة تنكسر نفوسهم؛ احترامًا للدِّين وأهله، ومن ثمَّ عندما يأتون ليعطوا الجزية فإنَّ أنفسهم تستشعرُ عظمة المعاملة؛ فتستحي عرفانًا بالفضل، ومن ثمَّ لا سلبيَّة في (صَاغِرُونَ)، بل الإيجابيَّة تملؤها تقديرًا وعرفانًا إلَّا لمن امتنع عن دفعها متأبِّيًا ومتكبِّرًا؛ إذ لا استحياء؛ وذلك لكونه يميل إلى أفعال المقاتلة إفسادًا في الأرض.

إذن: فمفهوم قوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} هو: حتى يعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم راضون مع وافر الاحترام، ومع أنَّه لا إكراه في الدين، فإنَّه لا بدّ وأن تعطى، ولأنَّه لا بدّ وأن تعطى فكان إعطاؤها عن إرادة كفيلًا بنفي الإكراه عنها.

ولأنَّ الحكمة من إعطاء الجزية نيلُ التقدير والاعتراف المتبادلين فإنَّ مُعطيي الجزية عن مقدرة وإرادة إذا كُتِبَ قتالٌ على المسلمين فإنّهم معفون من المشاركة فيه؛ ذلك لأنَّ الدِّين الإسلامي (الرِّسالة الخاتمة) لم يكن دينهم حتى يقاتلوا عنه أو من أجله، وهذه من الفضائل الخيِّرة التي تجعل مِن مُعطِيي الجزية صاغرون أمام هذا العفو العظيم الذي أُقرَّ لهم؛ ولهذا فالتصغير هنا لم يدخل دائرة السَّلبيَّة، ومن ثمَّ فلا تصغير إلَّا لمن يقدم على فعلٍ يؤدّي إلى تقليل شأنه.

كما أنَّ مفهوم قوله: (عَنْ يَدٍ) يستثني من لا يدَ له (لا مقدرة له)، مع استثناء المرأة وكل الأطفال؛ ولهذا لم تؤخذ أبدًا الجزية من هؤلاء في زمن إعطائها؛ فكانت لا تؤخذ إلَّا من القادرين ووفقًا للاستطاعة؛ حيث لا

إكراه، ولا قيد يحدد قيمتها أو مقدارها، ولا زمن، ومن ثمَّ فلا اشتراطات مِن قِبل المنتصر، بل المنهزم بإمكانه أن يستوضح أمره ومستقبله كما استوضح أهل الشَّام من سيدنا أبي عبيدة ابن الجراح بعد أن استجابوا لدفع الجزية بأن يحميهم من الرّوم فَقبِلَ أبو عبيدة شرطهم، ولكن بعد أن استعادت جيوش الرُّوم بقيادة هرقل بلاد الشَّام أرجع لهم أبو عبيدة ما أعطوا من جزية[173].

ومع أنَّ زمن إعطاء الجزية كان زمن الدِّفاع عن الدّين، وليس الدِّفاع عن الدّولة، فقد كان للجزية علاقة بتنظيم إدارة الدّولة وشئونها، فمثلها مثل الزَّكاة والضَّريبة، مع أنَّه لكلٍّ منها حكمة؛ فالحكمة من إعطاء الجزية صون الأديان والأرواح والممتلكات مع الاعتراف المتبادل بين الأنا والآخر، وصون أمن الدّولة، أمَّا الزَّكاة فالحكمة من ورائها تطهير الأموال والممتلكات والأنفس، وهي تؤتى وتؤدَّى فريضة إسلاميَّة، وفي المقابل تدفع الضّريبة؛ كونها من الواجبات الوطنيَّة.

ومن ثمَّ فإعطاء الجزية متمركز على الاعتراف والتقدير المتبادلين، فهي عندما يقول أحد الأطراف: إنَّها حقٌّ لي. يقول الطّرف الثاني: إنَّها واجب عليَّ؛ ولهذا فلا مصغرانيَّة وتقليل شأن في إعطائها، ولا في أخذها، مع أنَّ كفّة الاستحياء عند إعطائها رفيعة، ولا ترجحُ إلَّا إرادة واعترافًا بفضل الحماية والرّعاية والتمكين من ممارسة حقوق المواطنة، أي: لا يمكن أن يقرّ

[173] علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة: ص 72.

الإسلام الاعتراف بدين الغير ويصغّر أهله تحقيرًا وإذلالًا، وبما أنَّ الدّولة الإسلاميّة قبلت بحريّة أداء العبادات فلا يمكن لها أن تقبل بتقليل شأن أهاليها.

أي: كيف يحقُّ لنا أن نستصغر الإنسان ونقلل من شأنه، والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}[174]، قال الله تعميمًا: {بَنِي آدَمَ} ولم يقل تخصيصًا: (المسلمين)، والتكريم هنا جاء بمفهوم التعظيم والتفضيل للعموم، ومن ثمَّ جاء إقرار الجزية قيمة رمزيّة بغاية: (تبادل قيمة الاعتراف والتقدير)، ولحلّ معضلة الإذلال والاستعباد التي كانت في تلك العصور سائدة بأسباب الحروب والاقتتالات، والتي تجاوزها عصرنا بممارسة حقوق المواطنة وأداء واجباتها.

ومع أنَّ لكل عصرٍ معطياته السياسيّة والاقتصاديّة والدِّينيّة والاجتماعيَّة فإنَّ ذلك الزَّمن الذي كانت الجزية فيه تُعطى، كانت العدالة لا ترى شيئًا يُقدَّمُ على قيمة الإنسان إلَّا الدّين؛ ولهذا فالعلاقات بين الدّول به تتأسَّس، وعليه تفترق، أمَّا الاقتصاد الذي أصبح اليوم هو المتغيّر الرَّئيس فلا حرب ولا اقتتال ولا نهضة إلَّا به ومن أجله، ومن ثمَّ فلا قيمة للإنسان إلَّا من بعده.

إذن: وجب علينا أن نفرّق بين عصرٍ رأسُ ماله قيمة الإنسان، وعصرٍ رأس ماله قيمة المال؛ فالعصر الذي كان رأس ماله قيمة الإنسان كانت رسالته تحرير العبيد وتعظيم شأن الإنسان، أمَّا العصر الذي أصبح

---

[174] الإسراء: 70.

رأس ماله تعظيم المال، فإنَّ رسالته لا تزيد عن كونها استصغارَ مَنْ لا رأس مال له.

ومن هنا وجبت المقارنة بين دلالتين، وفقًا لكلمتي: (صاغرون) و(مستصغرون)، فالصَّاغرون هم الذين أعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم متماثلون مع من يدفع الزّكاة في وطنه، ومع أنَّه في ذلك الزّمن كان إعطاء الجزية يعفي عن القتال عن الدين فإنَّه كان لا يعفي عن الدِّفاع والقتال عن الوطن؛ ولذا فلا إمكانيّة للاستصغار، وفي المقابل المستصغرون من قِبَلِ المعظّمين لرأس المال لا خيار لهم إلَّا قبول الاستصغار أمام تعظيم قيمة المال على حساب قيمهم.

النشوز وهمًا

النشوزُ شذوذٌ عن المألوف والمعتاد المرضي؛ يُعكِّر مزاجًا، ويزعجُ ذوقًا، ويهزُّ توَازنًا، وهو خروجٌ عن المستساغِ والمتعارفِ عليه، ومخالفة لما يستحسنه العقل ويفضّله ويرتضيه، وتمرُّدٌ على القيم الحميدة الضَّابطة لتوازن السُّلوك والعلاقات الزَّوجيَّة، قال تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[175].

[175] النساء: 34.

فمع أنَّ كلمة النشوز في هذه الآية جاءت غير محدّدة المفهوم، فإنَّ اللغويين يكادون يجمعون على أنَّها تعني: الارتفاع وما يعلو، ومن هنا نقول: إنْ قبلنا بهذا المعني: ينبغي أنْ نقبله موجبًا؛ ذلك لأنَّه: (الارتفاع وما يعلو)، مع العلم أنَّ مفهوم النشوز فيه من الشذوذ عن القاعدة ما فيه، وفيه من الدّونيَّة والسُّفليَّة ما فيه أكثر.

ولأنَّ السُّفليَّةَ والدُّونيَّةَ لا تَليق بمكارم الأخلاق أوجب الله –تعالى– معالجة هواجس النَّاشزين قبل أن ينشزوا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}، أي: بمجرد أن تستشعروا أيَّها الأزواج خوفًا من هواجس نشوزِ أزواجكم فأسرعوا إليهنَّ بالمواعظ؛ وذلك حيطةً وحذرًا بما يحفظ العلاقات الزّوجيَّة من الفُرقة والضَّياع؛ وتأسّست هذه الآية على الوعظ، بمعنى: (تأسّست على موجبٍ)، وما يؤَسّس على موجبٍ لا ينتهي إلَّا بموجبٍ، وفي المقابل ما يؤسّس على سالبٍ لا ينتهي إلَّا به.

والوعظُ كونه موجبًا لا يكون إلَّا ممن له دراية بالمواعظ الحسنة إصلاحًا واستقامةً، ولا يعظك إلَّا من يهمه أمرك، وهو الذي يفتح لك أبواب النَّصائح والرَّشاد على مصرعيها؛ ليخرجك مما أنت فيه من تأزُّمات، أو ما أنت عليه من مخالفات؛ وبهذا يعد وعظ الزّوج لزوجه إظهارًا لحُسن النيَّة مع وافر الحرص على بقاء العلاقة وسلامتها.

وبما أنَّ الله –تعالى–أمر بوعظ الزّوج زوجته؛ إذن فقد أمر باحترامها وتقديرها وعدم إهانتها، والأخذ بيدها، وعدم التفريط فيها؛ وبهذا جاء

الوعظُ في الآية السَّابقة قاعدة للتعامل الحسن بين الزَّوجين، وتجنبًا للخلافات قبل حدوثها، أي: بمجرد أنّكم خفتم أيُّها الأزواج نشوزًا لزوجاتكم فعظوهنَّ {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ}، ومن هنا وجب الأخذ بأمر الوعظ من كلا الزَّوجين (الزَّوج واعظًا، والزّوجة موعظة)، وفي أمرٍ آخر يمكن أن تكون الزّوجة واعظة والزّوج موعظًا.

ولأنَّ الوعظ ورد من زاوية الخوف حيطةً وحذرًا فلا يمكن أن يكون الخوف سالبًا، أمَّا ما يراه البعض سالبًا فهو الجُبن بعينه، وليس الخوف في ذاته، فالإنسان كلَّما استشعر خطرًا ملأ الخوف نفسه ودفعه إلى قبول المواجهة، أو التجنُّب والتفادي، ومن ثمَّ فمخافة الله موجبة؛ لأنَّ مخافته تستوجب اتقاءه، والخوف من البرد موجبٌ؛ لأنَّه يُمكِّن من أخذ الحيطة له قبل الخروج إليه، والخوف من الإصابة بفيروس كورونا 19 موجبٌ؛ لأنَّه يُوقي من عدم الإصابة به، وهكذا الخوف من النشوز موجبٌ؛ لأنَّه يُجنّب الوقوع فيه فتنة، ومن هنا فالخوف وعي بما يجب، وأخذُ حيطةٍ وحذرٍ يُمكِّن من النجاة، أمَّا الجبناء وحدهم فهم الذين ينكسرون ويقعون في المصايد والأفخاخ.

وعليه: فإنَّ خوف الزّوج من نشوز زوجته موجبٌ لكلا الزّوجين؛ فهو موجبٌ للزّوج؛ كونه في حاجة لبقاء الحياة الزوجيّة مستقرة على المودّة والمحبة، وموجبٌ للزوجة؛ لأنَّه يخرجها من التأزم والضياع والانفلات، ويعيدها للحياة الزوجيّة الآمنة.

إذن: فبمجرد أن يستشعر الزَّوج أنَّ زوجته بدأ يدور في رأسها ما يدور من نشوزٍ؛ عليه بها موعظةً (العودة بها إلى ما يجب، وتذكيرها بمحسِّنات العلاقة الزّوجيّة ومهذبات السُّلوك من فضائل خيِّرة وقيم حميدة)؛ خوفًا وحرصًا عليها، وعلى استمرار العلاقة الزّوجيَّة مستقرة بلا منغِّصات.

قال تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}، في هذه الآية الكريمة جاء النشوز بين مفهومين موجبين: (الخوف، والوعظ) وهذا يعني: لا نشوز مع خوفٍ حذري، ووعظٍ بما يجب قبل حدوث النشوز.

واللافت للانتباه هنا في هذه الآية: ارتباط الوعظ مع الهجر في المضاجع: {فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}؛ وهذا يخالف ما ذهب إليه المفسِّرون بجعلهم الوعظ مرحلة مستقلة بذاتها، ولا علاقة لها بالهجر في المضاجع إلَّا لاحقًا، أمَّا من حيث المفهوم فالوعظ مرتبطٌ بالهجر في المضاجع ارتباط زمان ومكان (كونهما الحادثين في وقتٍ واحد)، فساعة وعظ الزَّوجة لا ينبغي أن تكون أمام مسمع أفراد الأسرة (آباء وأبناء)، بل الخلوة الأخلاقيّة للزّوجين هي مكان الخصوصيَّة الشّرعيَّة (المرقد المشترك)؛ ولهذا فالوعظ والهجر معًا في المضاجع.

ومفهوم قوله: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ} يدلُّ على أنَّه لا هجر للزوجيَّة إلَّا في المضاجع، أي: إنَّه الهجر المقيَّد، وليس بالهجر المفتوح (في المضاجع)، ومن ثمَّ لا إمكانيَّة للعزل والمفارقة الزّوجيَّة ساعة الوعظ والهجر في المضجع؛ ولأنَّ المضاجع جاءت قيدًا على الهجر؛ إذن الهجرُ أصبح هو

الآخر في المضاجع قيدًا مقيَّدًا؛ وذلك من خلال الالتزام بقيود الزّوجيَّة هجرًا لكلا الزّوجين (قيدًا عليهما)، بحيث لا أحدَ منهما يخرج عن ضوابطها الشَّرعيَّة، ومن هنا فالمرقد قيدٌ مكانيٌّ، أمَّا الالتزام بأصول الحياة الزّوجيَّة فقيدٌ أخلاقيٌّ؛ وهذان القيدان هجرٌ للزّوج والزّوجة معًا (قيدٌ عليهما)؛ ومن هنا جاء قوله تعالى: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ} بمعنى: قيِّدوهنَّ مكانًا في (المضاجع التي أمرتكم بها)، وقيدوهنَّ أصولًا أخلاقيَّة بالمواعظ التي تُرضيني وتجمع شملكم وتجبر خواطركم.

ولذا فالله تعالى قال: {وَاهْجُرُوهُنَّ} ولم يقل: (وهاجروهن)؛ ذلك لأنَّ الأُوْلَى تدلُّ على وجوب القيد بالمواعظ (في المضاجع) وجوب بقاءٍ، أمَّا الثَّانية فتدلُّ على وجوب المغادرة وترك المضاجع، ومن هنا يتضح الفارق وتنجلي الحقيقة كما هي وليس وفق رؤية تلتبس المفاهيم فيها.

ولسائل أن يسأل: أين المكان الذي يجمع الزّوج وزوجته ويجعل بينهما كفَّتي الزوجيَّة متساويتان على ميزان العدل دون أنْ تميل كفَّة على حساب كفّة؟ من دون شكّ فإنَّ الإجابة: مكان الجَمع السَّرير (المضجع)؛ ولأنَّه المكان الجامع للزّوجين أمر الله –تعالى–به مكانًا شرعيًّا، وكذلك فهو مكان حلّ الخلافات بين الزّوجين إذا ما حدثت؛ لذا أمر الله بالهجر فيه، ولم يأمر بهجره لأيٍّ منهما {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}؛ ولهذا فالهجر فيه قيد مُلزم بأخلاق ونواميس الزّوجيّة وفقًا لشرع الله؛ ولأنَّه كذلك فلا يليق أن تكون فيه المقاطعة والانعزال والفُرقة.

ولو أراد الله أن يكون الهجر ذا مفهومٍ سالبٍ لقال: (وَاهْجُرُوهُنَّ) دون أن تُلحق كلمة الهجر بكلمة المضاجع؛ ولأنَّه جاء على الإيجابيّة قال: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}؛ وبهذا أصبحت كلمة (الْمَضَاجِعِ) قيدًا للزّوجين، وقيدًا عليهما، ومن هنا فلا حلّ إلَّا في المضاجع (مكان إظهار المحبّة والبوح بها، ومكان الخلاف والتخلُّص منه).

ولذا فمعنى الهجر عند اللُّغويين، على دلالتين مختلفتين:

الأولى، تعني: الترك، والانفصال، والمغادرة، والافتراق، وإن كان في هذا المعنى من الإيجاب ما فيه، ففيه من السّلبيَّة ما هو أكبر.

الثَّانية، تعني: الوثوق، والاتصال، والتقارب، وبلوغ التمام، وفي هذه من الإيجابيَّة ما فيها.

ومن ثمَّ جاءت تفسيرات المفسِّرين لهذه الآية بناء على المعنى الذي فيه من السَّلبيَّة ما فيه، أمَّا نحن فارتأينا الأخذ بالمفهوم الموجب؛ كونه المتطابق مع مفهوم الآية ذات المعطيات والعناصر الموجبة وفقًا للآتي:

1 ـ الخوف في هذه الآية جاء حذرًا وحيطة ولا يكون إلَّا من باب الحرص؛ فالذي يحبُّك هو الذي يخاف عليك، والذي تحبُّه هو الذي يهمّك أمره، فهل يليق بمن يحبُّ أن يهجر حبيبه فُرقةً وانشقاقًا بمجرد ظنٍّ ليس إلَّا، ثمَّ فوق ذلك يمدُّ يده عليه إهانة وضربًا؟

2 ـ جاء في الآية أيضًا أنَّ النشوز لم يحدث بعد، فهو مجرَّد توقُّع، قد يحدث، وقد لا يحدث؛ ولذا لماذا تصدر أحكام الهجر السَّالبة والضَّرب السَّالب على فعل نشوز لم يحدث بعد؟

3 ـ الوعظ: وهو المستمدّ من المواعظ الحسنة الممكِّنة من الاتعاظ وأخذ العبر، وكذلك الحِكم الحسنة الممكِّنة من الانتباه واليقظة والعودة إلى الذاكرة، والوعظ هو كلّ الكلام الحكيم والليّن الذي يُروِّض الشَّاردة ويعيدها إلى ما شردت عنه.

4 ـ الهجر في المضجع، هو: الالتزام والتقيُّد بالأصول الزوجيَّة، وهو الترابط الوثيق، والاتصال، والتقارب والمشاركة في الرأي الخاصّ في مكان الخصوصيَّة الشّرعيّة (الفراش والمرقد).

ومن ثمَّ كيف يُقبل أن تكون المعطيات المنزَّلة من الله –تعالى– موجبة، وتفسيرها البشري سالبٌ بالمعطيات السَّالبة؟!

ولذا فإنَّ هَجرَ الزّوجة لا يزيد عن كونه هجرَ مودَّة (قيدٌ أخلاقيٌّ)؛ ذلك لأنَّ الحياة الزّوجيَّة يهاجر إليها، ولا يهاجر منها؛ فالأبناء عندما يبنون عشّ الزّوجيَّة يهاجرون إليه من منازل آبائهم مودّة وكأنَّهم وُلدوا من جديدٍ، أو بُعثوا بعثًا.

وعليه: فمفهوم قوله تعالى: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ} يدلُّ على هجرهنَّ بالمواعظ تقاربًا ومحبَّةً ومودَّةً ومشاركةً ولا فراقَ، بل لا تباعد؛ ولذا فهو التقارب والوثوق بين الزّوجين اللذين تهجَّرا بالمواعظ قيدًا؛ قال جلَّ جلاله: {نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}[176]؛ إذن فعندما يكون الوعظ والهجر في المضجع هو إظهار حُسن النيَّة من طرف الزَّوج مع وافر الحرص؛ يصبح التقبُّل في نفس الزّوجة قَيدَ تسامحٍ ورغبةٍ.

---

[176] البقرة: 187.

ومن هنا فهجر الزّوجة في المضجع يستوجب من الزّوج أن يتقبَّلها كما هي؛ ليكون الهجر معها بداية من حيث هي (لا كما يجب أن تكون عليه)، أي: عندما تحسُّ الزَّوجة أنَّ زوجها كان مراعيًا للحالة النفسيَّة التي تمر بها، ولم يصدر ضدّها حُكمًا سالبًا، بل تقبَّلها كما هي، ووعظها بما يجب أن توعظ به؛ لا شكّ أنَّها ستشعر بأنَّه قد قيَّدها (هجرها) بما يجب أن تبادله به (هو كما هو)؛ أمَّا ما يجب أن تكون عليه العلاقة الزَّوجيَّة فهو المراد بلوغه هجرًا لا انفلات منه ولا نشوز؛ وهذا الأمر يستوجب حيويَّة تُمكِّن الزَّوجين معًا من بلوغ الغاية ونيل المأمول المشترك أو الفوز به.

أمَّا مفهوم الضَّرب كما جاء في الآية: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} فجاء في سياق الاتصال والترابط الموجب، ولم يأتِ في سياق الاتصال والترابط السَّالب، أي: بما أنَّ الخوف جاء موجبًا، والوعظ موجبًا، والهجر أيضًا موجبًا، فلا إمكانيّة لأن يكون الضَّربُ سالبًا؛ ولهذا يتم الاختلاف مع تفسيرات المفسّرين الذين لم يأخذوا من معنى الضّرب إلَّا سالبه، ونسوا أنَّ اللغة حمَّالة أوجه؛ فلا يليق بأهلها أن يقصروها على معنى واحدٍ، وكأنَّه لا مفهوم آخر لها إلَّا ما اجتمعت السَّلبيّة فيه والإكراه؛ وهذا الأمر جعل تفسيرات المفسّرين لمفهوم كلمة (الضّرب) وكأنَّه خالٍ من الدّلالة الموجبة التي وردت في قواميس اللغة، ومنها:

أنَّ الضَّرب يعني: معرفة البواطن (ضرب الأمور: عرف بواطنها)، وهذا بالتمام ينطبق على مفهوم الضَّرب الذي جاء في هذه الآية الكريمة، أي: بعد الموعظة الحسنة والهجر الحسن في المضجع ينبغي أن يكون الضّرب

معهما في ذات المضجع؛ وهو وجوب معرفة ما هو الكامن في بواطن النفس عند الزَّوجة؛ حتى يتم تجاوزه إصلاحًا عن إرادة ورغبة، وهذه أكبر ضربة في صالح الزّوج عندما يعرف ما في باطن زوجته ويُصْلِحُهُ.

كما أنَّ الضَّرب يعني: إزالة القشور؛ بغاية إظهار ما يختفي تحتها، وكشف لُبِّها كما هو حال حبَّة الأرز تحت قشرتها، وهذا ما ورد في القواميس: (ضرب الأرز: قشَّره وكشف لبّه)؛ وهذا المعنى اللغوي أيضًا ينطبق بالتمام على مفهوم الضّرب الذي جاء في الآية قيد البحث، أي: إنَّ الأمر سيكون ناقصًا إذا قَصُرَ على الوعظ والهجر في المضاجع دون الضّرب في النّفس (التعمُّق فيها)، وتفتيش بواطنها التي جعلتها تكاد أن تنشز، وقد تكون المفاجأة أنْ يكتشف الزّوج بعد المعرفة وتفتيش نفس الزّوجة والتعمُّق في بواطنها أنَّه لا شيء لديها من هذا الأمر، بل كان هناك أمر آخر سببه سوء قراءتها لسُلوك الزَّوج وأفعاله، وهو الذي دفعها إلى ما دفعها إليه، وجعلها على غير توازن، وبالمكاشفة والمصارحة وإظهار البواطن ضُرب بأمر النشوز عرض الحائط وكأنّه شيءٌ لم يكن ولم يحدث.

وكذلك ورد في قواميس اللغة العربيّة: (ضرب الشيء بالشيء: مزجه وخلطه)، وهذا يعني أنَّ الضَّرب الذي جاء منزَّلًا في الآية السَّابقة جاء بغاية الاندماج الذي لا يمكن أن يكون بين البشر إلَّا عن إرادة ورغبة، والتي من أهم وسائله: الوعظ الحسن، والهجر الحسن، والضّرب الحسن، وهذه جميعها

تمزج حرص الزّوجين واتعاظهم في بوتقة الزوجيَّة نشوة ورفعة: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}[177].

وهكذا ورد في قواميس اللغة معنى الضّرب: (ضَربَ: كفَّ وأعرض، وشارك في الأمر)، وهذه من أهم المفاهيم الدَّالة على أنَّ الضّرب في هذه الآية الكريمة جاء بمعنى: بعد أن فعل الوعظ والهجر في المضاجع فعلهما إيجابًا فقد ضُرب كل شيء وأصبح منتهيًا؛ ومن ثمَّ وجب الكفّ عمَّا كان بين الزّوجين من شكوكٍ وظنونٍ وهواجس ومخاوف.

ومن هنا جاءت عمليّة وجوب التمسّك بالزّوجة وإشراكها في إدارة العلاقات الزّوجيَّة وشئونها نُقلةً متطوّرة ومتجدِّدة بعد الوعظ والهجر، أي: بالمنطق بما أنَّ كلّ شيء قد ضُرب إيجابيًّا وانتهى؛ فإذن أصبح التمسّك بالزّوجة ومشاركتها واجبة فلا ينبغي أنْ تغيَّب عمَّا يتعلّق بها من شئون زوجيّة؛ وبذلك تكون النتيجة: (وعظ والتزام بقيد المراقد، وانتهاء ومشاركة).

قال تعالى: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[178]؛ أي: بعد القبول موعظةً وهجرًا في المضاجع؛ حيث النشوز وقد ضُرب مع استجابة الزّوجة طاعة لا إكراه فيها، إذن فلا إمكانيّة للبغي عليها ولا إمكانيَّة لتعالي أحدَ الزّوجين على الآخر، ولا يجب أبدًا؛ إذ لا علو إلَّا لله –تعالى– إنَّه الأعلى على الكل سبحانه جلَّ جلاله.

---

[177] البقرة: 223.

[178] النساء: 34.

ومن هنا يعدُّ الضَّربُ في المضاجع مشاركةً ووعظًا وهجرًا؛ كحال ضرب الوتد في الأرض ثباتًا، والذي كلّما تعمَّق في الأرض ازداد بها تمسُّكًا وازداد البناء رفعةً وعلوًّا، ومن ثمَّ كلما تعمَّق الزَّوجين كلًّا منهما في نفس الآخر وخبُر هواجسها ومخاوفها تجاوزا ما كان بينهما من مخاوف، وتمسَّك كلٌّ منهما بالآخر وتهجَّر به، أي: إنَّ المعاشرة والمشاركة قد ضَرَبَتِ الجفاء ولا أحد أعلى من الآخر، وهنا فكلمة {واضربوهنَّ} تعني: (وتمسَّكوا بهنَّ)؛ ولذا فإنْ شعرت الزّوجة أنَّ زوجها قد قيَّدها هجرًا، فهي قادرة على أن تهجره قيدًا بما هو أعظم.

ولأنَّه من الحُجَّة تولد الحُجَّة جاءت مفاهيم الآية كلُّها موجبة: (الخوف موجبٌ، والوعظ موجبٌ، والهجر في المضاجع موجبٌ، والضَّرب موجبٌ، وعدم البغي وعدم التعالي موجبٌ)، أي: جاء الخوف من أجل بلوغ ما يطمئن النَّفس، وجاء الوعظ بما يرسّخ الثّقة المتبادلة بين الزّوجين، وجاءت المراقد قيدًا ملزمًا لعدم المفارقة الزّوجيَّة، وجاء مفهوم الضّرب انتهاء عمَّا سبق، وتمسُّكًا بما يجب، ومشاركةً لمن يجب، وجاء عدم البغي وعدم التعالي تواضعًا بين الزّوجين قيمًا وفضائلَ.

ومن ثمَّ فمفهوم الضّرب هنا قيمي أخلاقي (ضَربُ مكاشفةٍ ومصارحةٍ وتمسُّكٍ ومشاركةٍ وانتهاءٍ)، وهذه أكبر ضربة تواجه الزَّوجين، وبخاصّة عندما يعرف كلًّا منهما أنَّ أوراقه المخبأة قد كُشفت أمام الآخر، ومن ثمَّ ليس له من بدٍّ إلَّا فرزها وإصلاحها وضرب عرض الحائط بالمشوه منها، مع وجود أملٍ في نفس كلٍّ منهما أن يظل كلّ شيءٍ بينهما مُهجَّرًا

في المضاجع، ولا يخرج عنها لأحدٍ وإن كان قريبًا (الأم والأب والأخوة، ومن يكون).

وأيضًا ورد مفهوم الضَّرب في القواميس اللغويَّة بمعنى: (ضرب الشَّريك على يد شريكه: عقد معه عهدًا)؛ ولذا فإنْ كانت ضربة على يد الشَّريك تعني: الموافقة والتأكيد على ما تمَّ التفاهم والاتفاق عليه، فكيف لا تكون هي الضّربة التي يجب أن يؤخذ بها بين الزّوج وزوجته بعد أن كشف كلٌّ منهما للآخر أوراقه بغاية تفاهمٍ يرسّخ لمرحلة جديدة تكون أكثر ثقة من ذي قبل؛ ولهذا فالضّرب بعد الوعظ والهجر في المضاجع يفتح صفحة جديدة لميثاق أخلاقي بين الزّوجين على عدم النشوز من كليهما، وهذه الضّربة تعد الضّربة الرَّابحة للطّرفين.

إذن (وأضربوهنَّ)، بمعنى: إذا أردتم إصلاحًا فلا تقفوا عند حدود الوعظ والهجر في المضاجع، بل تجاوزوه ضربًا في المضاجع، أي: (تعمّقوا في نفوسهنَّ وهنَّ في المضاجع) إلى أنْ تتمكَّنوا منهنَّ معرفة، وتكتشفوا بواطن قلوبهنَّ، ومعرفة الأسرار الكامنة وراء تفكيرهنّ نشوزًا، ومن هنا فالضّرب في المضاجع مثل الضّرب في الأرض (التعمّق في بواطنها حتى يتمّ اكتشاف كنوزها)، ومع ذلك فلا ينبغي الوقوف عند اكتشاف كنوز الأرض، بل يجب استثمارها نهضةً ورفعةً؛ وذلك بما يعود على الأسرة والمجتمع من منافع ومكاسب تؤمّن لهم الحياة الجامعة وتطمئن نفوسهم، وترتقي بهم تحضُّرًا ومعرفةً تمكِّنهم من التمييز بين ما يجب الإقدام عليه والتمسُّك به، وما يجب الضّرب عنه والكفّ.

وفي المقابل: لو كان الضّرب بالمفهوم السَّلبي كما أقرَّه البعض أو قرأه، لكانت الآية على مفهوم: (واضربوهنَّ ضربًا)، التي تلزم ضربهنَّ إلزامًا؛ بسبب الإتيان بالمفعول المطلق، ولكنَّها لم تأتِ على هذا المفهوم، بل جاءت (وَاضْرِبُوهُنَّ) دون أنْ تُلحق بكلمة (ضربًا)، ومن هنا فلا إلزام، ولا إصرار على الضّرب المحسوس، ولو كان بسواك، قال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[179]، وقال: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[180]، وقال: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}[181].

وعليه: فمفهوم الضّرب في الآية: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} ورد بغاية استمرار العلاقة مع الزّوجة وليس بغاية قطعها، وجاء النصُّ موجَّهًا للزّوج ولم يوجّه للزّوجة، أي: إنَّ النَّصَّ قد وضع واجبات على الزّوج تجاه إصلاح الزَّوجة في حالة ما إذا استشعر منها نشوزًا؛ (فهو الخائف من نشوزها، وهو الواعظ لها، وهو المكلّف بهجرها وضربها، وعدم البغي عليها ولا يعلو أحدٌ على الآخر)؛ إذ لا علو إلَّا لله: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[182].

لذا فكل هذه تعدُّ قيودًا على الزّوج، وليست بقيودٍ على الزَّوجة؛ فالزّوج ليس له بدٌّ إلَّا الأخذ بها والالتزام؛ طاعة لأمر الله؛ وإن خالف فقد عصى أمر ربّه تعالى؛ وفي مقابل هذه الواجبات التي ألقيت على الزَّوج هناك

---

[179] الكهف: 29.

[180] يونس: 99.

[181] الطلاق: 2.

[182] النساء: 34.

واجب على الزَّوجة؛ ألا وهو طاعة زوجها ومُرَاضاته في مرضاة الله؛ ومن ثمَّ لا ينبغي أن يَقدم الأزواج على ما من شأنه أن يؤدّي إلى الطَّلاق بمجرَّد استشعارهم خوفًا من نشوز زوجاتهم؛ ذلك لأنَّ الطَّلاق حلٌ لمشكلة وليس بمشكلة في ذاته؛ أي: إذا لم تحدث الاستجابة من الزّوجين وفقًا لما تمَّ تبيانه ففرص الاحتكام لا زالت مفتوحة أمام الحكماء من كلا الطَّرفين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}[183].

ولأنَّ أمر النعت بالنشوز أو ظنه ليس هينًا جاءت الواجبات كُلُّها على عاتق من نُعَتَ به ألا وهو (الزَّوج)؛ ولهذا لا وجوب للطلاق أبدًا؛ ومن يتخذه ذريعة لمجرد الخوف من النشوز قبل حدوثه فقد خالف أمر الله وعصاه؛ ولذلك جعل الله من الخوف أخذ حيطة، وأوجب الوعظ إيقاظًا للذاكرة وأخذَ عِبَرٍ، وجعل الهجر في المضاجع؛ تماسكًا وعدم تفريط ورابطة بين الأزواج عُراها لا تنفصم؛ ولهذا قال تعالى: {وَاهْجُرُوهُنَّ} ولم يقل: (وهاجروهنَّ)، ومن ثمَّ أصبح الضَّرب تحصينًا للزّوجةِ من الضّياع والفراغ اللذين إذا ما ألمَّ بها قد يؤدّيان إلى نشوزها، كما أوجب عدم البغي عليها من بعد الطَّاعة؛ إذ لا مظالم.

وباستقراء هذه المتغيّرات الخمسة يلاحظ أنَّ جميعها وردت موجبة، ولا سلبيّة تلاحقها: (الخوف، والوعظ، والهجر في المضاجع، والضرب، وعدم البغي) كلُّها وردت بغاية استمرار العلاقات الزّوجيَّة وسلامتها من الضياع؛ أي: لماذا الخوف؟ ولماذا الوعظ؟ ولماذا الهجر في المضاجع؟ ولماذا

[183] النساء: 35.

الضرب؟ ولماذا عدم البغي وعدم التعالي؟ كلّها من أجل التخلُّص من المخيف واستمرار العلاقات الزّوجيَّة آمنة.

إذن: لا يمكن أن يكون فعل الضّرب موجبًا ما لم يكن فاعله ومفعوله موجبين، أي: إذا كان الزَّوجُ طائعًا لأمر الله فلا بدّ أن يكون خائفًا على زوجته، ويكون لها واعظًا وهاجرًا في المضجع، وضاربًا عليها حصنًا من الرِّعاية والعناية؛ من أجل حياة زوجية خالية من الهواجس والمخاوف؛ ولهذا فمفهوم واضربوهنَّ: (وحصِّنوُهنَّ بكم)؛ ذلك لأنَّ الزَّوجة لا تُحصّن إلَّا بزوجها فإنْ كان لها حصنًا مانعًا كانت له حصنًا منيعًا، أي: إذا ضرب الزّوج حصنه على زوجته ضربت زوجته حصنها عليه، ومن ثمَّ فلا فرصة للنشوز.

ولأنَّ مفهوم الضَّرب ورد بدلالة التَّحصين فقد جاء منسجمًا مع مفاهيم الخوف والوعظ والهجر في المضاجع؛ فعلى سبيل المثال: لو لم نخف من الفيروسات ما بحثنا عن أمصالٍ تُحصّن عن الإصابة بها، ولو لم يحصّن الوعظ عن الانفلات والانحراف ما أمر الله به، وهكذا يحصّن الهجر في المضاجع عن المهاجرة عنها، وكذلك بالتمام عندما يضرب الزَّوج حصنه على زوجته (يتحصّن بها سندًا وتتحصَّن به سندًا)، وفي المقابل إذا أهملها ولم يضربها بحصن الرّعاية والاهتمام فلا استغراب إن نشزت.

ومع أنَّ مفهوم الضّرب عند عموم النَّاس سالبٌ فنحن نرى كل كلمات الضّرب التي أمر الله بها في القرآن الكريم ذات مفاهيم ودلائل ومعانٍ موجبة دون أيّ استثناء؛ قال تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا

اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}[184]. هنا جاء مفهوم الضّرب وفعله ومفعوله موجبات؛ إذ لا سلبيَّة، أي: إنَّ تنفيذ فعل الضّرب للحجر لا ألم ولا مواجع فيه من قبل الفاعل (موسى عليه الصَّلاة والسَّلام)؛ لأنَّ الحجر لا يشعر بالضّرب، وكذلك كان الفعل المترتّب على الضرب موجبًا وهو انفجار العيون {فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}، وكذلك كان المفعول موجبًا؛ ليروي الماء ظمأً {اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}.

ولأنَّ الله –تعالى–لا يأمر بسالبٍ؛ قال: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[185]، ضَربُ البحر بالعصا ليس كما يظنّه البعض وكأنَّه ضربُ دابَّة، بل مجرَّد الإيماء بها والإشارة إلى الاتجاه المراد عبوره يكفي لانفلاق البحر، أو انبجاس الماء من الحجر أو انفجاره؛ ولأنَّ فعل الضرب هنا متعلّق بالبحر، وضَربُ البحرِ لا مواجع ولا ألم فيه كان الفاعل والفعل والمفعول موجبات مرغوبة ولا سلبيّة فيها.

ولذا فالضّرب في معظمه خالٍ ممّا يؤلم، سواء أكان ضربُ مُثُلٍ، أم ضربٌ في الأرض، أم في سبيل الله، أم ضربُ حجر، أم بحر؛ ولهذا ينبغي أنْ يؤخذ مفهوم الضّرب بعمومه وشموليَّته من خلال النصّ أو الآية المنزَّلة، ومن ثمَّ إذا قَصُرَ مفهومه على معنى كلمة (ضرب) منفردة؛ لأظهر للكلمة معنى يعاكسها ويخالفها دلالةً ومفهومًا.

---

[184] البقرة: 60.

[185] الشعراء: 63.

وعليه: فأين أولئك الضّربة من هذه الآيات الكريمة التي أمر الله بها؛ ثمَّ ألا يكون الضَّرب من أكبر أعمال الإكراه واحتقار الآدميَّة الإنسانيَّة إذا ما وظّف سلبيّة؟ ثمَّ إذا ضُربت الزَّوجة بما هو مُهين، ألا يعني ذلك أنَّها ستقاضيك أمام الله –تعالى–يوم لا ضرب ينفعك، وتقاضيك أمام القوانين والشَّرائع المحرّمة للضّرب الذي مُنع حتى عن الحيوانات؟! وكذلك كيف للإنسان أن ينام آمنًا مطمئنًا مع مَنْ ضربه كرهًا؟! وكيف ترى نفسك أمام أبنائك –إنْ كان لك أبناء–وأنت قد ضربت أمَّهم أمام أعينهم ضربًا؟! وكيف ستكون العلاقة الزّوجيَّة وعنصرها الحاسم للأمر الضّرب الشوارعي؟! هل ستكون أسرة قادرة على ضبط أبنائها على القيم الحميدة، أم إنَّها ستعتمد في تربيتها على الشّوارع؟

وإذا أخذنا بالحديث: "مُروا أولادكم بالصّلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع"[186]، فهنا جاء مفهوم كلمة (ضرب) موجبًا أيضًا؛ فاضربوهم عليها معناها: عوّدوهم على عدم فراقها أو عدم مفارقتها، ووثِّقوا علاقتهم بها؛ وشاركوهم الصَّلاة في أوقاتها؛ لتكون أمامهم فرص التعلُّم جنبًا إلى جنبٍ مع فرص ترسيخ الإيمان طاعة لله وأمره؛ ولذا فلا إكراه في الدين، ومن يرى غير ذلك لا يزيد أمره عن كونه واهمًا ليس إلَّا.

وهنا جاء فعل الإلزام متعلّقًا بالآباء وليس بالأبناء؛ لذلك فإنَّ تعليم الأبناء وتعويدهم على ملازمة الصَّلاة واجب على الآباء وأولياء الأمور؛ ومن

---

[186] رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (2/ 554).

ثمَّ ينبغي أن يجعلوا أبناءهم من سنّ العاشرة ملازمين لهم أوقات الصَّلاة كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ حتى يتعوّدوا عليها ويتمسّكوا بها ويلتزموها؛ كونها من المعتقدات التي يُضرب عليها، بمعنى: من ضرب على الشّيء شبَّ عليه وتجذَّر كما تتجذَّر الأشجار ضربًا في الأرض لترتفع جذوعها وتعلو، ومن ثمَّ ينشئُ الأبناء على الصَّلاة تنشئة بها تمارس من قِبلهم عن إرادة ورغبة، وهم بها متمسِّكون معتقدًا ضاربًا في نفوسهم إيمانًا.

ولأنَّه لا ضرب سلبيّ للأبناء على الصَّلاة جاء الحديث بنصِّ: (مُروا أولادكم بالصّلاة) ولم يأتِ بالنَّص: (وأمروا أولادكم بالصَّلاة)؛ وللتمييز بين مفهوميهما أقول: الأولى جاءت مخفَّفة؛ كونها الدَّالة على اللِّين، أمَّا الثَّانية فلا تكون إلَّا وأوجه التشدُّد والقسوة من بعدها آتية (لاحقة عليها)، ومن ثمَّ لو كان الحديث بالنّصِّ: (وأُمروا أولادكم)؛ لكان فعل الضّرب المترتّب عليها (ضربًا مادّيًّا) وهذا ما تفاداه الحديث بحذف حرف الهمزة (أ) والإتيان بكلمة (مروا) من دون حرف الهمزة، مع العلم أنَّ أصل الكلمة (أأمروا) ولكن هنا حُذف حرف الهمزة (أ) بغاية عدم الأخذ بالأفعال المترتّبة على كلمة (أمروا) التي تستلزمُ تشدُّدًا وقسوةً وسلبيَّةً، أي: جاء الحديث مخفّفًا؛ حتى لا يذهب المفسِّرون وهمًا إلى الأخذ بالضّرب العقابي؛ وذلك حرصًا على ترسيخ أفعال الترغيب التي تُمكِّن الأبناء من الصّلاة محبّة وإرادة، ومن هنا دلَّ الضَّرب في هذا الحديث على معنى رغّبوهم على الصَّلاة، ولا تُكرِهوهم عليها.

ومع أنَّ البعض قد يقول: إنَّ هذا الحديث ليس بالصّحيح فإنَّه لا يستطيع أن يقول: إنَّه ليس بحسنٍ، ومع العلم أنَّ صياغة هذا الحديث فيها من المغايرات ما فيها.

وعلى كلّ الأوجه فإنَّ الضّرب الذي ورد في قوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} جاء مفهومه موجبًا ولا سلبيَّة تلحقه، وهكذا جاء مفهوم الضّرب في الحديث الحسن موجبًا ولا سلبيّة تلحقه، ومن ثمَّ فلمْ يبق أمام الواهمين إلَّا كسر أوهامهم بأنَّ الضَّرب لا يكون إلَّا على الإكراه سلبيَّة وشدَّةً وإيذاءً وقسوةً.

ومن هنا فإنَّ مفهوم كلمة: (واضربوهنَّ) ورد بمعنى: وحصِّنوهنَّ، واندمجوا فيهنَّ اندماجًا لا يكون من بعده شيءٌ مخفيٌّ، وتمسَّكوا بهنَّ؛ إذ لا نشوز من بعد أنْ يتحصنَّ بكم مودة.

وعليه: فإنَّ ستَّة متغيِّرات رئيسة تمركزت عليها مفاهيم الآية 34 من سورة النساء: (الخوف، والوعظ، والهجر في المضاجع، والضَّرب، وعدم البغي من بعد الطَّاعة، وعدم الاستعلاء) وبقراءة كلّ متغيّر من هذه المتغيرات الستة والتمعُّن في مفهومه نجده متماثلًا مع مفاهيم المتغيرات الأخرى.

أي: لقد جاء مفهوم الخوف بمعنى أخذ الحيطة والحذر، وكذلك جاء مفهوم الوعظ بدلالة أخذِ الحيطة والحذر، وهكذا جاء مفهوم الهجر أخذ حيطة وحذر، وأيضًا جاء مفهوم الضّرب بغاية الحيطة والحذر، وكذلك ورد مفهوم عدم البغي أخذ حيطة وحذر، وبالتمام جاء مفهوم عدم

الاستعلاء أخذ حيطة وحذر؛ ومن هنا فكلّ الدلائل موجبة، ولا وجود لوهمٍ ودليلٍ سالبٍ.

وإضافة إلى ما سبق فإنَّ كلّ مفهوم من المفاهيم الستةِ جاء قيدًا على بقيّة المفاهيم، وبهذا يعد الخوف قيدًا عليها كلها (كلها بأسباب الخوف حيطة وحذرًا) كما جاء الوعظ أيضًا قيدًا على الخوف {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ}، أي: بما أنكم تخافون نشوزًا؛ إذن ليس لكم إلَّا الوعظ (وهذا قيد لا مفرَّ من الالتزام به)، وكذلك جاء الهجر في المضاجع قيد خوفٍ ووعظٍ، وهكذا بالتمام جاء الضَّرب قيد حرص وحيطة وحذر على الهجر والوعظ والخوف؛ أي: إنَّ الضرب كونه تحصيل حاصل الحرص والحيطة والحذر فلا يكون إلَّا من جنسها (حرصًا وحيطةً وحذرًا)؛ ولهذا فاضربوهن وردت بمعنى: (وحصّنوهنَّ بكم تحصينًا)، وكذلك جاء مفهوم عدم البغي، وعدم التعالي من جنس المفاهيم الأربعة السَّابقة قيدَ تواضعٍ وحرصٍ وحيطةٍ وحذرٍ.

وعليه:

فإنَّ مفهوم كلمة الضّرب ورد في القرآن الكريم على كلِّ الأوجه موجبًا؛ وذلك لترسيخ فضيلة خيّرة وقيمة حميدة، وليكسر وهم بغيٍ، أو تعالٍ بغير حقٍّ، ولِكسر ما يُعبد من دون اللهِ من معبودٍ؛ كما فعل سيّدنا إبراهيم –عليه السَّلام– بتلك الأصنام؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}[187]، ومع أنَّ كلمة اليمين تدلُّ على معانٍ كثيرة فإنَّ

[187] الصافات: 73.

مفاهيمها تؤكّد على كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدِّي إلى موجبٍ؛ ولهذا تيمّنَ النّبيُّ إبراهيم –عليه السَّلام– بما يؤكِّد واحديَّة الله –تعالى– فضرب الأوثان فكسَّرها؛ فراغ (فمال) على الأصنام ضربًا بداية من اليمين إحصاء حتى خَلُصَ منها دون أن يستثني صنمًا.

ومن هنا حدث فعل الضّرب؛ لكسر سالبٍ بفعلٍ موجبًا، وهو كسر ما لم يشعر بالضّرب (الأصنام) بيدي إبراهيم الذي يشعر بسلبيّة نفسه إن لم يقدِمْ على تحطيم الأصنام التي تُعبد من دون الله: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ}[188]؛ وهكذا هي العلاقة في حالة تضادٍّ بين أفعال حقٍّ وأفعال باطلٍ، وتلك هي العلاقة بين الأفعال السَّالبة والأفعال الموجبة.

ولأنَّ القاعدة تقول:

. إنَّ الله لا يأمر بظلمٍ: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[189].

. إنَّ الله لا يأمر بالعدوان: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[190].

. إنَّ الله لا يأمر بالقتل ظلمًا: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}[191].

---

[188] محمَّد: 3.

[189] الطلاق: 1.

[190] البقرة: 190.

[191] الإسراء: 33.

وعليه: فالقاعدة تقول: إنَّ الله لا يأمر بسالبٍ أبدًا: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[192]؛ ولهذا يُعد الضَّربُ الحسيُّ للزَّوجة سيئة؛ لأنَّه لا يتم إلَّا كرهًا في الوقت الذي قال فيه تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[193]، ولا يكون إلَّا لتقليل شأنٍ مع عدم التقدير لما أمر الله به: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}[194].

أمَّا ما جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند حسن عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي المضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ، فَلَا يُوَطِّئْنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ، وَطَعَامِهِنَّ".[195]

من مفاهيم هذا الحديث ما يتطابق مع الآية: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)؛ وذلك كما جاء في نصّه: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا)، ومنها ما يتطابق مع غيرها ولا يتطابق معها كما جاء في نصِّ الحديث: (إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) فالحديث هنا

---

[192] النساء: 79.

[193] البقرة: 256.

[194] البقرة: 187.

[195] ابن ماجه 1851.

يؤكّد على فعلّ ارتكاب الفاحشة التي إن حدثت (فَإِنْ فَعَلْنَ) وجب اتخاذ الفعل المناسب لها (للفاحشة) سواء أكانت الفاحشة قولًا أم فعلًا، ومع ذلك فمن عفى وأصلح فأجره على الله، أمَّا الآية: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ) فتحذّر من ارتكاب السُّلوك الافتراضي؛ كونه لم يقع بعد {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ} أي: لمجرد الخوف ليس إلَّا، ومن ثمَّ فالفرق كبير بين خوفٍ فيه شكٌّ وظنٍ وفعلٍ فيه فاحشة إذا ما وقعت أو حدثت حدثت التأزُّمات معها.

وعليه: ينبغي أن نميّز بين مفهومين:

المفهوم الأوَّل: الضّرب المبرَّح: وهو فعل الضّرب في ذاته؛ كونه فعل بيّنٌ، أي: إنَّ فعل الضّرب مبرَّحًا ولا إمكانيَّة لإخفائه، وفعل الضّرب لا يكون إلّا بالأيدي، وضرب الأيدي (مبرَّحًا ظاهر)، ولا بدَّ أن يترك أثرًا سواء أكان على البدن أم في النفس، وكلاهما تم استثناؤه في هذا الحديث بنصه: (غير مبرّحٍ)، ومن ثمَّ لا ضرب غير مبرّحٍ إلَّا ضرب المواعظ، وأيّ ضرب غير ضرب المواعظ هو ضرب مبرَّح.

إذن: مهما كان الضّرب فهو مبرّحٌ؛ ولهذا حرص الحديث على أنْ ينصّ على عدم التبرّح به، أي: عدم الالتجاء إلى الضّرب الحسّي مطلقًا {اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا} فالنساء لا يُضْرَبْنَ إلّا وعظًا، وهذا الأمر يكشف الأذى عنهنَّ ويزيله كما جاء في اللغة: (برَّح الله عنه: أزال عنه الشدّة، أو هوّن عليه أو عليها)، ومن هنا كُرِّمت النساء وعُظِّم شأنهنَّ بما وصّى به الرّسُول –عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ– في خطبة الوداع: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا).

وتقول القواميس اللغويَّة: (أبرح صاحبه بمعنى: كرّمه وعظّمه)، وفي اللغة المبارحة: إظهار المكاشفة والمصارحة، أي: بارح صاحبه: كاشفه باليسر وليس بالكره، وهذه تتطابق مع مفهوم: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا)، ومفهوم (وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ)؛ ولهذا جاء استوصاء الرّسول عليه الصَّلاة والسَّلام باستثناء الضّرب المبرّح من الضّرب بالمواعظ؛ ومن ثمَّ يجب أن نميّز بين الضّرب المبرّح وهو المستثنى والمنهي عنه، والضّرب الذي ينبغي الأخذ به اتعاظًا حتى تكون الحياة الزوجيّة معاشرة بالمعروف؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[196].

المفهوم الثّاني: الضَّرب المؤذي: وهو الضّرب الذي يترك أثرًا بيّنًا بغاية الانتقام العمدي والتحقير وتقليل الشّأن مع شدّةٍ وغضبٍ، أو نتيجة حماقة، وهذا لا يليق بالآدميَّة؛ ومن ثمَّ فالضّرب المؤذي لم يكن الضّرب في ذاته، بل الإيذاء هو الفعل المقصود من وراء الضّرب.

وعن مُعَاوِيَةَ بنِ حَيْدَةَ قَالَ: قلتُ: يَا رَسُول اللَّه، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ :أَن تُطْعمَها إِذَا طَعِمْتَ، وتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلا تَضْربِ الْوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إِلا في الْبَيْتِ [197]".

ولأنَّ تفسير المعلومة يرتبط بالمفسّر ويتأثّر به رأيًا وثقافةً ومعرفةً، فهو يبعد عن معرفة الحقيقة، وهذا ما حصل مع آراء بعض المفسّرين، وفي المقابل

---

[196] النساء: 19.

[197] أخرجه الترمذي، أبواب الرضاع عن رسول الله، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (3/ 458)، برقم: (1162)، وصححه الألباني، في السلسلة الصحيحة (1/ 573)، برقم (284).

الأخذ بقواعد البحث العلمي يُمكِّن من التحليل وبلوغ النتيجة ومعرفتها موضوعيًّا؛ ولهذا فتحليل النتيجة يُمكّن من معرفة الحقيقة وتقديمها كما هي دون تزييف ولا تحريف، أمَّا تفسير المعلومة قبل أن تُحلل فلا يُمكِّن من بلوغ النتيجة بقدر ما يعرض وجهة نظر المفسّر وهذه علّة؛ ولأنَّها علّة تجاوزناها باتباع خطوات البحث العلمي والتحليل العلمي؛ تفاديًا للوقوع في خنادق الأشواك التي وقع فيها كثير من المفسّرين ولعلّهم لا يدرون.

وإذا أخذنا بما ورد في هذا الحديث الحسن وعلى وجه الخصوص: (وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إِلا فِي الْبَيْتِ) نلاحظ أنَّ النهي جاء من بعد النهي متواصلًا متتابعًا؛ ليؤكِّد على أهميَّة إقرار عدم فعل الضّرب، وعدم التقبيح، ولا هجر إلَّا في المراقد، وقوله: (وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ) إنّه التحذير من ضرب الوجه؛ لأنَّ ضرب الوجه هو ضرب الإنسان كاملًا، ومن ثمَّ فعدم ضرب الوجه يدلُّ على عدم الاعتداء على القيمة الإنسانية التي لا وجاهة لها إلّا بالوجوه التي تستحي بالوعظ ولا تستحي بغيره: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}[198] فالوجوه هنا تعني: الشّخوص؛ ذلك لأنَّه لا وجوه مستقلة عن شخوصها إلّا في حالة ما إذا قُطعت الرُّؤوس، والتي إذا ما قُطعت فلا ضرب مبرحًا من بعدها ولا ضرب بالمواعظ.

إذن: فلا مبرر لتفسير المعلومة قبل بلوغ النتيجة التي تُرسّخ كرامة الإنسان وقيمته التي خُلق عليها في أحسن تقويم (وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ) الذي من دونه لا وجود لقيمة الإنسان وكرامته أبدًا؛ وهذا لا يدلُّ على أنَّه لا قيمة لبقيَّة أعضاء الإنسان التي خُلق عليها في أحسن تقويم، بل يدلُّ على

---

[198] آل عمران: 106.

أنَّ الإنسان لا ينبغي الاستهانة بقيمته ويضرب؛ ولهذا جاء عدم ضرب الزّوجة إلَّا وعظًا وهجرًا في المراقد.

ولأنَّ فعل الضّرب هو الضّرب بذاته ولا شيء غيره، فمن هنا فلا وجود لضربٍ متوسطٍ وضربٍ شديدٍ كما فسّر البعض؛ ذلك لأنَّ الشّدة والتّوسط لا تتعلقان إلَّا بالقوّة المستخدمة عنفًا وكرهًا، وهذه ليست بالضّرب؛ حتى وإن استمدّ الضّرب حيويّته منها؛ فالضّرب شيء والقوّة شيء آخر، ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين هذا وذاك، وأنْ نقبل بالحوار والاختلاف الذي يُمكّن من المعرفة الواعية، والإيمان بالله تعالى، وبما أرسل من أنبياء ورُسُل، وبما أمر به ونهى عنه، ولا إكراه.

أمَّا مَن يقول: (أين القوامة) التي تصدّرت آية النشوز؟ فأقول: ما قاله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[199]، فالقوامة وفقًا لمفهوم هذه الآية الكريمة متصلة بالفضيلة الخيِّرة؛ فمن كان عليها كان مفضّلًا ومن حاد عنها فلا تفضيل له، أي: يستوي الرِّجال والنساء في الأخذ بما هو مُفضل عند الله تعالى؛ فعندما يتقدّم الرِّجال بالفضائل الخيّرة على النساء يتميّزون بالقوامة وبها يتّصفون ويتصدّرون، وعندما يتأخَّرون عنها ويتخلّفون تتقدّم النساء بها؛ فتتقدّم على الرّجال فضيلة خيّرة وقوامة، وهكذا سيكون حال قوامة من ينفق من أمواله في مرضاة الله.

[199] النساء: 34.

والقوامة هي تَحَمُّلُ أعباء المسئوليَّة في دائرة الاتجاه بين (الأنا والغير)؛ فمن حملها وتحمَّل أعباءها كانت له القوامة، ومن تخلّى عنها لا قوامة له في ذلك، ومن هنا تأتي قيمة التفضيل وتلتصق بمن بيده القوامة، أمَّا قوله: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}[200] فهي تعني بالتمام: أنَّ الأنثى ليست كالذكر ولكلٍ قوامه وفقًا للدور الذي يلعبه موجبًا تجاه الآخر.

ولأنَّ الضّرب ورد في الحديث سابقًا على عدم التقبيح فهو الأقل وجعًا على سُلّم المواجع المؤلمة للإنسان وقيمته؛ وذلك لأنَّ التقبيح أشدُّ وطأة على النفس من الضّرب (وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إِلا فِي الْبَيْتِ)، ومن هنا فلا وعظ ولا هجر ولا ضرب ولا تقبيح إلّا في المراقد، وكلّها جاءت بغاية الإصلاح ودًّا وليس بغاية الفُرقة كرهًا.

ولأنَّ الزّوجة مقدّرة من الله تعالى؛ فقال بغاية رفعة شأنها: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً}[201]، وجاء التنزيل بقوله: (فاجلدوهم) ولم يأتِ بقوله: (فأضربوهم)، ومن هنا علينا أن نميّز بين الجلد الذي لا يكون إلَّا محسوسًا؛ حيث لا لبس في ذلك، والضّرب الذي لا يكون إلَّا على الدّلالة (دلالة المفهوم) المستهدف إصلاحًا أو حلًّا، أو مواجهة مع قتلة معتدين.

ولذا فقواعد جمع الشَّمل وجبر الخواطر كما هو الحال بين الزّوجين تختلف عن قواعد الاقتتال والعدوان؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

---

[200] آل عمران: 36.

[201] النور: 4.

الظَّالِمِينَ}[202]، أي: فمن يأتي إليكم معتديًا ليقتلكم فيما أنتم عليه من حقٍّ؛ فليس لكم إلَّا مقاتلته؛ ولهذا يعدُّ هذا الضّربُ من القتال موجبًا؛ كونه يصون كرامةً، ودينًا، ووطنًا؛ ومن ثمَّ: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}[203]، وتعني كلمة (ضرب الرِّقاب) التمكّن منها وإصابتها؛ لأنَّها أدقُّ مكانٍ لتنفيذ فعل القتل في القتلة؛ وذلك حتى لا يتاح لهم المزيد من فرص القتل ظلمًا وعدوانًا، ومع أنَّ المسلمين لا يحبُّون القتال، بل يكرهونه؛ فَإنَّه إذا ما كتب عليهم لا يعدّونه إلَّا من أجل نيل الحياة: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}[204].

الكفرُ مفهومًا ودلالةً

لم يكن مفهوم الكفر كما ارتأه البعض على معكوس مفهوم الإيمان بالتمام، وكأنَّ معكوس الإيمان وحده المبيّن لمفهوم الكفر والدّال عليه، فكما أنَّ للإيمان مفهومًا به يُفهم ويُميّز وضوحًا دون الالتجاء إلى استدعاء معكوس مفهومه فكذلك للكفر مفهومٌ به يُميّز دون أن يرتبط بمفهوم الإيمان، وكأنَّه ليس للكفر مفهومٌ وبه يتّضح ويُميَّز؛ ومن هنا فلا يكون مفهوم المؤمن والمسلم في مقابل مفهوم الكافر وتضاده أبدًا؛ فأهل الأديان السّماويّة جميعهم مسلمون؛ يؤمنون بالله –تعالى– وإن أشرك منهم من أشرك بما أشرك أو

---

[202] البقرة: 193.

[203] محمَّد: 4.

[204] البقرة: 216.

كفر، ومن ثمَّ فلا يليق بنا أن نقول: إنَّ مفهوم المؤمن أو المسلم يعني: معكوس مفهوم الكافر؛ ذلك لأنَّ لكلٍّ مفهومه ودلالته ومعناه، وهذا ما نحن بصدده بحثًا وتبيانًا.

وعليه: فمفهوم الكفرِ يدلُّ على عدم الاعتراف بالحقيقة، مع مضادّة شديدة للحُجج والبراهين التي تُثبتُ صواب ذلك أو خطأه؛ ومع أنَّ الحقيقة تكشف الزّيف فإنَّ المتمسّكين بالزّيف حُجَّة (يكفرون بالحقيقة)، وفي المقابل المتمسِّكين بالحقيقة حُجَّة (يكفرون بالزّيف).

ومن هنا فمن يكفر بالزّيف والطّغيان والظّلم والعدوان ليس بالضّرورة أن يكون مؤمنًا بواحديّة الله أو ليس بمؤمنٍ بها، فمن يكفر بالزّيف والطَّاغوت والظّلم والعدوان، سواء أكان موحّدًا أم مشركًا أم لا دين له بالمطلق فهو كافرٌ.

إذن: فالكفر اعتقاد رفضي مع إنكار للحقيقة، وامتناع عن قولها، وتكذيب لأصحابها، وفي المقابل الإيمان اعتقاد تسليمي مع الاعتراف بالحقيقة، والأخذ بها، وتصديق لأصحابها، ومن هنا يشترك الكفر مع الإيمان في صفته إيمانًا؛ إذ كلٌّ منهما يعكس عقيدة المعتقد التي تخالف ما يعتقده الآخر، أمَّا اختلافهما فكان في دائرة التصديق والتكذيب والإصلاح والإفساد، أي: ما يؤمن به المفسد يَكفر به المصلح، وما يؤمن به المصلح يكفر به المفسد، وهذه لا تقتصر على من لا دين له ولا إيمان، بل تحتوي المؤمنين أيضًا.

وبين هذا وذاك تتشتّت المفاهيم دلالة ومعنى؛ فَتُجسِّد الكفر في عقول الخائفين والقلقين والشّاكين والظّانين، وفي المقابل تُجسِّد الإيمان في عقول المطمئنين والذين دخلت السَّكينة في قلوبهم.

ولسائل أن يسأل: ومن هم الخائفون والظَّانون؟

أقول: هم كلّ الأطراف الذين يدينون بدين التوحيد ويكفرون بغيره، وكذلك الذين لا دين لهم ويكفرون بمن دينهم التوحيد؛ ذلك لأنَّ الخوف والظّن لا تمحوه الأديان من عقول البشر وقلوبهم، وكذلك الكفر لا يمحو من العقول ظنًّا وخوفًا.

ولذا فدلالة مفهوم الكفر بدلالة أفعاله، فمن يَقدم على ما نهى الله عنه متحدّيًا لأمر الخالق فلا وصف له إلَّا كافرٌ، ومن يُطع أمر الله لا وصف له إلَّا مؤمنٌ طائعٌ، وفي المقابل من يعصي أمر من عصى أمر الله تحدّيًا فلا وصف له إلَّا كافرٌ.

وعليه: فإنَّ الإيمان يتعلّق بما يتمّ الإيمان به تسليمًا؛ فمن يؤمن بالله وحده لا شريك له ليس كمن يؤمن مع الله شريكًا، وأيضًا ليس كمن يكفر بالله وبما أمر به ونهى عنه.

ومن ثم فإنَّ مفهوم الكفر لا يكون إلا نسبيًّا؛ ذلك لأنَّ ما يراه البعض حقًّا وفقًا لما هم عليه من معتقدٍ يراه غيرهم باطلًا ويكفر به، وبالتمام فإنَّ ما يراه البعض حلالًا يراه البعض حرامًا ويكفر به؛ فشرب الخمر على سبيل المثال: لا يراه المؤمن بالرِّسالة الخاتمة إلَّا محرَّمًا ومع ذلك من المسلمين من يشرب الخمر، وهكذا بعض المسيحيين لا يرونه إلَّا في مرضاة الرَّبِّ،

وفي المقابل بعضهم يخالفه تمامًا ولا يراه في مرضاة الرّبِّ أبدًا، ومن ثمَّ فمع أنَّ كلًّا من المسلم والمسيحي يؤمنان بالله فإنَّ ما يكفر به المسلم من شركٍ بالله لا يكفر به بعضٌ من المسيحيين.

ولسائل أن يسأل: وما مقياس الكفر في دائرة النسبيَّة؟

بالنِّسبة إلى المؤمنين بالرَّسُول الخاتم ورسالة الكافّة مَنْ يشرك بالله فقد كفر (من يضع الخالق في مستوى المخلوق فقد كفر)، أمَّا بالنسبة إلى المسيحي الذي لم يأخذ بما أمر الله به فلا يرى الإيمان إلَّا تثليثًا، أمَّا الكافر بالمعتقدين معًا فلا يؤمن بوجود الألوهيّة، بل لا يرى مِن مُسيّرٍ للكون إلَّا الكون ذاته؛ وذلك بقوله: الكون خَلق نفسه ولا خَالق من ورائه؛ ولذا فهم يؤمنون بخلق الكون لنفسه ويكفرون بالله جلَّ جلاله.

إذن: فمفهوم الكفر يتعلَّقُ بالمعتقد تسليمًا وتسفيهًا، وطاعة وعصيانًا، واعترافًا وإنكارًا، واتباعًا واعتراضًا، ومن هنا فإنَّ (التسليم والطّاعة والاعتراف والاتباع للحقِّ) يشير إلى الإيمان ويدلُّ عليه؛ حيث لا كفر، وفي المقابل (التسفيه والمعصية والإنكار والاعتراض على الحقِّ وإحقاقه) يشير إلى الكفر ويدلُّ عليه.

ولكن أيُّ إيمانٍ وأيُّ كفرٍ؟

إنَّه الإيمان بما يُعتقد، والكفر بما لم يُعتقد؛ وهذين الأمرين لا يقتصران على معتقدٍ بعينهِ، بل أيِّ معتقدٍ؛ ولذلك فما يراه البعض كفرًا يراه البعض إيمانًا.

ومع أنَّ الحقّ واحد (لا إله إلَّا هو)، وأنَّ الحقيقة واحدة (هِي كما هِي) فإنَّ مَن يعتقد في شيء ويكفر بغيره فلا يرى غيره إن اتخذ ما يكفر به من معتقدٍ إلَّا كافرًا، وفي المقابل هو أيضًا سيكون منعوتًا بالكفر من قِبل مَن يكفر بما قد آمن به؛ ولذا فمع أنَّ الحقيقة واحدة فإنَّ مقاييسها في دائرة الممكن نسبيَّة؛ ولهذا دائمًا وفي كلِّ المرَّات العيب لا يلحق إلَّا المقاييس، ولا يلحق الحقيقة مرة واحدة.

ولأنَّ المقاييس نسبيَّة فلا يجوز الاحتكام بها إلَّا في دائرة الممكن؛ ولذا فلا مُطلقيَّة لها أبدًا؛ ومن ثمَّ فالحكم على الكفر وكأنَّه مفردة إسلاميَّة مطلقة وليس بمفردة لغويَّة لا يُمْكِنُ أنْ يُمكِّنَ من معرفة حقيقة الكُفر ودلالته مفهومًا ومعنى، ومن ثمَّ فالكفر لا وضوح لمفهومه إلَّا بما يدلُّ عليه من قولٍ وفعلٍ وعملٍ وسُلوكٍ.

وبالتوقّف عند كلمة (الكفر) يلاحظ أنَّ مفهومها يتأرجحُ بين سالبٍ وموجبٍ، فهو:

. **السَّالب**: عندما يدلُّ على إنكار الحقِّ، وارتكاب الباطل، وإنكار الخالق وواحديَّته والكفر بربوبيَّته، ورفض رسالة الكافّة والرَّسُول الخاتم، والتفريق بين رُسُل الله وأنبيائه، والكفر بأنعم الله، وإنكار البعث والحساب والعقاب والجنَّة والنَّار.

أمَّا الموجب: فعندما يدلُّ مفهوم الكفر على الباطل، وكذلك عندما يدل على الشّرك، والكفر بإنكار الواحديَّة، والكفر بالطَّاغوت، والكفر بالظُّلمِ والعدوان، والكفر بالأعمال الشيطانيَّة، والكفر بإزهاق الحقّ، والكفر

بمن يفرّق بين أنبياء الله ورُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام، والكفر بكلّ ما يؤدّي إلى فتنة بين النَّاس وإفسادٍ في الأرض.

ووفقًا لهذه القاعدة فإنَّ الكفر هو حطبُ نار الصّراع والاقتتال والافتتان بين أهل الحقِّ والباطل، ومن هنا فإذا حاول الكافرون في دائرة السّلبيَّة امتدادًا على حساب سيادة الكافرين في دائرة الإيجابيَّة؛ حدث التَّماس ونشب الصّراع بينهم والاقتتال فتنة، وكأنَّه قانون فطرة وقد فطر الإنسان عليها؛ قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}، أي: لو لم يكفر البعض بالفتنة وبموقدي نارها لفسدت الأرض، ولسادت الفتنة بين النّاس وكأنَّها المأمولة بينهم غاية.

وعليه: فإنَّ تفسير هذه الآية الكريمة لم يكن كما يظنُّ البعض أنَّ الدّين الإسلامي يأمر بقتال الكافرين لا لشيء إلَّا لأنَّهم لم يكونوا من المسلمين، بل الاقتتال هنا قانون فطرة جعل النزاع والاقتتال بين الحقّ والباطل أمرًا مفعولًا ولا فرار منه، ولأنَّ القرآن مصدر المعرفة الحقّة والدّراية الحقّة؛ نصَّ على وجوب ما ترتضيه الفطرة التي خُلق النَّاس عليها، وهي: وجوب مقاتلة أهل الفتنة سواء أكانوا مسلمين أم ليسوا بمسلمين؛ ذلك لأنَّ أهل الفتنة (من يكونوا) لا يمكن أنْ يهدأ لهم بال إلَّا بإيقاد نارها بين النَّاس، ومن ثمَّ أوجب الله –تعالى– مقاتلتهم؛ حتى تطفئ نيرانها وإلَّا فالظلم يسود، والأرضُ تفسد.

ومع أنَّ الكُفر إنكارٌ للحقيقةِ فإنَّ التكفير عن الكفرِ ينفض الغبار عنها (ينفض الغبار عن الحقيقة، ويُمكِّن من العودة إليها والأخذ بها)، ومن هنا فالكفر في دائرة النسبيَّة متحرّك بين امتدادٍ وانكماشٍ، وبين اعترافٍ وإنكارٍ، وبين إقدامٍ وإحجامٍ؛ ففي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كل شيء قابل للتغيير حُجّة وجدلًا وبرهانًا، ومن ثمَّ فالتكفير في مرضاة الله واتقائه يمحو ما يُرتكب من سيئات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

إذن: فكلمة الكفر لا مفهوم لها وضوحًا إلَّا بما تدلُّ عليه من معنى، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سلوكٍ، وبهذا يكون الكفر اتخاذ موقف مما لا يجب، سواء أكان مرضيًا للبعض أو مغضبًا لهم، ومن هنا فالكفر لا يخرج عن دائرة النسبيَّة والممكن، ومن ثمَّ فما يبدو لك محبَّبًا ومرغوبًا ومفضّلًا قد يبدو لغيرك مكروهًا ومرفوضًا ولا يؤخذ به، ومع ذلك لا ينبغي أن تصدر الأحكام على المخالفين هكذا جزافًا، بل وفقًا للمعياريَّة الأخلاقيّة والإنسانيَّة التي لا مكان فيها للانحياز والمظالم.

إذن: فبالنسبة لأهل الحقّ يعدُّ الكفر بالحقِّ باطلًا، وفي المقابل لا يعد كذلك بالنّسبة إلى من لا يرى في إحقاق الحق إلَّا قيدًا عليه، ومن هنا فبالنسبة إلى أهل الحقّ جاء الكفر في مواجهة مفهوم إزهاق الحقِّ حقًّا، أمَّا بالنسبة إلى من تمسّك بالباطل فلا يرى التمسُّك بالحقِّ والعمل على إحقاقه إلَّا كفرًا وباطلًا، وهكذا أهل الشّرك لا يرون التمسّك بالشّرك كفرًا، بل يرون من ينكر ذلك هو من يشار إليه كافرًا.

وعليه: فإنَّ كُفر الإنسان بالباطل لا يعدُّ إلَّا حقًّا، ومن ثمَّ فكفره بالظّلم والظّالمين هو الآخر لا يعد إلَّا حقًّا، وفي المقابل كفره بالعدالة يعدُّ باطلًا؛ ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمتضادٍّ مع مفهوم الإيمان، فإنَّ بعض المؤمنين يرتكبون الباطل، ويفسدون في الأرض، وفي المقابل غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام أو لا يؤمنون به يمتنعون عن ارتكاب مثل هذه الأفعال التي يجب الكفر بها وبمن يرتكبها.

ومن هنا جاء مفهوم الكفر بالله باطلًا، والكفر بالشِّرك حقًّا، وهكذا الكفر بالحقّ باطلًا، والكفر بالباطل حقًّا، والكفر برسالة محمَّد باطلًا، والكفر بمن كفر برسالة محمَّد حقًّا، والكفر بالأعمال الشيطانيَّة حقًّا، والكفر بمن يكفر بالأعمال الشيطانيَّة باطلًا.

إذن: مما تقدّم نرى أنَّهُ من بابِ الوجوبِ أن يكفر المسلم بكلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بالحقيقة، وهنا لا يصحُّ أن نُشير أو نصف (الكفر) بأنَّه سالبٌ، أو أنَّه لا يكون صفة إلَّا لمن لم يكن مسلمًا؛ ولهذا فدائمًا الكفر بالباطل حقّ، والكفر بالظلم حقّ، والكفر بقتل النفس بغير حقٍّ حقٌّ، وهذه جميعها موجبة الاتباع والأخذ بها.

ومن ثمَّ فالفرد المسلم، والجماعة المسلمة، والدّولة المسلمة يجب أن يكونوا هم أوَّل من يحافظ على هذه الصّفة الحميدة (الإسلام دين المحبة)؛ إذ لا إكراه، ومن ثمَّ فيجب أن يكونوا هم أوَّل النَّاس الكافرين بالظّلم والعدوان وقتل النفس بغير حقّ، وبكل ما يؤدّي إلى الإفساد في الأرض، وفي المقابل إن ظلموا واعتدوا بغير حقّ وأفسدوا الفضائل الخيّرة والقيم

الحميدة فليس لهم من صفة ينعتون بها إلَّا صفة (الكفر)، مع العلم أنَّ هذه الصّفة لا تلحق المواطنين الذين ليس لهم يدٌ بما يجري من مفاسد ومظالم على أيدي من يتولّون زمام الأمور في أوطانهم ويمتلكون القرار فيها دون غيرهم.

وبما أنَّ الكفر وفقًا لما تقدَّم ليس بالمفهوم المضاد للإيمان إذن: فما هو المفهوم المضاد لمفهوم الكفر؟

أقول: إنَّ الكفر (غضبٌ على قولٍ، أو معتقدٍ، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سلوكٍ مع وافر الرّفض وقبول التحدّي بغير حقٍّ)، وفي مقابل هذه المفاهيم الدّالة على الكفر يأتي مفهوم (الرِّضا عن القولِ، أو المعتقدِ، أو الفعلِ، أو العملِ، أو السُّلوكِ وتقبُّله مع وافر المناصرة الحقَّة)، وبهذه المفاهيم المتضادة يكون مفهوم الرِّضا في مواجهة مفهوم الكفر، وليس الكفر في مواجهة الإيمان أو الإسلام.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (القول والفعل والعمل والسُّلوك) وليس بمفهومٍ مجرّدٍ في ذاته، إذن يحتوي مفهوم الكفر في مضمونه (الغضب والإنكار) وهذا الأمر يجعل مفهوم (الرِّضا والاعتراف) في مواجهة صريحة مع مفهوم الكفر.

وكما أنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه على مفهومي: (الغضب والإنكار) فهو كذلك يحتوي على مفهوم (الرَّفض) جنبًا إلى جنب مع مفهومي (الغضب، والإنكار)، وفي مقابل هذه المفاهيم تأتي مفاهيم

أخرى لتضاداها، ومنها: (القبولُ، والاعترافُ)، أي: ما يرفضه البعض معتقدًا يقبله البعض الآخر وبه يعترف.

وكذلك فمفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (الخروج عن الطَّاعة الحقَّة) الذي يؤدِّي إلى مواجهة مع مفهومي: (السَّماع والاتباع صوابًا)، ومن هنا فمفهوم الكفر يدلُّ عند البعض على التأبّي والترفُّع على الحقِّ بغير وجه حقّ، وفي المقابل عند البعض الآخر يرى الكفر حقّ لمن يكفر بمن كفر بالحق وتأبَّى عليه.

إذن: الكافر في غير مرضاة الله هو من يركب رأسه نكايةً وكرهًا وكيدًا وظلمًا وعدوانًا على الغير وما يعتقدون أو يعملون ويفعلون، وفي مقابل هذا المفهوم الكفري يأتي مفهوم من أناخ بعيرهُ مسلِّمًا بما يجب مع الأخذ به واجتناب ما يُنهى عنه، أمَّا الكافر في مرضاة الله فليس براكبٍ لرأسه، بل هو الذي إذا ما تمسَّك بالحقِّ فلا يحيد عنه ولو كانت نفسه فداء له.

وعليه: فمع أنَّ الكفر عند عامّة المسلمين كما سبق تبيانه لا يكون إلَّا باطلًا، فإنَّ مفهوم الكفر في ذاته ليس بباطلٍ؛ ذلك لأنَّ الكفر يعني: عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه، وبهذا المفهوم لا يكون الكفر إلَّا موجبًا، أمَّا ما يكون عليه في مضادة لهذا المفهوم فلا يكون الكفر إلَّا سالبًا.

ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمفهومٍ مطلقٍ جاء أمر التكفير عنه ميسّرًا لنسخ أثره، وفي معظم القضايا يصبح الكفر وكأنَّه لم يكن؛ قال تعالى: {وَمَنْ

يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

إذن: فمن يتّقي الحقّ من بعد كفرٍ ويتجنَّب الباطل يكفّر الله عنه سيئاته التي كانت سبب كفره وعلَّته، ثمَّ يعظِم له أجرًا: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}.

ولسائل أن يسأل: وما هو مفهوم التكفير؟

أقول: مفهوم التكفير هو: التخلّي عمَّا كان يعمله الكافر من مفاسد ومظالم وأعمال هدميَّة (شيطانيَّة) لا ترضي الله، ولا تليق ببني الإنسان، وتتعارض مع القيم الحميدة والفضائل الخيِّرة، التي ترسِّخ قيمة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؛ ولهذا فإنَّ التكفير لا يكون إلَّا من بعد وعيٍ بما يجب والإقدام عليه، ومن ثمَّ فهو بالإخلاص التَّام يُمكّن من التّوبة التي لا عودة إلى الكفر من بعدها؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[205].

إذن: فالتّكفير فعل تتحقّق به المراجعة الواعية لما سبق؛ بغاية فرز الصّفحات ذات المعلومات المشوّهة والخاطئة من الصّفحات ذات المعلومات الصّائبة؛ وذلك لأجل عدم العودة إلى قراءة تلك الصّفحات أو الأخذ بما كُتب فيها من أقوالٍ تكفيريَّة.

ومع أنَّ بعض المفسّرين ارتأوا ومالوا إلى أنَّ مفهوم الكُفر هو التغطية والستر فإنَّ ما نراه أنه ذو مفهوم آخر؛ وذلك لأنَّ مفهوم التغطية والستر

[205] التحريم: 8.

والتغليف كما جاء في تفسيرهم هو أقرب إلى مفهوم الكلمة الإنجليزيّة وهي: كفر (cover)، ومن ثمَّ فهذا المدلول في اعتقادنا لا يتعلَّق بمفهوم الكُفر في اللغة العربيَّة، وبخاصّة أنَّ مفهوم الكُفر يشيرُ إلى كشف الزّيف عن الحقيقة وتقديمها كما هي؛ إذ لا غموض، وإلَّا هل يُمكن أن يكفر الإنسان بالباطل وهو غير قادرٍ على كشف زيفه؟؛ ولذا فلا إمكانيَّة لإظهار الحقيقة إلَّا بكشف الزيّف عنها، ومن يتمكّن من كشف الزّيف موضوعيًّا ليس له بدّ إلَّا الكفر به، ثمَّ اتباع الحقّ والأخذ بالحقيقة موضوعيًّا.

وإذا سلّمنا بأنَّ الكفر ستر وتغطية كما جاء في اللغة الإنجليزيَّة (cover) فإنَّنا كمن يسلِّم بحجب الحقيقة التي لا ينبغي لها أن تُحجب، ولتبيان ذلك وتوضيحه نعرف أنَّ الإيمان بالله وحده حقّ، والعدل حقّ، واتباع الرَّسُول محمَّد النبي الخاتم حقّ، والجنّة حقّ، والنَّار حقّ، والحساب والعقاب حقّ، والبعث حقّ؛ ومن ثمَّ أتساءل:

إذا شاءت نفس الإنسان أن تكفر فهل ستكفر (موضوعيًّا) بما هو حقّ، أم ستكفر بما هو باطل؟

في اعتقادنا ووفقًا لما سبق تبيانه فإنَّه في الحالتين يُمكن لنفس الإنسان أن تكفر؛ ولكن إن كفرت النفس بالحق فإنَّها بهذا الكفر قد غطت الحقيقة وحجبتها مع أن الحقيقة موضوعيًّا لا تُحجب أبدًا، وهي في هذا السّياق: مثل الشّمس التي وإن غربت مساء كلّ يومٍ فأنَّ غروبها لا يلغي بقاءها على قيد الحياة وجودًا؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}[206]؛ وقال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}[207].

أمَّا إذا كفرت النّفس بما هو باطل، فإنَّها بكفرها هذا قد كشفت حقيقته (أنَّه الباطل)، ومن ثمَّ أخذت بالحقّ، ثمَّ استطاعت إظهاره حقيقة للعيان وإخضاعًا للقياس، الذي يُمكّن من المعرفة الواعية والدراية التّامّة، وهي في هذا السّياق كمن يدعو مَن يدعو من دون الله وهو ظانٌّ بأنَّه القادر على كشف الضرّ عنه في الوقت الذي تكون فيه حقيقة هذا الأمر باطلًا: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا}[208]؛ وقال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[209].

ولنميّز بين أهل الحقِّ وأهل الباطلِ، نقول: إنَّ أهل الحقّ هم الذين يكفرون بالباطل، وبأعمالهم الحسنة يتولَّاهم الله ويخرجهم من الظُّلمات إلى النّور، وفي المقابل أهل الباطل هم الذين يكفرون بالحقِّ، ويتولَّاهم الطَّاغوت، وبأعمالهم السّيئة يخرجهم من النّور إلى الظّلمات؛ قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[210].

---

[206] آل عمران: 98.

[207] البقرة: 89.

[208] الإسراء: 56.

[209] غافر: 12.

[210] البقرة: 257.

وعليه: فكما يكفر أهل رسالة الكافَّة والرَّسُول الخاتم بالظّلم والعدوان، فإنّهم يكفرون بالشّرك والطَّاغوت، وكل ما من شأنه أن يكون سببًا في إفساد الأرض؛ ولذلك فأهل الحقّ مأمورون بالكفر بكل الأعمال الشيطانيَّة: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[211].

ومن هنا فمفهوم الكفر المأمور به كما جاء في الآية السَّابقة ليس دائمًا كما يظن البعض بمفهومٍ سالبٍ، وليس بمفهومٍ ملتصق بمن نعتوا به أنَّهم كفرة، ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر ملتصقًا بستر الحقيقة، بل إنَّه الكاشف لها والمبيّن.

ومن ثمَّ فالخلاف دائمًا معركة بين من يكفر ومن يكفر (من يكفر بالطَّاغوت ومن يكفر بالله)، أي: بين من يؤمن ومن يؤمن (من يؤمن بالله ومن يؤمن بالطَّاغوت)، ومن هنا يحدث الخلاف والصّدام والاقتتال، ولم يكن الاقتتال كما يظن البعض أنَّه المكتوب بين المسلم وغير المسلم، بل الاقتتال لا يكون إلَّا بين من يتّبع الحقّ ويتمسّك به ومَنْ يكون، وبين من يتبع الباطل ويتمسّك به ومَنْ يكون، ومع ذلك فالاقتتالات تُكتب كرهًا على من لا يؤمن بالاقتتال وكأنَّه الحلّ أو المخلّص والمنقذ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[212]، أي: لو لم يقاتلكم أهل الظّلم والعدوان، وأهل الفتن والإفساد في الأرض، وأهل الطَّاغوت فلا تقاتلوهم أبدًا؛ ولهذا جاء التوضيح

---

[211] النساء: 60.

[212] البقرة: 190.

بقوله تعالى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، وهكذا جاء دين الهداية بالحقِّ؛ حيث لا إكراه لمن خُلق في أحسن تقويم: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[213].

إذن: فَمَن يؤمن بالله ورُسُله ويكفر بالطَّاغوت، ويؤمن بالعدل ويكفر بالظّلم، ويصلح في الأرض ولا يفسد فيها فلا يعدُّ إلَّا من أهل الحقِّ، وفي المقابل من يكفر بالله ورُسُله ويؤمن بالطَّاغوت، ويؤمن بالظّلم ويكفر بالعدل، ويفسد في الأرض فلا يعدُّ إلَّا من أهل الباطل: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[214].

يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ الشّيطان موحِّدٌ؛ فلا يُشرك بالله أحدًا، وفي المقابل مع أنَّ أهل الدِّيانات الواحديَّة يؤمنون بالله فإنَّ بعضهم بالله يشرك، أمَّا الشّيطان بكل ما لديه من أعمال شيطانيّة فلم يشرك بالله، بل بشرك الله –تعالى–يكفر: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ}، أي: لقد كفر الشّيطان بما ارتكب بعض بني آدم من أعمال شركٍ أشركوه فيها مع الله؛ ذلك لأنَّ بعض النَّاس استعانوا بالشّيطان في قضاء حاجاتهم باطلًا، في الوقت الذي فيه حاجاتهم لا تقضى إلَّا بأمر الله وإذنه.

---

[213] البقرة: 256.

[214] إبراهيم: 22.

ومن ثمَّ فهم عِوضَ أن يستعينوا بالله –تعالى–استعانوا بالشيطان وكأنَّه شريك لله جلَّ جلاله، وهذه الإعانة التي كشف سرها الشيطان قد كفر بها؛ لأنَّه يعلم أنَّه لم يكن شريكًا لله؛ ومن ثمَّ فالكفر الذي ينبغي أن يكون أوَّل من يكفر به هم بنو آدم، كَفَر الشّيطان به وترك لهم المجال فسيحًا لمن شاء أن يُشرك كفرًا، ومع ذلك فقد تبرَّأ من الذين أشركوه مع الله بغير حقّ {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ} فهذه الآية بهذا المفهوم تدلُّ على استهتار الشّيطان واستهزائه وكفره بمن أشركه مع الله بغير حقٍّ.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه الضّلال عن الحقيقة فإنَّ مفهوم الهداية يأتي متضادًّا لمفهوم (الكفر)؛ ذلك لأنَّ الهداية لا تكون إلَّا عن دراية ومعرفة واعية بما يجب وما لا يجب مع حسن الاختيار والاتباع، ومن ثمَّ فالكفر في دائرة السلبيّة لا يزيد الصدور إلَّا ضيقًا من بعد ضيق، وفي المقابل الهداية في دائرة الإيجابيَّة لا تزيد الصُّدور إلَّا انشراحًا: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}[215]؛ ولهذا فالكفر في دائرة السلبيَّة لا يزيد الإنسان إلَّا ضيقًا وضلالًا، أمَّا الهداية فلا تزيده إلَّا ثباتًا ودراية؛ قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[216].

ومع أنَّ الله أنزل آياته المعجزة حقائق ماثلة للمشاهدة والملاحظة فإنَّ الكافرين بها يفسقون، أي: لها يجحدون وينكرون، وعلى الرَّغم من

---

[215] الأنعام: 125.

[216] النساء: 146.

حقيقتها شاهدة أمامهم فهم بها يكفرون: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[217].

ولذا فالكفر في دائرة السّلبيَّة علَّته إنكار الحقيقة، ومن ثمَّ فلا بدّ أن يكون الخلاف مع من ينكر الحقيقة، سواء أكان على دين الله موحّدًا، أم على دين الله مشركًا، أم ليس له دين سوى الضّلال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[218].

يُفهم من الآية الكريمة السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر جاء متضادًّا مع مفهوم الشُّكر {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}؛ ولذا فلا كفر إلَّا عن إنكار وعصيان، ولا شكر إلَّا عن اعتراف وطاعة واتباع؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[219]، فعبدًا شكورًا (عبدًا طائعًا موحِّدًا ومعترفًا بفضل الله عليه)، ومن ثمَّ فمفهوم هذا المعنى (شكورًا) يأتي في مضادة تامَّة لمفهوم الكفر.

ومع أنَّ الشّكر دليل اعترافي بالمشكور، فإنَّ منافع الشّكر ومكاسبه لا تعود إلَّا على الشَّاكر: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[220]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[221]؛ ولهذا فالله –تعالى– على الرّغم من شكرنا له فشكرنا له لا يزيده شيئًا ولا ينقص منه

---

[217] البقرة: 99.

[218] الإنسان: 3.

[219] الإسراء: 3.

[220] النمل: 40.

[221] لقمان: 21.

شيئًا؛ وهو المنعم والمطعم بنعمه التي لا تحصى وهو الكريم الذي لا يريد منَّا جزاءً ولا شكورًا: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[222].

ولأنَّ مفهوم الكفر مفهوم (عصيان وإنكار لما يجب الاعتراف به) جاء مفهوم الشُّكر متضادًّا مع مفهومه (اعترافًا بما يجب الأخذ به طاعة)، ومن هنا يولد الاستكبار الذي هو الآخر لا يكون إلَّا عن معصية، والمعصية للحقِّ لا تكون إلَّا عن كفرٍ؛ قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[223].

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أنَّ إبليس يؤمن بخالقه تعالى (خَلَقْتَنِي)، وفوق ذلك يتفاخر بخلقهِ له من نارٍ، وفي المقابل يسخر من خلق آدم ويقلل من شأنه؛ كونه المخلوق من طين {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ).

---

[222] الإنسان: 9.

[223] ص: 71 – 83.

ولأنَّ إبليس يؤمن بالله تعالى فقد أقرّ بذلك وهو يترجّى الله أن يمنحه الفرصة ويمهله حتى يوم البعث الذي تنكشف فيه الأوراق الممتلئة حسنات بعد أن تفرز منها تلك الصّفحات الممتلئة سيئات أمام أعين فاعليها ومرتكبيها (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

كما أنَّ هذه الآيات تكشف أنَّ مفهوم الكفر معصيةً جاء متضادًّا مع مفهوم (الطَّاعة والاتباع)، ومن ثمَّ فإنَّ معصية إبليس لأمر الله بالسّجود لآدم جعلته عاصيًا كافرًا: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}؛ ولذا فلم يأتِ مفهوم الكفر بعدم الإيمان بالله، بل جاء فقط بمفهوم المعصية، وإلَّا لو لم يكن إبليس مؤمنًا بواحدية الله تعالى لما قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين}[224].

وعليه: فمفهوم الكُفر مفهوم معصية، وعدم طّاعة، وعدم اعتراف بما يجب، وعدم الإيمان بالحقِّ وتكبّرًا عليه، ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر كما يعتقد البعض بأنَّه الكفر بالله، فلو كان الأمر كذلك ما وُصف إبليس بالكفر في الوقت الذي هو فيه يؤمن بالله واحد أحد.

ومن هنا، ماذا يُقال لعبدةِ الشّيطان الذين يؤمنون به ويكفرون بالله تعالى؟

أقول لعلّ القول يكون: كيف تكفرون بالله وتؤمنون بالذي يؤمن به ولا يشرك معه أحدًا؟

---

[224] ص: 82، 83.

نعم. مع أنَّ عبدة الشّيطان يكفرون بالله، فإنَّ الشّيطان الذي يعبدونه يؤمن بالله ولا يشرك به أحدًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[225].

إذن: مع أنَّ إبليس يؤمن بالله –تعالى–فإنَّه قد وُصف بالكافر؛ وذلك لعلَّةٍ رئيسة في نفسه؛ وهي استكباره وعدم طاعة أمر السّجود لآدم عليه السَّلام {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

وهكذا بالتمام لقد جاء مفهوم الكافر في عمومه بدلالات التكذيب والمعصية والتكبّر والتأبّي على الحقّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ}[226]، أي: إنَّ الذين استهزءوا بعمل نوح –عليه السَّلام–وكذّبوا أن يكون نوحٌ صانعًا للفُلكِ العظيمِ؛ فبعد صُنعه للفُلك وجريانه في البحر أصبحت الحقيقة التي كذّبها من كذّبها (الذين كفروا بها وبنوحٍ وصُنعهِ) ماثلة أمام الأعين معجزة جزاءً لمن كان مكذّبًا {جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}.

ولأنَّ الكافر هو من لا يحتكم بالحقِّ، إذن فمن يحتكم به ليس بكافرٍ، ومن ثمَّ فإنِ احتكم المؤمن أو المسلم بالحقِّ فلا شكَّ أنَّ من يخالفهما في ذلك سيكون هو من يشار إليه بالكافرِ، وفي المقابل إذا أخذ بالحق من

---

[225] إبراهيم: 22.

[226] القمر: 13، 14.

لم يكن مسلمًا ولا مؤمنًا ولم يأخذ به المؤمن والمسلم فسيكون من يشار إليه بالكفر في مثل هذه الحالة هو من يدَّعي الإسلام والايمان؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[227]، في هذه الآية ارتبط مفهوم الكفر بالعمل الذي لا يكون فعله وأثرهُ إلَّا خيرًا، ومن ثمَّ فلا يُمكن أن يوصف فاعل الخير بالكافر حتى وإن لم يدخل الإسلام، مع العلم أنَّ أصحاب الأعمال الخيّرة في معظم نهايات حياتهم يؤمنون ويسلمون: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[228].

في هذه الآية الكريمة ارتبط مفهوم الإيمان والكفر بقول الحقّ: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ}، ولأنَّه لا حقّ بالمطلق إلَّا بمقاييس الخالق ومعاييره التي لا تكون إلَّا متطابقة مع أمره تعالى، نجد التمسّك بالقول الصّادق والعمل الصّادق عند كثير من الذين لا يدينون بالإسلام إلى جانب إخلاصهم في الأعمال التي تناط بهم، وفي المقابل نجد ما يخالف ذلك لدى بعضٍ من المسلمين، ويا ليتهم يهتدون إلى ما يجب اتباعه والإقدام عليه، والتخلي عن كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بأنعم الله.

ولأنَّ الكفرَ ذو مفهوم متضاد مع مفهوم التكذيب جاء التكذيبُ للحقّ بمفهومِ الكفر: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[229]، فقوله: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} ليس بمفهوم (منهم من دخل الإسلام

---

[227] التغابن: 2.

[228] الكهف 29.

[229] البقرة 253.

ومنهم من لم يدخل الإسلام)، بل جاء بمفهوم (منهم من كذّب ومنهم من صدّق)، أي: إنَّ الذين (جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)، والبينات هنا (الحقائق) فهم لو أخذوا بها ما اختلفوا (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) أي: منهم من صدّق البيّنات (الحقائق) وأخذ بأمرها واتبع هداها، ومنهم من كذَّب وبها كفر؛ ولهذا فهم اختلفوا بين مصدّقٍ ومكذِّبٍ.

ولأنَّ الكفر ليس بمفهومٍ متضادٍّ لمفهوم الإيمان والإسلام؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}[230]، أي: قد كَذَبَ من قال: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، وقد كَذَبَ من قال: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ}[231]، فَمِن مفهوم الآيتين السَّابقتين أنَّ الذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)، والذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) لا شكّ أنَّهم يؤمنون بالله ولم يكفروا به، أي: مع أنَّهم يؤمنون بالله تعالى (مسلمون) فإنَّهم أشركوا به، أي: مع أنَّهم لم يكفروا بالله (لم ينكروه) فإنَّهم لم يأخذوا بأمره كلِّه، ومن هنا جاء التكذيب الذي به وصفوا كافرين (مكذِبين)، ومن ثمَّ فمن كفر فعليه كفره: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}[232].

---

[230] المائدة: 17.

[231] البقرة: 73.

[232] الروم: 44.

يُفهم من الآية السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر قد جاء متضادًّا مع مفهوم العمل الصَّالح {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}، ومن ثمَّ فلم يأتِ مفهوم الكفر متضادًّا لمفهوم الإسلام أو الإيمان.

إذن: فهناك من يؤمن بالله وفي الوقت الذي يؤمن فيه بالله يكفر بما آتاه الله من نِعَمٍ: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}[233]، فقوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} أي: على الرّغم من أنَّهم يؤمنون بالله –تعالى– فلم يقدّروا النِّعم التي آتاهم إيَّاها، ومن ثمَّ فلم يقفوا عند حدود (ما يجب والأخذ به، وما لا يجب والانتهاء عنه)؛ وبذلك وُصفوا بالكافرين؛ كونهم كفروا بما أتاهم الله من نعم وفضائل؛ قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[234]، جاءت هذه الآية الكريمة لتبيّن أنَّ الكفر لم يكن بالله تعالى، بل جاء مفهوم الكفر هنا بأنعم الله التي لا تُحصى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[235].

وعليه: فإنَّ الكفر دائمًا لا يكون إلَّا فعلًا لاحقًا لمفعولٍ سابقٍ؛ فالنّعم المكرّم بها الإنسان لو لم تكن سابقة عليه ومشبعة لحاجاته المتطوّرة والمتنوّعة ما عبث بها الإنسان وكفر، وهكذا أمرُ الله الحقّ الذي لو لم يكن سابقًا على كلِّ سابق ما كفر به من بعده لاحقٍ.

---

[233] الروم: 33، 34.

[234] النحل: 112.

[235] النحل: 18.

ومن هنا سيظل مفهوم الكفر نكرة ما لم نبيّن الكفر بماذا؟، فالكفر لا يكون إلَّا صِفة لموصوف، كالكفر بالحقِّ، والكفر بالعدلِ، والكفر بالأنعمِ، والكفر بالله، والكفر بالطّاغوتِ، والكفر بالأنبياءِ والرُّسُلِ الكرام؛ والكفر بالظّلم، والكفر بالفسق والكذب، والكفر بكل من يكفر بالحقِّ؛ ولهذا بلغت درجة الكفر لدى البعض بأن يكفر المخلوق بالخالق، وهكذا بالتمام البعض يكفر بآيات الوجود الذي هو جزءٌ من آياتها.

وعليه: في الوقت الذي فيه مفهوم الكفر يدل على وجود قناعة بموجود في الوقت ذاته يُكفر بهذا الموجود على حساب وجود آخر يخالفه في الحقيقة تمامًا.

ومن ثمَّ فالكفر في دائرة المتوقّع الإيجابي لا يكون إلَّا بما لا يطمئن النفس والعقل والقلب، أمَّا الكفر في دائرة المتوقّع السّلبي فلا يكون إلَّا بما يُظهر سيادة الباطل على حساب سيادة الحقّ، ومن هنا فالكفر يعني: أنَّ الإنسان يعرف الحقّ ولا يأخذ به، ويعرف الباطل ولا يحيد عنه؛ ومن ثمَّ فالكفر إعراض عمَّا لا يجب الإعراض عنه، والأخذ بما لا يجب الأخذ به في مرضاة الله.

ومع أنَّ مفهوم الكفر عند عموم النَّاس ذو مفهوم سالب فإنَّ الكفر في ذاته ليس بسالبِ المفهوم لو لم يكن تابعًا لموصوفٍ سالبٍ يؤدِّي بأصحابه إلى إنكار الحقيقة، سواء أكانت الحقيقة محمولة في الكلمة والمحتوى، أم إنَّها مضمونة في الفكرة، أم إنَّها بالعمل تُفعل، أم إنَّها متجسّدة في السُّلوك، أم إنَّها آيات معجزة.

ولذا فمفهوم الكفر الذي لا ينبغي الخلاف حوله –وهذا ما ينبغي– هو عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه موضعيًّا، وفي مقابل هذا المفهوم يصبح مفهوم الإيمان في دائرة النسبيّة بين موجبٍ وسالبٍ، فعلى سبيل المثال: من يؤمن بالله واحدًا أحدًا لا شريك له فقد آمن بالحقِّ، ومن يكفر بالله ويشرك به فقد آمن بالباطل؛ ولذا فمن يؤمن بالطَّاغوت ليس كمن يكفر به.

ولأنَّ للإيمان مقاييس فكذلك للكفر مقاييس وجميعها ترجع إلى:

. **المستحيل**: الذي لا يكون إلَّا بأمر الله ومشيئته، ومع ذلك كفر به من كفر وآمن به من آمن.

. **المعجز**: الذي بيد الله، وقد مكَّن الأنبياء والرُّسُل منه ومن معرفته، والتبليغ به، والدّعوة إليه، وقد آمن به من آمن، وكفر به من كفر.

. **الممكن**: الذي لا يكون إلَّا وفق مقدرة وهو المجاز من النَّاس عرفًا، وقيمًا، ودستورًا وقانونًا، ومع ذلك النَّاس منهم من يؤمن به ومنهم من يكفر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[236].

وعليه:

. أعوذ بالله من الذين لا يكفرون بمن يكفر بالحقِّ وإحقاقه، وأعوذ به من الذين يؤمنون بالباطل ولا يكفرون به.

[236] هود: 118، 119.

. أعوذ بالله ممن يمكر بالنَّاس ويوقد نار الفتنة بينهم ولا يكفر بها، وأعوذ به ممن لا يكفر بالظّلم ويؤمن بالعدوان ظلمًا.

. أعوذ بالله ممن لا يكفر بحرمان النَّاس من ممارسة حقوقهم، وأدائهم لواجباتهم، وحملهم لمسؤوليَّاتهم، وأعوذ به ممن لا يعترف بالإنسان قيمة وقد فضلَّه الله على ما خلق، وأعوذ به ممن لا يكفر بإقصاء النَّاس والهيمنة عليهم والتأبّي.

–أعوذ بالله من الذين يَكِيدُونَ للنَّاس كَيْدًا، ويمكرون بهم مكرًا، ويكفرون بالصّلح والصّفح والعفو والتسامح ويفرّقون بين النَّاس، ويأكلون أموالهم بالباطل، ولا يكفرون بارتكاب المحرّمات والمجرّمات.

(اللهمَّ اهدِ من كفر بالحقِّ إلى الحقِّ، حتى يعود إليه كافرًا بالباطلِ).

الإرهابُ

مفهومًا ومصطلحًا

إنَّ مفهوم الإرهاب في اللغة العربية والدّين الإسلامي والدّين المسيحي وكذلك الدّين اليهودي يدلُّ على كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الاتقاء وتجنُّب حدوث ما يُخيف ويُرعب، ولم يأتِ لفظ الإرهاب أو ما اشتقّ منه في القرآن الكريم إلَّا ملازمًا للصِّفات الحسان والقيم الحميدة، سواء أكانت موصوفة به، أم مضافة إليه؛ قال تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}[237]، أي: كتبوا على أنفسهم ما لم يلزمهم الله به وهو (الرّهبانيّة)، والتي تعني: التفرُّغ للعبادة والانقطاع عن أعمال الدنيا والانشغال بها، ومع ذلك لم يحافظوا عليها، ولم يرعوها حقّ رعايتها كما هم ابتدعوها على أنفسهم؛ إرادة ورغبة وطمعًا في وجه الله، ومن ثمَّ فإنَّ الرَّاهب في المسيحية هو من يتفرّغ للعبادة في صوامعها.

ولذا فإنَّ مفهوم الرّهبانيَّة في هذه الآية جاء مسبوقًا بالرّأفة والرّحمة ومتماثلًا مع مفهوميهما، ومن ثمَّ فالرأفة والرّحمة والرّهبانيَّة لا تكون إلَّا في مرضاة الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[238]، ومن هنا فإنَّ الإسراع في عملِ الخيراتِ لا يكون فعلًا متحققًا إلَّا في مرضاة الله، أمَّا الرَّغبة والرّهبة فلا تكونان إلَّا عن إرادة ورجاءٍ من ورائهما مأمولٌ يتحقّق؛ ذلك لأنَّ الرَّاغب هو من يمتلك الإرادة، والرَّاهب هو المتعبّد الذي يدعُو الله طاعة وتقوى {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

[237] الحديد: 27.

[238] الأنبياء: 90.

وَرَهَبًا}، وهنا جاء مفهوم كلمة: (رهبًا) بمعنى التقوى ومخافة الله، أمَّا مفهوم قوله تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[239] جاءت هذه الآية الكريمة بمفاهيم، منها: فإن لم تنتهوا ستواجهكم قوّتي وشدّتي وجبروتي (قوّة الله وشدّته وجبروته)، وهذه لا شكّ أنَّها ستكون مُرهبة لمن لم يتقِ الله، ومن ثمَّ فخذوا حذركم (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)،.

إذن: كيف لنا نحن المسلمين والمسيحيّين واليهود أنْ نصف مفهوم الإرهاب بما لم يصفه الله تعالى به؟ وكيف للمسيحيين على وجه الخصوص أنْ يترهَّبوا طاعةً وعبادةً وصلاةً، وفي المقابلِ يصفون مفهوم الإرهاب بالمحرّم والمجرَّم؟ أي: إذا كان مفهوم الإرهاب مُرعبًا فلماذا يَقبل المسيحي بوصف العابدين والعابدات (المتفرّغين لعبادة الله) بأنَّهم رهبان؟ هذا مع العلم أنَّ في اللغة العربيَّة –لغة القرآن الكريم–لا جذر ولا أصل لكلمة الرُّهبان إلَّا الفعل (رَهَبَ) وهو الفعل الذي تعود أفعال الإرهاب إليه.

ولأنَّ الرَّاهب في المسيحيَّةِ هو المتخلّي عن الملذات الدّنيويَّة، وهو المعتزل للعبادة والقيام بالأعمال الخيريَّة (برًّا وإحسانًا)، فلا يُمكن أن يكون مُرهبًا لغيره تقتيلًا وترعيبًا، ولأنَّ الدّين الإسلامي جاء مرسِّخًا لمفهوم الإرهاب طاعة لأمر الله؛ قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا}[240]. فالقسّيسين في المسيحيَّة هم خدمة الدّين المسيحي وأئمة المسيحيين ومتتبّعي رعايتهم، أمَّا الرّهبان فهم مَنْ استجابوا لأمر الله طاعةً وتعبُّدًا؛ ولهذا فالرُّهبان هم من

---

[239] النحل: 51.

[240] المائدة: 82.

صاروا متفرّغين للعبادة والصّلاة وأعمال البرّ والإحسان، حتى وُصفوا بالرّاهبين أو الرُّهبان، ومن ثمَّ فالرهبانيَّة في المسيحيَّة طريقة في الزُّهد والاعتزال عن كل ما يلهي عن العبادة والإقدام على الأعمال الخيريَّة.

إذن: من أين جاء مصطلح الإرهاب بما يخالف مفهومه في الأديان السماويَّة؟

جاء هذا المصطلح المخالف للمفهوم عام 1968م عندما وَصف الصّهاينة الكفاح الفلسطيني بأنَّه كفاح إرهابي غير مشروع وغير إنساني، وكأنَّ الفلسطينيين لم يكونوا من بني آدم الكرام، ولا حقّ لهم في الدّفاع عن أنفسهم وكرامتهم، وهويّتهم الوطنيَّة التي يُريد لها الصّهاينة أن تُمحى من الوجود الذي خصّهم الله به في وطنهم فلسطين.

وعليه: ينبغي أن نميّز بين من ألبس الإرهاب بمصطلحٍ ليس له علاقة بمفهومه (تفخيخًا وتقتيلًا)، ومن يريد أن يبيّن مفهومه الذي لا يزيد عن كونه قبول تحدٍّ؛ إذ لا ظلم ولا عدوان، ولنتبيّن ذلك وجب علينا أن نميّز بين مفهومي: (**الإرهاب والإرعاب**):

إنَّ الذين يفخِّخون أنفسهم أو مقرّات الآمنين وأماكن لقاءاتهم ووسائل تنقّلهم وينسفونها بغاية دخولهم الجنّة؛ فالجنّة لا يمكن أن يدخلها القتلة الظَّلمة، ومثل هذه الأعمال والأفعال الشاذّة توصف بالمرعبة، ومن هنا وجب التمييز بين مفهوم الإرعاب الذي لا يأتي الرُّعب إلَّا منه، ومفهوم الإرهاب الذي لا يأتي الرّهب إلَّا منه؛ قال تعالى: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}[241]؛ قال تعالى: {سَأُلْقِي} وكلمة {سَأُلْقِي} في اللغة العربية ذات أثر ومدلول عظيم، ومفهومها في هذه الآية بالتمام كما تلقي المدافع والطّائرات قنابلها على رؤوسٍ وأهدافٍ يُراد لها أن تدمّر، هكذا يكون أثر إلقاء الرُّعب في القلوب إن لم يكن أكثر أثرًا وشدّةً؛ ولهذا جاء مفهوم ضرب الأعناق والبنان أفعالًا محقّقة لترعيب القلوب: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}، وإلَّا هل هناك من يخالفنا بقوله: إنَّ ضرب الأعناق وضرب البنان ليس بمرعبٍ؟

وهنا نقول: إنَّ أفعال الإرعاب تكاد أن تتفجّر القلوب منها وتتمزّق، وإنَّ أشد الآلام والأوجاع عندما يُقذف الرّعب في القلوب قذفًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}[242].

ولأنَّ المقذوف في تشابهه كما هو حال مقذوف المدفعيّة بغاية رمي الأهداف؛ فإنَّ المرمى بالمقذوف لن يكون إلَّا مستويًا على الأرض ترابًا؛ ولهذا جاءت كلمة (وقذف) في هذه الآية؛ لتبيّن شدّة أثرها في القلوب رُعبًا.

ومع أنَّ القذف بالحجارةِ أو بحممِ البراكين دمغها شديد فإنَّ القذف بالحقِّ على الباطل في مرضاة الله هو أكثر دمغًا وأكثر شدّة، قال تعالى:

---

[241] الأنفال: 12 – 14.

[242] الأحزاب: 26.

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[243].

إذن: وفقًا للآيات السّابقة نلاحظ أنَّ مفهوم الرّعب جاء بدلالة ترعيب القلوب، وفي المقابل جاء مفهوم الإرهاب بما يخيف الأنفس؛ ومن هنا فالفرق كبير بين ما يرعب القلب وما يرهب النّفس من حيث: إنَّ الرّعب لا يكون إلَّا نتاج فعل متحقق ألمًا، أمَّا الإرهاب فلا يكون إلَّا بما ينذر النّفس؛ كي لا تقدم على ما من شأنه أن يحدث ألمًا؛ قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}[244].

تدلُّ هذه الآية الكريمة على قبول التحدّي سلمًا لمن له رأي آخر وإن كان كُفرًا {قَالَ أَلْقُوا}، وهذا التحدّي سلمًا هو الذي ضبط هذه الآية بقيم استيعاب الآخر وقبول التحدّي حُجّة بحجّة، ومن وهنا ارتبط مفهوم الاسترهاب بمفهوم سحر أعين النَّاس {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}، أي: ارتبط مفهوم الإرهاب بإظهار القوّة والاستعراض بها وعدّتها أمام أعين النَّاس أو الخصوم دون استخدامها؛ وفي المقابل إذا تمَّ استخدام القوّة ساد الترعيب على حساب سيادة الترهيب ظلمًا وعدوانًا؛ وذلك كما حدث بالتمام في أحداث 11 من سبتمبر 2001م بالولايات المتحدة الأمريكية، وكما حدث في مرفأ بيروت 4 من أغسطس 2020م، وكما حدث في كثيرٍ من دول العالم من تفخيخ وتفجير ودهس مرعب بالسيارات التي جعلت

---

[243] الأنبياء: 18.

[244] الأعراف: 115، 16.

من أجساد الأبرياء أشلاء متناثرة، ومن بقي منهم على قيد الحياة جريحًا بقي غارقًا في الدِّماء مرتعبًا.

إنَّ هذه الصّفات كلها صفات للإرعاب والمرعبين والمرتعبين، أمَّا الإرهاب فلا يزيد عن كونه إعداد عدّة وقبول تحدٍّ لمن شاء أن يعتدي ويتمدّد على حساب الغير ظلمًا، ومن ثمَّ فإنَّ الوقوف عند حدود الاستعراض بالقوّة يُرهب الأنفس ويجعلها تعيد حساباتها قبل أن تقدم على أيٍّ من أفعال الرّعب؛ ولهذا تعد الدّول التي تمتلك القنابل الذريّة مرهبة لبعضها البعض ومرهبة للغير، ومن هنا فامتلاك السّلاح يعد (مُرهبًا) أمَّا استخدامه فيعد (مرعبًا)، وهذا بالتمام ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في أغسطس 1945م بقصف مدينتي: هيروشيما وناجازاكي باستخدام القنابل الذرية المرعبة؛ بسبب رفض تنفيذ إعلان مؤتمر بوتسدام الذي نصَّ على أن تستسلم اليابان استسلامًا كاملًا من دون أية شروط، ولكن رئيس الوزراء الياباني (سوزوكي) في ذلك الوقت رفض المهلة المحددة وتجاهلها؛ فأصدر الرّئيس الأمريكي (هاري ترومان) الأمر المرعب بإطلاق السَّلاح الذري المسمَّى (الولد الصَّغير) على مدينة هيروشيما يوم الاثنين الموافق 6 من أغسطس عام 1945م، ثم تلاها إطلاق قنبلة (الرّجل البدين) على مدينة ناجازاكي في 9 من أغسطس وهو اليوم الثَّالث من إلقاء القنبلة المرعبة على مدينة هيروشيما[245].

ولذا فحمل السّلاح يُرخّص له قانونًا؛ بغاية حماية النّفس، ثمَّ إرهاب من تسوّل له نفسه أن يعتدي على الغير، أو يتمدد على حساب حريَّاتهم

[245] حكيم جوي، تاريخنا الحرب والسلام، نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1995م، ص 84.

وممتلكاتهم وأوطانهم، أمَّا استخداماته في غير أوجهه القانونية فيخرجه من دائرة (الترهيب) ويدخله في دائرة (الترعيب) المحرّم والمجرَّم دينًا وعرفًا وقانونًا.

ولهذا فمفهوم الإرهاب يخالف مفهوم الإرعاب من حيث: إنَّ الإرهاب لو لم يكن يحمل من الخير ما يعود على حامله، ما قُرن كما سبق تبيانه بالرّأفة والرَّحمة؛ ولذلك فالرَّهبانيّة بهذه الصّفات الحميدة التي عُطفت عليها أوجبت لها فعل الخير، {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً}.

وعليه: لم ترد كلمة الإرهاب في القرآن الكريم ولو لمرّة واحدة بمفهومٍ سالبٍ، بل أينما وردت وأُنزلت جاءت موجبة وفيها من الرَّأفة والرّحمة ما يحول بين خلاف النَّاس واقتتالهم.

ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم كلمة (رهيب) يعني مما يعنيه كلمة (عظيم)، فالإنسان إذا ما وَجد نفسه في موقفٍ عظيمٍ جليلٍ مهيبٍ وصفه بأنَّه موقف (رهيب)، ومن هنا، فأهل العقول تستوقفهم المواقف والمشاهد الرّهيبة؛ كونهم أُناس يميّزون بين ما يُقدّر وما لا يقدّر، وبين ما يُعظّم وما لا يُعظّم، ومن ثمَّ فإنَّ كل شيء له رهبة تحلّه الهيبة وتكسوه؛ ولذلك فالمواقف الرّهيبة تحمل في مضمونها الهيبة التي تستوقف النَّاس وتلفتهم إليها، وكذلك تلفتهم إلى أنفسهم وما يجب أنْ يتخذوه تجاه ما يترتّب عليها من مواقف.

ولذا فإنَّ إعداد العدّة والاستعراض بها قوّة ترهب الأعداء، ثم تعيدهم إلى الذَّاكرة؛ ليعيدوا النّظر في رؤاهم وما سبق لهم أن رسموه من خطط تجاه مَنْ لم يكن يمتلك القوّة مِن قَبل، وهذا الأمر يجعل العودة ميسّرة إلى استخدام

لغة الحوار في تسوية الخلافات بين الدّول والشّعوب، وفي المقابل عدم امتلاك الضعفاء لمقاليد القوّة يحفّز الأقوياء (المالكون لها) على التمدد عدوانًا على حساب حريَّة من لا يمتلك مقاليدها.

ومن هنا فالقوّة عندما تكون رهيبة ضاربة تستوقف عقول المشاهدين من أهلها حتى يعظّموها تفاخرًا؛ كونها تعكس نهضة وطنهم، وتحافظ على هويّتهم وسيادتهم، وكذلك فهي تستوقف عقول الغير وتعيدهم لتغيير خططهم وسياساتهم واحترام من لم يسبق له نيل الاحترام منهم.

ولهذا فإنَّ المواقف الرّهيبة تُمكّن من أخذ الحيطة والحذر وتجنُّب المواجهات المؤلمة، وهذا ما حدث بالتمام بين الهند والباكستان، فعندما كانت دولة الباكستان لا تمتلك القنبلة النوويّة ودولة الهند تمتلكها؛ كانت الباكستان مرتهبة ومرتعبة في وقت واحدٍ، أمَّا الهند فليست كذلك، ولكن بعد أن امتلكت الباكستان القنبلة النوويّة أصبحت الهند مرتهبة بالتمام كما كانت الباكستان مرتهبة، ومن هنا أصبحت الهند تحسب للباكستان حسابًا لم يسبق لها وأن حسبته (القوّة النوويّة لا تُرهبها إلَّا قوّة نوويّة)، وهكذا دائمًا القوّة لا ترهبها إلَّا القوّة وتستوقفها عند حدودها وتعيدها إلى حيث ما كانت.

ومع أنَّ امتلاك القوّة النوويّة مرهبٌ فإنَّ استخدامها ليس بهينٍ، ولهذا فإرهابها يجعل الكلّ يقف عند حدوده، وهذه من نعم الإرهاب (أنْ يقف

الكلّ عند حدّه)؛ قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[246].

يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ إعداد العدّة مأمور به أمرًا من عند الله {وَأَعِدُّوا}؛ وجاء هذا الأمر بغرض إرهاب من يضمر الاعتداء ظلمًا، وذلك بغاية إرهابهم؛ حتى يقفوا عند حدودهم ولا يقدموا على أفعال العدوان.

ولذا فما كان في مفهوم الإرهاب تطرُّفٌ أو رُعبٌ، ولن يكون كذلك، ومن ثمَّ فإنَّ الإرهاب والخوف والفزع والرّعب والوجل والتوجّس ألفاظٌ ليست بمكرّرة لمفهوم واحد، وبهذا ينتفي إطلاق لفظ الإرهاب على فعل لا ينطبق المفهوم عليه والمعنى، ولا يوضح دلالته، ومن أجل الوقوف على الفرق بين المعاني والمفاهيم، أخذنا أفصح النصوص لغة وأعظمها دلالة وأيسرها مفهومًا، تلك التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا يرقى إليها شكّ، ولا ينتاب أحد فيها توجّس، بحيث تطمئنّ إليها القلوب والعقول من القداسة والفصاحة والدّلالة والمفاهيم، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[247].

إنَّ إعداد العدّة الإرهابيَّة أمر من القضايا العقليَّة التي تثبتها البراهين المنطقيَّة؛ حفاظًا على سلامة الفرد والمجتمع والقيم الأخلاقيَّة الحميدة والفضائل الإنسانيَّة الخيّرة؛ فالنصّ القرآني وفقًا لما أُنزل بخصوص الإرهاب من وضوح المفهوم والمعنى أنَّه لا يحتمل مفهومًا آخر غير التهيؤ والاستعداد

---

[246] – الأنفال: 60.

[247] – الأنفال: 60.

والتأهب أخذًا بالأسباب مع وافر الحيطة والحذر، وليس تحريضًا على العدوان وارتكاب المظالم، فالمصطلح لا يحتمل ما حمّلوه من دلالة الترعيب والفزع، ولا يُفهم منه التفخيخ والتقتيل والسّلب والنهب والاعتداء الذي يمارسونه في غير مرضاة الله تعالى.

فالإرهاب دعوة إلى إعداد العدّة دائمًا، واستكمال القوَّة بأقصى الحدود الممكنة؛ لتكون القوَّة في مواجهة القوّة التي ترهبها، ومن هنا فالنصّ القرآني أمر بإعداد القوَّة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها، والغاية من الإعداد والاستعداد والتهيؤ والتَّأهُّب الذي يوصل إلى الإرهاب، أنْ يأمن المعدّ للعدّةِ على حرّيّته وماله ونفسه وأرضه وعِرضه، ومن هنا يُرهب الأعداء حتى يبلغ بهم الرَّهب إلى عدم التفكير في العدوان ظلمًا، وعلى هذا يكون الإرهاب منهجًا عمليًّا واقعيًّا للحياة، يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سُلطات، ومن ورائها تقفُ أنظمة وقوى تسعى إلى الإضرار بالآخرين بأساليب شتّى ووسائل مختلفة؛ ولذا فلا مفرّ من الأخذ بما يُمكِّن من الإرهاب؛ تحسبًا للعدوان ظلمًا.

ومن ثمَّ جاء الأخذ بالإرهاب أمرًا للمسلم؛ ليكون على القوّة مُرهوبًا لمن تسوّل له نفسه، وطائعًا لأمر الله؛ إذ لا ظلم ولا عدوان إلَّا على مَنْ ظلم واعتدى.

وهنا فالمنهج الإرهابي في الآية الكريمة {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} جاء واضحًا بيّنًا؛ إذ لا عدوان فيه ولا ظلم ولا غصب ولا إكراه ولا ترعيب للنَّاس، ولكنّه أمرٌ في

حدود التكليف بإعداد القوَّة؛ بحيث لا إهمال لأيّ سبب من أسبابها إلّا والأخذ به واجب والعدوان به ممتنع؛ ذلك أنَّه بغاية إلقاء الرَّهبة في قلوب الأعداء؛ حتى يقفوا عند حدودهم.

فمثل هؤلاء ترهبهم القوَّة دون أنْ يمتدّ الفعل إليهم؛ لأنَّ القوَّة الإرهابيَّة لن تمتدّ ولن تخرج من الإرهاب إلى فعل القتال إلاّ بأسباب أخرى وفعل آخر غير الإرهاب، كأن تواجه الظُّلم أو العدوان؛ مصداقًا لقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[248].

من خلال هذه الآية والوقوف على معانيها ومفاهيمها ودلالاتها، لا يمكن لعاقل يتكلّم بلسان الضّاد أن يجمع بين مفهوم العنف والتطرُّف والقتل والجريمة التي ينتج عنها الرُّعب والفزع والهلع، ويضعها جميعًا تحت اسم الإرهاب في مفهوم واحد ليؤدّي المعنى الذي أقحم على لفظ الإرهاب قسرًا؛ بحيث جعل الأسماع تنفر منه لما افتُريَ على هذا المفهوم من افتراءات، وكأنَّ الغرض منها تسمية الأشياء بغير مسمّياتها، ووصفها بغير أوصافها؛ حتى يفلت المجرم من العقاب، ويصبح الضحيّة هو المتهم.

إنّ المتتبع للأحداث السياسيَّة ومحاولة النيل من المسلمين ودينهم، يجد أنَّ مصطلح الإرهاب لم يعدّ يسيرًا في مفهومه ودلالته ومعناه الذي أشارت إليه الآية الكريمة وأمرت به؛ فالله –تعالى– يأمر بالعدل والإحسان، ويأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ومن هذا المنطلق يجب

[248] البقرة: 216.

أن يُنظر إلى دلالة المصطلح ومفهومه ومعناه فيما أمر الله –تعالى– من الأخذ بالإرهاب وأسبابه، لا بما أُقحم عليه من مفاهيم وأُلصق به من تهم التشدّد والتطرُّف والخطف والقتل والتفخيخ والترعيب وتفجير الأبرياء وممتلكاتهم بغير حقّ، حتى أصبح مفهومًا مُرعبًا ومعقّدًا ومركّبًا إنسانيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وعلى هذا نجد كلّ باحث أو كاتب أو متكلّم في هذا المجال، يرى ما لا يراه الآخر، ويجد فيه ما لا يجده غيره؛ من حيث مصداقيّة الدّلالة ومطابقة الكلمة للمعنى ومواكبة اللفظ للمفهوم؛ ولذا فبهذا المفهوم نجد مصطلح الإرهاب قد أصبح مساويًا للتطرُّف، ومتماثلًا مع العنف، ومرادفًا للخوف، ودالًّا على القتل، ومتطابقًا مع الرُّعب، ويعني الإجرام ويشار إليه بالانتحار، فأيّة لفظة هذه التي أصبحت جامعة لكلّ هذه المعاني من الأفعال العدوانيَّة، وأيَّة لغة هذه التي تقصر فيها الألفاظ على استيعاب المعاني، فتحمّل لفظة واحدة؛ لأنّها لا تمتلك من الألفاظ ما يستوعب أفكارها.

وعليه: ينبغي أن نميّز بين الأمر الذي يُرهب حتى يُعظّم، والأمر الذي يُرعب حتى يتمّ القضاء عليه ويُقلع من جذوره، ومن هنا يجب التمييز بين الأمر الذي يُعيد الإنسان إلى ذاكرته، والأمر الذي يجعله أشلاءَ ولا ذاكرة؛ ولذا فالإنسان عندما يتعرّض إلى مواقف رَهيبة يحسب كلماته قبل أن ينطقها ويقولها، وعندما يتعرّض لمواقف مرعبة فلا تجد الكلمات مكانًا لها على لسانه مما يجعله في حاجة إلى مُنقذ أو عكّاز يتوكأ عليه إن استطاع أنْ ينهض.

ومن هنا فالإرهاب في لغتنا وثقافتنا لم يتمّ تداوله اصطلاحًا إلَّا في العقدين الماضيين؛ نتيجة ظروف جاءت بضغوط خارجيَّة، واتجاهات سياسيَّة غربيَّة، آثرت إقحام اللفظ اصطلاحًا وفق مفهوم غربي، بما له من دلالات في اللغات اللاتينية؛ ولذا كان تعريفه اصطلاحًا وفق مفاهيمهم: "في اتفاقيّة لاهاي 1907م المادة (22) التي نصّت على أنَّ: الضّرب بالقنابل من الجو يعدُّ عملًا غير مشروع إن كان يهدف إلى إرهاب السكّان، وفي عام 1934م اتخذت عصبة الأمم قرارًا بتشكيل لجنة خبراء لدراسة ظاهرة الإرهاب، وكان أوَّل قرار اتخذته الأمم المتحدة مختصًّا بمحاربة الإرهاب القرار رقم: "2197" بتاريخ 1972/12/18، ونصّ القرار على إجراءات منع الإرهاب الدّولي، ودراسة أسباب الإرهاب وأشكاله. وفي سبتمبر 1992م أدرج موضوع "الإرهاب" رسميًّا في جدول أعمال الجمعيَّة العامَّة للأمم المتحدة؛ بهدف وضع تعريف محدّد للإرهاب"[249].

ومن هنا كانت الجامعة العربيَّة مضطرة لأنّ تحدّد مفهوم المصطلح سياسيًّا؛ وذلك ضمن الاتفاقيَّة العربيَّة لمكافحة الإرهاب التي وقّعت في القاهرة في يوم 1988/4/22م؛ حيث نصّ التعريف على أنَّ الإرهاب: "كلُّ فعلٍ من أفعالِ العنفِ أو التهديد به أيًّا كانت بواعثه، أو أغراضه، ويقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي، أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرُّعب بين النَّاس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق أو الأملاك العامَّة، أو

[249] – الحضارة الإسلامية، ج7، ص172.

الخاصّة، أو احتلالها، أو الاستيلاء عليها، أو تعريض أحد الموارد الوطنيَّة للخطر"[250].

كل المصطلحات التي وردت في هذا التعريف لا علاقة لها بمفهوم الإرهاب كما أمر الله به قرآنًا، بل لها علاقة بمصطلح العنف والجريمة والرُّعب، ومن ثمّ فلو طُلب منهم أن يعرّفوا مصطلحات: العنف والرّعب والجريمة فلا أدري بماذا سيعرفونها!!!.

الحكمة من الإرهاب:

إنَّ جميع الشرائع السماويَّة والقوانين الوضعيَّة بيّنت الأسس والمنطلقات من الأوامر والنواهي والمباحات التي تضبط العلاقات الإنسانيَّة بين البشر، بصرف النظر عن الدين أو اللون أو العرق؛ فهذه الشرائع أمرت بأشياء ونهت عن أشياء، وسكتت عن أشياء، وليس ذلك من باب الصّدفة أو العبث أو الانتقاء، وإنّما هو دليل على حكمة الشّارع في تفصيل التشريع، وتوزيع أبوابه وتعدّد مناحيه، فإن لم تدرك الحكمة من نصّ التشريع، فسوف تدرك من التطبيق والممارسة، والبعض يقف على تلك الحكمة بالبداهة، وإن كان البعض الآخر عنها غافلًا.

فالحكمة من تحريم ما حُرّم؛ إمَّا إنَّه يشكّل خطرًا، أو إنَّه يجلب ضررًا.

والحكمة من مشروعيّة الأخذ بما وجب؛ أنّه يؤدّي إلى منفعة، أو يدفع خطرًا، أو يمنع ضررًا.

---

[250] – الحضارة الإسلامية، ج7، ص172.

والحكمة من المباحات التي ليس الأخذ بها واجبًا، ولا تركها محرّمًا؛ لأنَّه لا يترتّب على الأخذ بها ضرر، ولا على تركها ضرر، فإن انتفع الآخذ بها لا يضرّ ذلك من تركها، ويترتّب على ذلك أن المباح غلبت منفعته على ضرره، فلا يثاب آخذه ولا يأثم تاركه.

ولأنَّ الإرهاب لم يخرج من المباح ولم يدخل في التحريم، فلم يبقَ له إلّا بابٌ واحدٌ وهو باب الوجوب؛ ولذا فقد أمر الله –سبحانه وتعالى– المؤمنين بالتهيؤ والإعداد والاستعداد والتأهّب، وصولًا إلى مرحلة الإرهاب، ولأنَّ الإرهاب لم يكن من المحرّمات، ولم يخرج من الإباحة فلم يعد فيه تخيير؛ ولذا دخل في باب الوجوب؛ بحيث أصبحت القضيَّة من الأوامر، والأخذ بها من اللوازم.

وأمَّا الأخذ بما نُهي عنه فإنُه يؤدّي إلى خلل يترتّب عليه مضارٌّ كثيرة، وترك ما وجب الأخذ به يترتّب عليه ضرر أكبر، ومن هنا تظهر الحكمة من تشريع الإرهاب وجوبًا في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[251].

فمن المسائل التي يجب أن يُنظر إليها من زاوية الحكمة، التي من أجلها يُرسّخ مفهوم الإرهاب، ويُحضّ على الأخذ به، أنَّ الله –سبحانه وتعالى–جعله الحدّ الفيصل في التوازن بين البشر؛ كي لا يكون قوم مستضعفون في الأرض فيتخطَّفهم النَّاس؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ

[251] – الأنفال: 60.

أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاس فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[252].

ومن هنا فتوازن القوّة يحقّق الإرهاب الواقي من العدوان والممكّن من تحقيق الهيبة والاعتزاز والمنعة، كما أنَّه يُمكّن من نيل الاعتراف والتقدير، وفي المقابل فمن لا يرهبه الإرهاب فقد يتجاوز حدّه بالتمادي والعدوان الذي وجب ردعه.

الإرهابُ بين خائفٍ ومخيفٍ:

الإرهابُ شعور تحذيري، يقع في نفس كلّ من الأنا والآخر، بتعادل الأثر المتطلّب الانتباه، وأخذ الحيطة من كلا الطَّرفين؛ حتى يتداعيا إلى الالتقاء المؤدّي إلى التفاهم والتفهّم، ممّا يجعل الأنا والآخر على غير خوف، ولكن إن لم يتمّ التفاهم والتفهّم بمعطيات الإرهاب المسالمة فقد يقع العدوان المخيف ظلمًا؛ فيفرض ردًّا قد يكون قاسيًا في دائرة الممكن غير المتوقَّع.

أمَّا ما يجري من اعتداءات ظالمة على الآخرين كرهًا وتفخيخًا وتقتيلًا؛ فلا علاقة له بمفهوم الإرهاب الذي يُقرّه الدين الإسلامي، والذي لو تحقّق بين النَّاس (سِلمًا) لما كانت تلك الأفعال الظَّالمة أن تحدث؛ ولذا وجب أن يقف الكلّ عند حدّه، ولا يمتدّ داخل حدود الآخرين وعلى حساب حريّاتهم والقيمة العظيمة التي خلقهم الله عليها؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[253].

---

[252] – الأنفال: 26.

[253] التين: 4.

وعليه: فالإرهاب (بين خائفٍ ومخيف)، هو ذلك الفعل الذي ينهي الخوف، ويُزيله من الأنفس؛ فالمخيف هو ذلك الممتلك للقوَّة المعدَّة وفقًا للاستطاعة الممكِّنة من إلحاق الأذى والضرر بالآخرين ظلمًا، أمَّا الخائف فهو ذلك الضّعيف الذي لم يتمكّن من امتلاك القوَّة التي تُمكِّنه من استرداد حقوقه، التي أخذت منه ظلمًا، وسيظل الخائف خائفًا من المخيف إلى أن يتمكَّن من إعداد القوَّة وامتلاكها؛ فإن تمكَّن من امتلاكها وإعدادها تحرّر من الخوف، وأصبح مُرهبًا للذي كان مخيفًا له، وحينها تتعادل كفتا الميزان العدل على أن يقف كلٌّ عند حدّه، ولا يعتدي على غيره.

إذن: الإرهاب: فعل قوَّة يقع أثره على الذين يعرفون خطورة العُدّة التي إن تقرّر وتمَّ استخدامها بمهارة يكون الضّرر عظيمًا، ممّا يستدعيهم إلى تقدير الموقف وتجنب دخول المعركة، والقبول بالحوار والتفاوض على كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى اشتعال نار الحرب؛ ولهذا فالإرهاب هو الحلّ الممكّن من القضاء على الخوف، ومن دونه ستكون النتائج بين الأنا والآخر دائمًا بين غالب ومغلوب، وخائفٍ ومخيفٍ.

ومع أنَّ الإرهاب لا يكون إلّا لاتقاء الشّرور، ولا يكون إلَّا من عظمة العدّة، فإنَّه أيضًا يكون من عظمة الطَّاعة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}[254].

[254] الأعراف: 154.

يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ الغضب يُخرِج الإنسان عن اتزانه النَّفسي؛ ولذا فاتخاذ القرارات عن غضب لا يؤدّي إلى بلوغ نتائج صائبة، ممّا يستوجب الرّضا والطمأنينة المعيدة للإنسان توازنه النَّفسي، كما فعل موسى –عليه الصَّلاة والسَّلام–عندما أخذ الألواح بعد طمأنينة واتزان، فكانت الرَّهبة في قلبه، وقلوب الذين آمنوا معه هدى ورحمة من الله تعالى.

وعليه: لو كان مفهوم الإرهاب كما هو مُسوّقٌ له في هذا العصر، لما ارتبط بمفهومي: (الهدى والرَّحمة)، ومن هنا فلا يكون تحقّقه بأثر الخوف، ولكن بأثر امتلاك القوَّة، وإعدادها المتوازن بين الأنا والآخر؛ ولذلك عرّفنا الإرهاب مفهومًا بأنَّه: (شعور تحذيري يقع في نفس كلّ من الأنا والآخر، بتعادل الأثر المتطلّب الانتباه وأخذ الحيطة من كلا الطَّرفين؛ حتى يتداعيا إلى الالتقاء المؤدّي إلى التفاهم والتفهّم، ممّا يجعل الأطراف المتخالفة على غير خوف، وفي المقابل إن لم يتمّ التفاهم والتفهّم بمعطيات الإرهاب المسالمة فقد يقع العدوان المخيف ظلمًا؛ ومن ثمَّ يفرض ردًّا قد يكون قاسيًا ومؤلما).

إذن: من المعلوم أنَّ من يعدّ عُدَّة أنَّما يقصد أوَّلًا وعلى سبيل التفكير المنطقي: أنْ يوقف العدوان الذي يتوقّع حصوله من خصمٍ ما، ولكن إذا لم توقف العُدَّة التي أعدَّها هذا المعدُّ؛ فمن المنطقي ومن العدل أن تُستخدم في موضع الدِّفاع عن النَّفس، وهو أمرٌ تقرُّه الشرائع الإلهيَّة والدّساتير الإنسانيَّة على حدٍّ سواء، بل إنَّ حقَّ الدِّفاع عن النَّفس هو حقٌّ مقدَّس لدى المجتمعات الإنسانيَّة.

ولذا فمن يعدّ عُدَّة لكي يبدأ بها عدوانًا بإصرار وترصّد فهذا خارج دائرة الإرهاب، وهو في دائرة العدوان؛ لأنَّ الإرهاب الحقيقي هو الذي يوقف العدوان ويمنع الظُّلم بما يحقّق من الطمأنينة والاستقرار.

إذن: فمن يقوم بالإعداد لعدّة داخل مجاله دون سعي منه للامتداد على حساب الآخر فعمله يُعدُّ عملًا خاليًا من العدوان، ومجردًا من الرَّغبة في إلحاق الضّرر بالآخرين، ولا باطل فيه؛ لأنَّه وعلى وفق المفهوم أعدَّ ذلك؛ ليمنع وقوع العدوان، وهو بذلك حقّق طمأنينة منشودة، وأبعد عن نفسه ومجتمعه شبح الخوف الذي لو ساد فسيكون هناك انفلاتٌ سلوكيٌّ في ردّة الفعل قد يصل في بعض الأحيان إلى حدّ الكارثة، وما يمكن أن يكون في دائرة الممكن غير المتوقَّع.

ولذا؛ عندما يبث المخيف مخاوفه باتجاه الآخر، ويتملّك الخوف منه؛ ففي دائرة الممكن المتوقَّع أن يكون هناك ردّة فعل على ذلك، وهذا الأمر يُفضي إلى ظهور العنف بشتى أشكاله، وبمظاهر متباينة، وهذه المظاهر تدور كلّها في فلك ردّة الفعل؛ فكلّ من يُعدُّ العدَّة بقصد وإصرار وترصّد على إخافة الآخرين لا بدَّ أن يولِّد خائفين، وإذا وَلَّدَ الخائفين فهم بالمنطق يقدمون على أفعال المواجهة من الخوف، أو مواجهة ما يخيفهم فعلًا وعملًا وسلوكًا؛ فالخوف لا بدَّ أن يولِّد ردّة فعل؛ لأنَّه من ثوابت الفطرة الإنسانيَّة؛ التي تدفع الإنسان إلى الإتيان بردّة فعل لها، من أجل درء مسبِّب الخوف؛ ثمّ الانتقال من حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة.

ومن هنا فإنَّ الإرهاب الناتج من إعداد العدّة من دون شكّ يجعل من كان مخيفًا واقفًا عند حدّه، وهو يحسب في نفسه ألف حِساب لِما يراه من عُدّة مرابطة على الطّرف المواجه له، أمّا الذي أعدَّ العدَّة ووقف عند هذا الحدّ إنَّما يقصد من إعدادها أن يمنع العدوان، ولكنَّ سيطرة الخوف على الجماعات أو المجتمعات من خلال سياسة التخويف من الأقوياء للضعفاء سيترتّب عليه ولاشكّ البحث عن حلّ، ربما يكون الحلّ منطقيًّا عادلًا، وربما يكون الحلّ اعتداءً، أو فداءً، أو تفخيخًا، أو أيَّ سلوك يعدّه البعض خارج دائرة المنطق.

وهكذا فإنَّ الإرهاب من حيث المفهوم لا يتداخل مع سلوكيَّات الاعتداء والإجرام والتفخيخ، واختطاف النَّاس، والإهلاك على الإطلاق، بل هو يتقاطع معها في أنَّ الإرهاب مانع للاعتداء، ويدعو إلى منع العدوان في كلِّ مكان، وأيِّ زمان، في حين أنَّ العدوان سلوك فاعل يهدف إلى إيقاع الأذى بالآخرين، ويدعو إلى أفعال عدوانيَّة، ويحث عليها.

إنَّ الفرق بين المرهب والمخيف هو أنَّ المرهب يمتلك القوَّة، ويتحكّم في مقاليد الأمر، ولم يستخدمها في أيِّ مظهر عدواني سوى الردّ على العدوان، وهو الذي يمتلك القوَّة؛ لكيلا تسود المظالم بين النَّاس.

أمّا المخيف فهو مَن يعدّ العُدّة بهدف الاعتداء على حقوق الآخرين وأوطانهم وثرواتهم ظلمًا؛ ولذا فكلّ من يُعتدى عليه ظلمًا سيظل خائفًا من الذي يشكّل خطرًا عليه؛ ولهذا لم يكن الخوف من العُدَّة التي تُرهب، بل الخوف من استخدامات العُدة بغير حقّ.

إذن: امتلاك القوَّة يجب تحقّقه في الأفراد والجماعات والمجتمعات، على أن يكون امتلاك القوَّة من أجل تعادل الأطراف على مركز الاتزان المعياري الذي كلّما تكرّر المقياس به كانت النتائج المتوصّل إليها هي كما هي من أجل الجميع، لا من أجل مغالبة طرف على طرفٍ، وبهذه النظرة الإنسانيَّة يختفي الخوف، وبخاصّة عندما يرى الأنا الآخر أنَّه لم يعدْ يشكّل خطرًا عليه؛ ولذا تنتهي مظاهر الإخافة التي تورِّث الظُّلم والعدوان، إلى جانب أنَّها ستبذر في النَّفس الإنسانيَّة بذور العداء التي من الصّعب اقتلاع جذورها.

ولو تسنّى أن نسأل اليابانيين الآن وبعد نحو أكثر من ستّين سنة من استخدام أمريكا للقنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي، وبعد التقارب الحاصل بين الحكومتين، ومنذ زمن بعيد، هل يرون أنَّ أمريكا صديقة أم عدوة، في اعتقادنا أنَّ كثيرًا من المواطنين اليابانيين لم ينسوا عدوان أمريكا عليهم بالقنابل النوويَّة المرعبة، وهكذا حال الشّعوب التي تعرّضت للاحتلال ستبقى تتذكّر تلك المذابح والمقابح والجرائم الإنسانيَّة.

إذن: سيبقى النسيان بعيدًا ما دامت ذاكرة الإنسان والتَّاريخ ناطقة بما للتخويف والإخافة والاعتداء والعدوان من أثر مؤلمٍ في النفوس.

وعليه: فإنَّ مقولة: (إنَّ الخوف دائمًا يجعل من الخائف مستسلمًا للمخيف) مقولة باطلة، ومن يظن غير ذلك سيجد الزّمان كفيلًا بإظهار الحقيقة؛ ولهذا لن يؤكل دَينٌ ووراؤه مطالبون؛ فالخوف في دائرة الممكن هو الذي يجعل المخيف يقبل الإقدام على فعل أيِّ شيء، حتى ولو كان انتحارًا.

ومن هنا فالعلاقة بين الخائف والمخيف علاقة (لا ثقة) تسندها، بل الذي يسندها هو العمل على كسب الوقت؛ فالزَّمن بالنّسبة إلى الخائف كفيل برمي الخوف في القمامة، وكفيل بامتلاك القوَّة لمن يسعى لامتلاكها، وكفيل بتغيير الأحوال من الغفلة إلى الفطنة والصّحوة، وكفيل باسترجاع الحقوق، وكفيل بإلحاق الانتقام من الذين يظلمون: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[255]، وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالمونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[256].

ولأنَّ الخائف يعلم جيّدًا أنَّ الخوف مؤقّت؛ فهو لم يكن متسرّعًا ولا مستعجلًا، بل لثقته بأنَّ اليد التي امتدّت عليه ولا يستطع قطعها ليس له من بدٍّ إلّا أن يُقبّلها إلى أن يستطيع، وعندما يستطيع عُدّة وقدرة سيكون الإعلان عن ذلك بالنّسبة إليه ضرورة، وستكون المعادلة الجديدة مؤسَّسة على ردِّ الاعتبار، ونيل الاعتراف والتقدير من الآخر الذي كان غافلًا عن حقيقة من أخافه ظلمًا، وإن لم تكن الاستجابة المرضيّة ستكون المواجهة معه حتميَّة.

وعندما يكتشف الذي كان مخيفًا بأنَّ الخائف قد امتلك القوَّة المرهبة، لا شكّ أنَّه سيرتهب، وحينها سيقبل بتقديم التنازلات الممكّنة من تفادي المواجهة، ويقبل بتعادل الكفّتين بعد إن كانت كفّته مُرجّحة.

---

[255] إبراهيم: 47.

[256] إبراهيم: 42.

ومن ثمَّ فإنَّ الإخافة لا تولِّد خائفين، بل تولّد المتمرِّدين والغاضبين والثائرين؛ ولهذا عُمْرُ الظَّالمين قصير؛ فلا يخيف، بل الذي يخيف ألا يَعدَّ الخائف العُدّة المرهبة للمخيف.

ولهذا فإنَّ مقولة الخائف والمخيف هي استثناء وليست قاعدة؛ فالقاعدة هي: (تبادل الثِّقة طمأنة)؛ وهنا تبقى القاعدة ويتغيّر الاستثناء، الذي يفترض أنَّ الإخافة لا تولّد إلا خائفين مستسلمين، ولم يفترض أنَّها ستولِّد متمرِّدين متأهبين للردِّ، والدِّفاع عن النَّفس، ومفكِّرين بشتى الوسائل لإيقاع أكبر الضرر بالمخيف إن لم يقبل بالوقوف عند حدّه.

والمثال الحي لإظهار العلاقة بين الخائف والمخيف هو ما يجري في هذه الأيَّام بين أمريكا وإيران، التي تسعى لإعداد العُدّة لمواجهة التخويف المتزايد تجاهها باستخدام القوَّة من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية، وفي مقابل ذلك إيران تعلم أنَّها لو أعدَّت العُدّة القتاليّة واستعدَّت وتأهبت فإنَّ الخوف بالنسبة إليها سينتهي، ومع أنَّ العدوان على إيران في دائرة الممكن المتوقَّع لن يحدث، فإنَّه في دائرة غير المتوقَّع ممكن الحدوث؛ وذلك من خلال سباق الإخافة والتخويف المحتدم بين الطَّرفين اللذين أحدهما يعمل على رفع سقف الإخافة، والآخر يسعى لامتلاك القوَّة، التي ترهب المخيف، وتوقفهُ عند حدّه.

ولذا فعلى الذين يعتقدون أنَّ التخويف هو الحلّ، أن يعرفوا لو كان التخويف حلًّا لما كانت أحداث 11 من سبتمبر المرعبة ضربة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية، وعليهم أن يعرفوا أنّ الخائف سيظل دائمًا

متربّصًا بالمخيف يُقبّل يديه إلى أن تمكّنه الفرصة من قطعهما؛ لذلك فإنَّ ارتكاب المظالم المرعبة في معظمها هي رد فعل خائف من مخيف.

ولهذا لم تكن نظريّة الإخافة ولن تكون حلًّا، بل أنّها نظريّة لاشتداد التأزُّمات، وإن لم يُنزع التخويف من عقل المخيف؛ فلن يُنزع من ذهن الخائف تقبيل اليدين من أجل قطعهما.

إنَّ نظرة المخوِّف ترى أنَّه بحاجة إلى تجويد ملامح التخويف وتقويتها، من خلال استعراض أكبر كمٍّ من صور الاعتداء والبطش والظُّلم؛ ولهذا فالولايات المتحدة الأمريكيّة لم تقم بضرب عناصر من القاعدة ردًّا على أحداث سبتمبر فحسب، بل قامت بما هو أكبر من ذلك تهديدًا ووعيدًا، كما جاء على لسان رئيسها آنذاك جورج بوش: (من لم يكن معنا فهو ضدّنا)؛ فكان احتلال العراق واحتلال أفغانستان، مع وافر أساليب التخويف، والإيماء بالعصا الغليظة.

وعليه: فإنَّ نظريّة التخويف تجاه الضعفاء من ميزاتها أنَّها كلّما ازداد التخويف شِدّةً حفّز الخائفين على قبول التحدّي، وحفّزهم على التمرُّد والثورة حتى امتلاك القوَّة التي بها يُرهب المخيف ويقف عند حدّه

إذن: عندما يعرف المخيف أنَّ الخائف لا يخاف الموت، فبما سيخوفه؟

يقول جيمس ماتيل الذي كان رئيسًا لطاقم الموظفين بمكتب الخارجيّة الأمريكيّة للمحاسبة والشفافيَّة ببغداد: (الخوفُ هو الخيط المشترك الذي يَنْسجُ الحركاتِ السياسيَّة العَنيفةَ سويّة، هو لَيسَ الحافز الوحيد وراء

العنفِ السياسي، ولا بالضرورة الأكثر وضوحًا، لَكنَّه عمليًّا دائمًا هناك حينما نَسْألُ: لماذا يَكْره النَّاس، أَو لِماذا هم راغبون في القَتْل أَو الموت من أجل قضيَّة ما؟ الجواب دائمًا .... الخوف).

وهنا يمكن القول: إنَّ الخائف ليس بالضّرورة أن يكون خائفًا من الموت؛ فالمؤمنون يعتقدون أنّ الموت حقّ، ويعتقدون أنّ الأحياء لن يموتوا قبل أن تنتهي أعمارهم؛ ولهذا فهم لا يخافون الموت؛ لكونهم لن يموتوا إلَّا إذا كانت أيَّامهم التي أعدّها الله لهم قد انتهت، أي: إنَّهم يؤمنون أنَّ الحرب والاقتتال لا ينهي الأيَّام والأعمار إذا لم تكن عند الله منتهية: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[257]؛ ولهذا يخوضون الحروب إذا ما كُتبت عليهم كرهًا بوافر الاستبسال.

ومن هنا يعدّ الموت واقعًا لا مفرَّ منه، أمّا الخوف فأمره ليس كذلك، بل إنَّه من أمور أخرى، منها: الإلغاء، والتحقير، والتهميش، أو التسفيه، أو التغييب والحرمان، أو احتلال البلدان والأوطان، والاعتداء على الغير الذين لم يمتلكوا القوَّة، الأمر الذي يفضي إلى التفكير بالتخلّص من مصدر التهديد بكلِّ الوسائل سواءً أكانت متوقَّعة أم غير متوقَّعة.

وعليه: الكلّ يسعى للتخلّص من الخوف، أي: إنَّ كلّ الأطراف خائفة من الخوف، ممّا يجعلهم يسعون إلى التخلّص منه، وبكلّ الوسائل والأساليب؛ فالخائف هو خائف؛ لأنَّه يستشعر الخوف، ويريد أن يتخلّص منه؛ ولذلك يرى أنَّ العدوان على المخيف ربّما يُخرجه من حالة الخوف إلى

[257] النحل: 61.

حالة الاطمئنان؛ فالخوف شعور يعبّر عن عميق المعاناة المسيطرة على الإنسان؛ فيشلُّ رغباته في التفكير ممّا يجعل الإنسان في دائرة التوتّر والقلق المتصلين؛ من أجل البحث عن حلٍّ يفضي للوصول إلى حالة الاطمئنان المنشودة، الأمر الذي يوجّه السُّلوك إلى دائرة الممكن؛ للإقدام على الفعل المتوقَّع، والفعل غير المتوقَّع.

إنَّ المخيف من دون شكّ يعرف أنَّ الخوف شعور لدى كلِّ الكائنات؛ فما بالك بالبشر، إنّه شعور قوي يُحفّز على اتخاذ قرار المهاجمة للدّفاع عن النَّفس، دفاعًا شديدًا واضح المنهج، ومعلوم النتائج، أو دفاعًا هائجًا هستيريًّا ينتج ضررًا ربما يتجاوز حدود المهاجم إلى غيره، وما هو أبعد منه.

ولأنَّ الخوف مشكلة أنتجت قاعدة: (الخائف والمخيف)، وجعلت بعض الخائفين يقبل الموت، ويُقدم على تنفيذ أفعاله دون تردّد، ولأنَّ لكلِّ مشكلة حلًّا؛ إذن: **لماذا لم يلتقِ الخائف والمخيف لنزع الفتيل؟**

نقول:

الفتيل لا يمكن أن يُنزع إلا بالتقاء أيدي المخيفين بأيد الخائفين، ولكن هذا الأمر لن يتحقّق إلّا إذا امتلك الخائف القوَّة الفاعلة عُدّة وإعدادًا وتدريبًا ومهارةً وتأهّبًا، حينها يرتهب المخيف ويعرف أنَّ زمن الإخافة قد ولّى.

إذن: فلا إمكانيّة لتحقيق التوازن المؤدّي إلى السَّلام ما لم تتعادل كفّتا الميزان العدل بين المتخالفين؛ قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم

مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}[258]. يُفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّه لم يعدّ هناك وجود لخائفٍ ومخيف، بل الوجود لطرفين هم على القوَّة التي بها قد يتحقّق فعل الإرهاب؛ فالمؤمنون من جهة هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الله تعالى، والذين لا يفقهون هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الذين آمنوا.

ومع أنَّ الله هو أشدّ رهبة، فإنَّ الذين لا يفقهون عندما رأوا قوَّة الذين آمنوا ارتهبوا؛ فاعتقدوا أنَّها أشدّ رهبة من رهبة الله، ولكن الذين آمنوا يؤمنون بأنَّ رهبة الله أعظم، ولو أدرك الذين لا يفقهون أنّ الله هو الشديد لآمنوا أنَّ الله أشدّ رهبة.

ولهذا فإنَّ إعداد العدّة هو الذي يُرهب من لا يعترف ولا يقدّر الآخرين، ويوقفه عند حدّه، وإنْ لم يقف عنده سيُلقَّن درسًا يعيده إلى الذَّاكرة، التي تُمكّنه من الاعتراف بالآخر وتقديره؛ ولهذا فإنَّ إعداد العدّة التي ترهب الأعداء واجب الطّاعة؛ طَاعة لأمر الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[259].

معطيات الإرهاب:

---

[258] الحشر: 13.

[259] الأنفال: 60-61.

من دون شكّ لا يُعدّ الإرهاب مُعطية إلّا بعد إعداد العدّة؛ فبعد إعداد العدّة الحربيّة يصبح معطية يحسب له الخصم ألف حِساب، والإرهاب بطبيعة الحال مصدره الآلة المرهبة ولم يكن الإنسان؛ فالإنسان يخيف؛ ولهذا ينبغي أخذ الحذر منه، أمَّا الآلة فلا تخيف، أي: الذي يخيف هو الذي يستطيع أن يقرّر، أمَّا الذي يُرهب هو الذي يُلحق دمارًا وتدميرًا ماديًّا ونفسيًّا بلا رأفة.

ولذا يشكلّ مصطلح الإرهاب حضورًا واضحًا في هذا الزَّمن، بوصفه النقطة التي يلتفّ حولها الكثير من الإحالات التي لم تجد لها مكانًا إلا فيه، فالتوجّه الفكري الذي قاد هذه الإحالات اكتنفته عشوائيّة مغرضة خلقت له حالة من الانزواء الظني بعد أن حملت معها إدراكات متباينة في الوقوف على العتبة التي يمكن من خلالها الانطلاق نحو الوصول إلى تعريف يكون هو المرجع الذي يحدّد من خلاله المعايير التي يمكن أن تكون هي الملبّية للكثير من التساؤلات المتحقِّقة.

فمصطلح الإرهاب غير مفهومه؛ المصطلح هو ما يتمّ التعرّف عليه وفقًا لِما يسوّق له، وما يسوّق اصطلاحًا للإرهاب لا علاقة له بما في اللغة العربيَّة والدين الإسلامي من قريب ولا من بعيد بالمفهوم الدلالي للإرهاب؛ وهنا تكمن مشكلة تستوجب التصحيح والتصويب أو على الأقل التنبيه إليها ولفت الانتباه؛ لكيلا يؤخذ أحد بذنب أحدٍ.

وفي اللغة العربيَّة والدين الإسلامي جاء مفهوم الإرهاب فعلًا مترتّبًا على إعداد العدّة المضادة للعدّة والمتماثلة معها في القوَّة، والأخذ به واجب طاعة لأمر الله الذي لا يُقر ظلمًا ولا عدوانًا بغير حقّ.

أمَّا لدى أهل الغرب؛ فإنَّ الإرهاب هو فعل مرعب للآمنين، والقانون يُجرِّمُ مرتكبيه، وهو ما يرتبط بالفعل المضاد لاستقرار الأمن واحترام حريَّات الآخرين، وكأنَّه لا فرق بين مفهومه والإرعاب؛ ذلك لأنَّ الإرعاب أفعال مُفزعة تعطِّل العقل عن التفكير المتوازن، أمَّا الإرهاب فيُمكّن من التفكير الواعي الذي به يتمكّن العقل من إعداد القوّة وإظهارها دون أن تستخدم ظلمًا وعدوانًا، ولنأخذ المثال الآتي: عندما يُشاهد الشُّرطي بسلاحه في الأزقة والطّرقات فحمله لسلاحه وإظهاره للمشاهدة لا شكّ أنَّه يُرهب من يفكِّر في ارتكاب أفعال الجريمة ويجعله يعيد تحسُّبه فيما كان يفكّر فيه، وفي المقابل أهل العقول يطمئنون، أمَّا عندما تستخدم الوسائل والمعدات لدهس الآمنين وتفخيخ مقرّاتهم وتقتيلهم فلا وصف لهذه الأفعال إلَّا رعبًا وترعيبًا.

ومن هنا فمدى المشكلة بين اللغة العربيَّة والدين الإسلامي، واللغات الغربيّة مدى جعل الهوة متّسعة دلالة ومعنى؛ ولهذا فالمصطلح الذي يُقرّه أهل الغرب، لا يحمل مفهوم الإرهاب الذي أمر الله به، ومع ذلك لكلٍّ مبرراته الموضوعيّة، من حيث إنَّ:

1 ـ لغة العرب: لا تُقرّ الإرهاب وفقًا للمصطلح الذي تُقرّه اللغة الغربيّة؛ ولهذا لم يأخذ العرب بمصطلح الإرهاب كما يراه أهل الغرب، وفي

مقابل ذلك لم يأخذ أهل الغرب بمصطلح الإرهاب الذي تُقرّه اللغة العربيَّة؛ ولهذا وجب الالتقاء لصوغ المصطلح الحلّ.

2 . المسلمون: دينهم حدّد لهم ماذا يعني الإرهاب دلالة ومعنى؛ ولهذا فهم لا يرون الإرهاب والأفعال الإرهابيَّة بما يقصده ويُفسّره أهل الغرب، بل يرونها أفعال مُرعبة ما أنزل الله بها من سُلطان؛ ولذا فهم لن يأخذوا بغير ما يرونه أمرًا بالنسبة لهم مسلمين طائعين لأمر الله الذي أمرهم بإعداد العدّة المرهبة للعدو؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[260].

3 . أهل الغرب: هم الذين يجرّمون الأعمال الإرهابيَّة ويلاحقون أصحابها، سواء أكانوا من أهل الشّرق أم من أهل الغرب ولا فرق في ذلك. ولكن ما يلاحقون بأسبابه من يلاحقون في حقيقة أمره لم يعدّ ذلك المقصود بمفهوم الإرهاب في اللغة العربيَّة والدين الإسلامي، بل هو تلك الأعمال المرعبة والأفعال التي تجري بهدف التخريب والتدمير وسفك الدّماء بغير حقّ، وهذه الأعمال والأفعال لا يُقرّها الدين الإسلامي ولا تعرّفها اللغة العربيَّة بالإرهاب، بل تُعرّفها بالأعمال المفسدة في الأرض والمرعبة لبني الإنسان، وهذه الأعمال حرّمها الدين الإسلامي ونهى عنها، مصداقًا لقوله تعالى:

[260] – الأنفال 60.

{مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا}[261].

ولأجل هذا الخلاف بين دلالة المفهوم ودلالة المصطلح لِما لا يكون الجلوس على طاولة مستديرة يديرها الحقّ بين المسلمين وأهل الكتاب من أجل كلمة سواء؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ}[262].

ومع ذلك قد يتساءل البعض: **وما هي النقاط التي يتمركز الإرهاب عليها؟**

نقول:

1 –القوَّة:

وهي الطَّاقة التي تمتدُّ مَقدِرةً من مكامنها إلى ما يُحقّق الفعل ظهورًا لحسم قضيَّة أو إيجاد حلٍّ، وهي في مقابل مفهوم الضّعف الذي أصحابه في حاجة لمن يُقدِّمُ لهم المساعدة؛ من أجل النهوض ممّا هم فيه من ضعف؛ ولذلك فالقوَّة يمكن أن تستمد استمدادًا، والضّعف يمكن أن يلمَّ بصاحبه إلمامًا، وفي كلا الحالتين في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع الأمر قابل للتبدُّل والتغيّر.

ولأنَّ شعوب الأرض متعدّدة الأقوام والأعراف والدّيانات؛ فكان الصراع بينها سمة من السمات التي منحتها نظرة استشرافية لتحقِّق البقاء

---

[261] المائدة: 32.

[262] آل عمران: 64.

الحياتي ضمن الدائرة الإنسانيَّة؛ فكانت القوَّة هي الميزان الذي يُحدِّد الكثير من الحدود الإنسانيَّة، فضلًا عن التصدُّر لكثير من الدرجات الترابطيّة التي تستفيق مرارًا على بروز حالة من القوَّة الجديدة يكون لها دورٌ مرحليٌّ يغيّر الكثير من المفاهيم، وبطبيعة الحال إنَّ هذا التحقّق يخلق صراعًا جديدًا يكسر من خلاله حواجز جديدة، فتنفتق الآراء الكثيرة، ممّا يمنحها حضورًا فاعلًا في دائرتها المكانيَّة، فضلًا عن المكانة الزّمانيَّة التي تتركها.

ومن هنا فإنَّ ظهور الإسلام خلق حالة من الالتفاف المنظّم حينًا والمبعثر حينًا آخر حوله، أُريد من خلالها تهشميه وردِّه عن الدّعوة التي جاء بها؛ ولهذا حتى البينيّة المفترضة كانت خاوية من الإحاطة الشاملة التي تمنحها مكانة في التنظير الديني؛ فأعداء الإسلام في كلّ تاريخه سلكوا كلّ مسلك في سبيل النيل منه والقضاء عليه، وهنا لا بدَّ أن تكون القوَّة حاضرة؛ لتكون اليد الطولي للدّفاع عن الإسلام، والقوَّة ليست محدّدة وغير مرتبطة بشيء يمنحها شكلًا واحدًا أو سمةً واحدةً، بل هي أمر مطلق؛ ذلك أنَّ الحياة كما هي متغيّرة من جميع جوانبها كذلك تكون القوَّة متغيّرة؛ فالانفجار المعرفي الحاصل خلق حالة من الاكتشافات المتعدّدة والمتنوِّعة في أنواع القوَّة ممّا أكسبت من يمتلكها مكانة عالية، ولأنَّها مكانة وقتيّة فإنَّها سرعان ما يمكن أن تتغيّر أو أن تتبدّد حين تظهر مخترعات جديدة على يد أناس آخرين؛ فبذلك تنتقل القوَّة وتتغيّر بحسب من يحقّق تفوّقًا كبيرًا في هذا المجال أو غيره؛ ولهذا عندما نقف عند التَّاريخ نجد فيه اختلافًا في نسق القوَّة المتحقِّقة؛ ذلك أنَّ على مدى التَّاريخ لم يكن أصحاب القوَّة مستمرّين؛ بأسباب عدم استخداماتهم للقوَّة في محلّها المناسب لها؛ فالذي كانت الشمس لا تغرب

عن مملكته أصبح فيما بعد لا يتجاوز أرضه التي وُلد فيها ممّا أكسبه مكانًا للتقوقع الزّماني والمكاني، وحفّته ريح الخوف بعد أن كان يحكم بمنطق القوَّة والرَّهبة والوعد والوعيد، هذا التباين في القوَّة يخلق أنساقًا مختلفة يُرى من خلالها تحقُّق المعايير المتباينة التي أفضت إلى هذا الاختلاف، والقوَّة التي أمرنا بها الله —تعالى– قوَّة لم تحدّد إعدادًا لا بالكيف ولا بالنوع ممّا جعل الإطلاق حاضرًا، وهذا يدفع المسلم إلى البحث عن كلّ أنواع القوَّة التي تجعله يرهب أعداءه، وتكون مكانته حاضرة دائمًا في كلّ تصرُّف يمكن أن يخلَّ به، أو حتى أن يقلل شيئًا من هيبته.

والإرهاب الذي يدعو إليه الإسلام يمثل حالة من الالتفاف الأسلوبي على كثير من المرتكزات التي قوّتها الماديّة والمعنويّة حاضرة ضمن سباق النيل من الدين الإسلامي، هذه المرتكزات المتعدِّدة لم يكن تصرُّفها كفيلًا بخلق حالة من التعايش السلمي بين النَّاس جميعًا، وإن كانت منتمية إلى أصول دينيّة تمثّلها أو حتى تدّعي أنَّها منتمية إليها، وبهذا يكون الافتراق حاصلًا، إلّا أنَّ ما يحفظ الوجود الإسلامي هو القوَّة التي يجب أن يعدّها ويمتلكها المسلم؛ لتكون سُوره القوي الذي يسقط عنده كلّ ما من شأنه أن يؤثّر بهذا الدين العظيم وإن كان ذلك أبسط ما يمكن أن يكون.

ومن هنا تتباين القوَّة لدى المسلم؛ **فالقوَّة الذاتيّة** يجب أن تكون حاضرة لديه؛ فنفسه مطمئنة واثقة من عزيمتها وإصرارها من أجل الدِّفاع عن الدين، وهنا تكون الصيرورة التي يجب أن تتحقّق؛ فالمسلم يجب أن يتهيّأ نفسيًّا فيكون حريصًا حاضرًا وفي ذهنه عظمة المهمة الملقاة على عاتقه بلا عدون ولا مظالم؛ ذلك ليكون تصرّفه متشكّلا مع إيمانه؛ وهذا الأمر يعد

أكثر مدعاة للمضي نحو تحقيق الأهداف المنشودة بسلام، وهنا تكون هذه القوَّة حاضنة لكلّ العُدّة التي يمكن أن تكون حاضرة في المعركة، فيكون استخدامها بأيدي قويّة متهيئة نفسيًّا، يدفعها إحساسها العالي بما اعتنقت وبما ينتظرها من مستقبلٍ بلوغه مأمول.

إنَّ الإرهاب الذي يتحقّق من إعداد العُدّة يخلق حالة من الانكفاء الفكري والمكاني؛ فالفكري يكون من خلال ضمور الأفكار المستشرية التي أراد أصحابها من ورائها أن يخلقوا حالة من الانشطار لهذا الدين العظيم، فيكون تسلّلها مؤجّلًا بعد أن نشطت في حالة الضّعف التي يمرّ بها المسلمون، أمّا الانزواء المكاني فيكون من خلال الابتعاد عن الأمّة في كلّ أماكن تواجدها والمكوث في أرض تكسبها التفافًا على نفسها وإن كان وقتيًّا في بعض الأحيان إلَّا أنَّه يدلّل على فاعليّة القوَّة التي يجب أن تكون عليها الأمّة، وهنا نرى أنَّ القوَّة في الإرهاب الذي يمنح من يمتلك عُدّته قوَّة في التصرّف في حدود واضحة المعالم تجاه منع الاعتداء ولا ظلم، ولكن إنْ تحقّق الاعتداء ظلمًا فلا حلّ للردع إلَّا باعتداء مماثل؛ حتى يستقرّ الأمن والسَّلام مع وافر التقدير والاعتبار؛ ولهذا لا يُعدّ مروره من باب الاستيلاء في المنظور الإسلامي، ولكن من باب إزاحة الخطر الذي أراد أن يعصف بالأمّة الإسلاميَّة ويُفكّكها ويفتح أبواب الفتن التي من شأنها أن تغيّر ما تستطيع أن تغيّره من مفاهيم أو تشريعات.

ومن دون شكٍّ، الحقُّ في هذا العالم لا تحميه إلا القوَّة، ومن ثمَّ فإنْ لم تُعدّ فيه العُدّة لإرهاب الذين يمتلكون القوَّة ستكون المعَادلة دائمًا بين خائفٍ ومخيف، وراعبٍ ومرتعبٍ؛ ولهذا إعداد العُدّة هو الذي يرهب

المفسدين في الأرض، ويُحفّز على العمل، ويؤدّي إلى تحقيق الأمن والسَّلام، قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا}[263]، وقال تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كثيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[264]؛ فالقوَّة التي تُستمد من إعداد العُدّة هي التي تقوّي الإرادة، التي تُحفّز المؤمن على التأهّب بما تمّ إعداده من عدّة، وهي المرهبة لمن لم يكن يتوقّع أنَّ الخائفين سيأتي يومٌ يكسرون فيه حاجز الخوف، ومن ثمَّ يصبحون فيه قادرين على المواجهة وقبول التحدّي.

إذن: الإرهاب هو الذي يمثّل الخط الأحمر لكلِّ من يفكّر أن يعتدي على الآخرين ظلمًا، والقوَّة (الماديّة والمعنويّة) وحدها هي اللغة الحاسمة للجدل والصّراع؛ ولذلك فَرَضَ الإسلام إعداد العدّة (القوَّة) الرَّادعة واستنفاد الاستطاعة في ذلك؛ من أجل إرهاب الأعداء وإيقافهم عند حدّهم، ومنْع ظلمهم، وردْع طغيانهم، ومن أجل إقامة العدل في الأرض، وجعَل القبول بالسَّلام لا يكون إلا بعد جنوح الأعداء إليه وانصياعهم تحت تأثير القوَّة المرهبة والرَّادعة للعدوان.

---

[263] – النساء: 75.

[264] – الحج: 40.

ورغم أهميّة القوّة الماديّة وضرورة العناية بها، إلّا أنَّ الشعوب أو الأمَّة الإسلاميَّة كما هو متعارف على تسميتها تمتلك من مقومات القوّة والنّهضة ما هو أهم من القوّة المادّية البحتة، **تمتلك القوّة الإيمانيّة**، التي كانت السبب الأوَّل في نهضتها وعزّها، وهذا كفيل اليوم بخلق حالة استدعائيَّة تحث الخطى من أجل الوصول إلى حالة جديدة مغايرة للواقع الذي تعيشه، فلا بدَّ من البحث عن أسس القوّة أيًّا كانت ومحاولة الوصول إليها وتملُّكها، وهنا تكمن قوّة الإرهاب الذي يجب أن تتحقّق بإعداد العُدّة الكفيلة بحسم الصراع مهما تجدّد وتكرّر؛ ذلك لأنَّ العالم اليوم لا يُقدِّر أيِّ شيء إلا لغة إعداد العُدّة؛ فهي سيدة المواقف والتي يتُخذ من خلالها كلّ القرارات التي من شأنها أن تبني ركنًا للأمّة أو أنْ تهدّ أركانَ الأمّة بكاملها.

2 –العُدّة:

العُدّة هي مجموع ما يُعدّ لِما يناسبه من أفعال، سواء في حالة الحرب أم في حالة السّلم، ولكلٍّ عُدّته، عدّة السّلم تتعدّد وتتنوّع؛ فما يلزم البناء ليس هو ما يلزم الطبيب، وما يلزم الحلّاق ليس هو ما يلزم المزارع، وهكذا، أمَّا في حالة الحرب فالعُدّة تتنوّع وتتعدّد وتُطوّر عبر الزَّمن، فلكلِّ زمن عدّته التي تناسبه لحسم الصراع أو الحرب والقتال، ولهذا تعدّدت الأسلحة العسكريّة وتنوّعت فكان حضورها في المعارك يمنح صاحبها سمة نيل الاحترام والاعتبار، وهذا يشرع إلى أنَّ مَن يمتلكها يمتلك مقاليد أمره في حسم المعركة إذا ما أُشعلت نيرانها من قِبل المفسدين في الأرض وسافكي الدّماء فيها بغير حقّ، فيكون لمعدّ العُدّة ومالك القوّة الحاسمة للصِّدام والصِّراع الحصن الحصين واليد الطولى في كلّ الوقائع التي تحصل؛ ومن الأجدر بالمسلم أن

يمتلكها؛ كي يرهب أعداءه وتمنحه ثقة بالنَّفس، فتفتح له آفاقًا جديدة في البحث عن زوايا جديدة يكون من خلالها الوصول إلى أعلى الدرجات في إثبات إرهاب الأعداء؛ ذلك أنَّ الحياة اليوم لا تكتفي بما هو موجود، بل إنَّ تفاعلها المعرفي مستمر يبحث له دائمًا عن مستجدات جديدة يحقّق من خلالها مآربه التي يرتضيها، والإرهاب المراد لا يتحقّق من تعلُّق مستمر بما هو موجود أو بما يكون ضمن دائرة الامتلاك الحاصلة، بل لا بدَّ من البحث عن أرضيّة جديدة يكون فيها أسباب الرَّهبة للأعداء؛ فطلب العلم بفروعه المختلفة يخلق حالة من البحث عن القوَّة التي يجب أن تكون؛ ولذا تجري المنافسات بين دول العالم من أجل الوصول إلى أعلى درجات التطوّر في جميع المجالات؛ كي يخلق حالة من التفوّق تكسبه منعةً وحصنًا في كلّ المجالات.

إنَّ التقابل الحاصل في الحياة أو بعبارة أخرى الضديَّة المتحقِّقة تملي على أصحابها حضورًا متنوّعًا ليس من باب الاكتفاء، بل من باب الالتفاف على الطّرف الآخر ومحاولة معرفته جيدًا في كلّ الجوانب التي تلتقي فيه نقاط قوَّته، هذه المحاولة يكون فيها إعادة الإنتاج الذي من ورائه خلق كينونة ترهيبيّة فعّالة تفوق المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فيكون للأمّة عُدّة جديدة بيّنة من خلال الوقوف على عُدّة الأعداء، وهذا الأمر يخلق إرهابًا للأعداء لم يكن بالحسبان؛ فتكون الآصرة الترابطيّة لأبناء الأمّة قويّة بقوَّة العُدَّة التي يمتلكونها؛ ولهذا يكون الخرق ضئيلًا إن تحقّق؛ ذلك أنَّ قواعد الأعداء حين يتمّ الإغارة عند ردّ العدوان بعُدّة مغايرة لما يتوقّعونها تحصل القوَّة التي يجب أن تكون، وهنا يكون التفوّق من السُّلوك الصحيح في اتباع المناهج الضديّة، فضلًا

عن كلّ ما يتّفق مع التوجيه الإرهابي المنبعث من عقيدة راسخة لا تريد إلَّا إعلاء كلّمة الحقّ والإصلاح والإعمار بغاية إشباع حاجات الإنسان المتطورة بلا مظالم.

ومن هنا تصبح العدّة ركنًا مهمًّا في ترهيب الأعداء ومحاولة ثنيهم عن التفكير بما يسيء للأمّة أو أن يؤذيها؛ فالخلاص يكون من خلال الترهيب الذي يدور في أروقة الأعداء فيكسبها ضمورًا حقيقيًّا يكون من ورائه التقوقع المراد؛ ذلك أنَّ التحديث المستمر يمنح كلّ الأطراف تبعات متعدِّدة ومتنوّعة، فيكون التوقُّف أو الانزواء أرضيّة للتقهقر والخروج من دائرة الترهيب التي تنسجم مع الدّين الإسلامي؛ ذلك أنَّ الإرهاب لا يمكن تحقُّقه دون فاعليّة مؤثّرة، فالعُدّة عند تحقُّقها يكون الإرهاب سيد الموقف حتى في خلق شروط لم تكن حاصلة قبل حصول الإرهاب، ممّا يجعل نعمته متحقِّقة وإنْ لم تتحقّق فاعلية العُدّة فإنها تحقّقت وإنْ لم تستخدم، وهنا نرى أنَّ الإرهاب أدّى فعله الحقيقي الذي يكون دون الوصول إلى حالة الإفساد في الأرض التي تتحقّق في حالة استعماله، فيكون الكسب كبيرًا للأنا والآخر، فللأنا تحصل الحماية والمنعة والثبات، وللآخر تحصل الموافقة مع تفّهُم وعن تفاهم، فالذي كان رافضًا لِما يُطرح عليه من أجل تحقيق الأمن للجميع أصبح اليوم يوافق على المطالب مع فائق التقدير للآخرين. وهنا تكون فاعلية الإرهاب المنشودة؛ ذلك أنَّ إيجابيَّة الإرهاب تكون متسعًا للبحث عن تصورات جديدة تتكئ على الإرهاب وتتحقّق به، فالفاعليّة المنشودة للإرهاب يجب أن تكون حاضرة في كلّ الخطوات التي يمكن أن تُتّخذ، وهنا

تكون العُدّة قد أدّت دورها في الإرهاب ضمن صيرورة مستمرّة تتقلّب بين جوانب عِدَّة تبحث لها عن قوَّة بينيّة خارقة للمتحقّق.

ولذا فالإرهاب لا يتحقّق إلّا بإعداد المستطاع من العُدّة الممكِّنة من بلوغ القوَّة، وقد تعدَّدت وسائل القوَّة، واختلفت صورتها من جيل إلى جيل، ومن ثمَّ على الأمّة أن تعُدّ العُدّة ما استطاعت لذلك من سبيل في كلّ عصرٍ من العصور التي تتطوّر عُدّتها وتتنوّع وتتعدّد.

ومن فوائد إعداد العُدّة أنَّها المنبّه للآخر الذي كان غافلًا عمّا بلغه الأنا من إعداد عدّة وما تأهّبه من تأهُّب وما رابط عليه من وسيلة (خيلا أم آلاتٍ وفقًا لظروف العصر والتقدُّم العلمي والتقني)؛ فاستعداد أبناء الأمّة وتحصّنهم بالآلات والوسائل القتاليّة المناسبة لعصرهم، يلقي في نفوس الأعداء الذين لا نعلمهم أو لا نعلم بعداوتهم الرّهبة التي تجعلهم يلتفتون إلى كلِّ ما من شأنه أن يقيهم دمار ما أُعدّ من عدّة؛ فلا يكون هناك تكرار للعدوان في المستقبل؛ حيث لكلٍّ حِسابه (إن عدتم عدنا والبادي أظلم).

وفي قولهِ تعالى: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}، تكون بذلك دائرة الرَّهبة مكتملة على الأعداء، فيتحقّق بذلك الانتصار بسمة عريضة يكتنفها التصريح بقوَّة العُدّة التي من شأنها أن تحقِّق ما لا يمكن تحقُّقه في أوقات أخرى.

3 – الإنسان:

الإنسان في خلقه قوَّة قادرة على صناعة وإيجاد وإعداد العُدّة التي تُظهر قوّته التي شاءها الله –تعالى–أن تكون في مرضاته، لا في عصيانه

والكفر به أو الشرك وارتكاب المظالم؛ ولهذا خلقه –تعالى–في أحسن تقويم، ولأنّ حُسن التقويم يستوجب تدبّر وحُسن إدارة وجودة علاقة؛ لذا فمن يخالف ذلك يُعدّ خارجًا عن المشيئة الخَلقيّة التي عليها قد خُلق، ومن حُسن الخُلق أن يعدّ المؤمن العُدّة لمن أعدّ له عُدة لمقاتلته أو احتلال أرضه والاستيلاء على ثروات وطنه.

ولهذا يمثّل الإنسان العمود الفقري للإرهاب بوصفه المرتكز لهذه العمليَّة المهمّة التي بتحقُّقها تتحقّق أهدافٌ بالغة الأهميَّة على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي؛ ولذا فالإنسان المؤمن هو الذي يعدّ العدّة من دون أهداف ظالمة؛ فحين يكون إعداد الإنسان إعدادًا صحيحًا مواكبًا للتطوّر الحاصل في جميع الأصعدة، يكون الفعل الإرهابي متحقّقًا وفق نظرة معرفيّة تدرك ما يجري وتستوعب ما يجب دون إفراط في استخدام القوَّة إذا ما كُتبت الحرب أو القتال.

وعليه: يكون الإنسان هو الطّرف المهم في إيجاد تفرُّعات متنوِّعة لرفد الإرهاب بكلّ ما يمنحه التحقّق؛ ذلك أنَّ التنوّع المعرفي غير مرتبط بجهة دون أخرى، وهذا يجعل كلّ الأطراف تحاول أن تبعثر الذي أمامها فتوجد بذلك فوضى مقصودة تريد من خلالها إيجاد تعالقات جديدة تكتب ما تريده بفاعليّة جديدة، وهذا حال الإرهاب الذي غايته أن يجد مدارات جديدة تكون له دون غيره؛ فيمسك العصا من أي طرف ليحقّق له ما يريد، وهذا بطبيعة الحال ليس على سبيل التحقيق الفعلي المدمِّر، بل يكون إرهابًا متحقّقًا من شأنه أن يؤتي أُكله دون اللجوء إلى التحقيق الأوَّل، وهنا يتشكّل أسلوب الافتراق المنضوي على قراءات مسبقة تكون المعين الدَّائم

للوصل إلى تحقيق أهداف متنوّعة، هذا التنوّع سيحدِّد الكيفيّة التي يجب أن تكون؛ فالإنسان في هذا الموقف هو الدّافع لأيِّ أسلوب يمكن أن يُتخذ ليس بوصفه طرفًا رئيسًا في عمليَّة الإرهاب فحسب، بل بكونه طرفًا يحقّق الإرهاب ويتحقّق عليه، ممّا يخلق حالة مزدوجة يمكن من خلالها الوصول إلى كلِّ ما من شأنه أن يطرح الأساليب المتنوِّعة لتحقيق الإرهاب المنشود.

إنَّ الإنسان بطبعه يبحث عن سُبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه ومأموله، هذا البحث تكتنفه تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ فالإرهاب الحاصل من هذا المبتغى يكون سلاحًا واقعًا ضمن دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع، فالمتوقَّع يكون حافزه ليس بالكبير؛ كونه حاصلًا وحدوده يمكن ردِّها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم وحتى للتقويم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصد والتحليل وللتمثّل، أمَّا غير المتوقَّع فتكون حدوده غير واضحة المعَالم أو ممحيّة نهائيًّا، فيكون الاستغراق الفكري حاضرًا في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفيّة التي يكون فيها التسابق حاصلًا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيًا للمراحل المرادة، فالانزوائيات غير مطلوبة، والعبثيَّة غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود أمرًا واقعًا غير مطلوب؛ ذلك أنَّ الإرهاب يمرُّ دائمًا بحالة من الخرق ممّا يحمله إلى البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه المنعة والنصرة، فالإرهاب لا يكون حالة مستقرّة، إنّما هو حالة متجدِّدة، تتجدّد بالإنسان الذي تمَّ تهيئته تهيئة صحيحة يستطيع أن يقود الإرهاب نحو تحقيق أهدافه المرسومة، فلا يكون

هناك تراجع، بل يكون هناك استمرار يقوده ذلك الإنسان الذي اكتسب فاعليّة البحث في إيقاع الترهيب بأعدائه الذين يتربّصون به الدّوائر.

ولأنَّ الإرهاب فعل لا يتحقّق إلّا بعد إعداد عُدّة فاعلة في الميدان؛ فإنَّ توعيَة النَّاس بأهميّة الإرهاب في نيل الاعتبار والتقدير يُعدّ ضرورة؛ لكي يتبيّن أبناء الأمّة أهميّة الإرهاب في صون الكرامة وحفظ البلاد من العدوان وحفظها من بث المفاسد الظَّالمة بين النَّاس؛ لذا ينبغي ألّا تغفل المقرّرات الدراسيّة عن تضمين دلائل الإرهاب موضوعيًّا؛ لكي تشبّ الأجيال على المعرفة الواعية التي تُسهم في صناعة المستقبل الأفضل، وكذلك لا ينبغي أن تتجاهل وسائل الإعلام عرض العُدّة التي تَمكَّن أبناء الأمّة من صناعتها أو الحصول عليها لردع من تسوّل له نفسه إن سوّلت له ما سوّلت، ولكن إن غفلت الدولة المسلمة عن أهميّة إعداد العدّة المرهبة لمن يجب أن يتمّ إرهابهم ستكون المخاوف مبثوثة في كلِّ فرد وفي كلِّ أسرة حتى تعمّ الشعب بكامله، ولأنَّ الله –تعالى– شاء للأمّة أن تكون على القوَّة أمرها أن تعدّ العُدّة التي تجعلها على القوَّة والمنعة، وتجعل السَّلام سائدًا بين النَّاس آمنين.

هذه الثّقافة تمثّل رأس الحربة والجسر الذي يعبر عليه المسلمون لفهم واقعهم على الوجه الصحيح، وفهم أعدائهم وخططهم وطرقهم، كما أنَّ توحيد قوى الأمّة كافّة من أجل التبليغ برسالة الإسلام (السّلام)، وإزالة ما بينها من فرقة واختلاف، أو شحناء، وإشاعة التراحم بين النَّاس، وحثِّهم على التعاون والتكامل، وشحذ الهمم نحو البذل والعطاء، والجهاد في سبيل الله الذي لا مظالم من ورائه، بل إحقاق للحقّ؛ فمن خلال العمل على تحقيق هذه الأهداف يقوم التثقيف بخلق إنسان يستطيع أن يكون جزءًا لا

يتجزأ من الترهيب الذي هو شفاء لداء التخويف الذي ألمَّ بالمستضعفين في الأرض.

إنَّ هذه المعطيات تمرّ بحالة من التناوب المادّي والمفاهيمي؛ وذلك تبعًا لمستجدات العصور حتى إنَّ حضورها في الإرهاب حضورًا متباينًا أيضًا؛ لأنَّ كلّ الأعداء لا يمكن وضعهم في حقلٍ واحد من التماثل العقدي والإجرائي، وهذا الأمر يكسب المعطيات تجدّدًا مستمرًّا؛ فتكون متابعته من باب الإلحاق به مدعاة للنّهوض بتجدّد الفكر وخلق حالة من التتبُّع تُمكّن من استدراك ما يمكن استدراكه؛ كي لا نصل إلى الهاوية، ولا نتّقِ الله في أنفسنا وفيما أمر به ونهى عنه؛ إذ لا ظلم ولا إكراه ولا عدوان.

4 – التهيؤ:

التهيؤ: انتباه الإنسان إلى ما يجب أن يقدم عليه استعدادًا وإعدادَ عدّةٍ مع قبول التحدّي الممكّن من بلوغ الغايات ونيل المأمولات المستهدفة بالتهيؤ.

والتهيؤ في دائرة النسبيّة لا يخرج عن الاستطاعة والعزيمة الدّافعة تجاه بلوغ الغايات إصرارًا على النجاح أو الفوز أو النصر؛ ومن ثمَّ يُجنّب أصحابه الوقوع في الفشل، ويمكّنهم من تجاوز الصّعاب.

ومع أنَّ للتهيؤ مفهومه العام فإنَّه ذو دلالات وتفاصيل نفسيّة واجتماعيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة وسياسيّة واقتصاديّة وحربيّة؛ ولذا لا يُمكن أن يكون التهيؤ إلَّا وفق الاستطاعة التي تتسع دوائرها بقوّة الرّغبة والعزيمة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[265]، أي: يجب أن يُعدّ ما يُمكن أن يُعدُّ من عُدّة وفق الاستطاعة في دائرة الممكن؛ ولهذا يجب العمل بكلِّ جهد وبكلِّ الوسائل الممكِّنة من امتلاك القوَّة وتوافرها، والتدرُّب عليها، والمران من أجل إدارتها؛ حتى تتيسّر استخدامًا إذا ما كُتبت الحرب أو أُوقدت نار الاقتتال.

ومع أنَّ الاستطاعة محدودة إلا أنَّ ورودها في هذه الآية الكريمة جاء وكأنَّها بلا حدود {مَا اسْتَطَعْتُم} أي: إلى النّهاية التي لا تنتهي بعصرٍ من العصور، بل النّهاية التي تتجدّد في كلِّ عصر إلى النّهاية.

وقوله {مِنْ قُوَّةٍ} مع أنَّ (مِن) بعضيّة إلّا أنَّ ورودها هنا جاء للتنوُّع، أي: تنوّع القوَّة الواجب تنوّعها وإعدادها لإرهاب العدو، وهنا جاءت الاستطاعة غير محدّدة، وكذلك القوّة غير محدّدة {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ} أيَّة قوّة، وكلّها وفق الاستطاعة تتنوّع مع تنوّع التهيُّؤات.

وعليه أتساءل:

أيّهما المرهب: العدّة أم الإعداد؟

إنَّ العدّة تُعدّ من قبل الإنسان، وإن كانت العدّة والإعداد يجب أن يكونا متلازمين ليصل المجتمع إلى المرحلة الإرهابيَّة، إلاّ أنَّ العدّة وإن توافرت فإنّها تبقى في حيّز الموجودات المادّية؛ ذلك لأنَّ العدّة مادّيَّة بأيّ شكل كان، فلو كان هناك أكداس من الحديد بشكله المعروف كمادة أوّليّة، فإنّها لا تدخل الرّهبة على أحد مهما تعاظمت.

---

[265] الأنفال 60.

ولذا فإنَّ إعداد الإنسان للحديد والمال والمياه والأرض هو الذي يمنحه التهيؤ للجانب الإرهابي؛ وذلك عندما تُحوّل المادّة بإعدادها الذي تهيّأت عليه إلى استخداماتها بقرار عقلي نابع عن فكر متهيء للعمل؛ ولذا {وَأَعِدُّوا} تبدأ من التهيؤ المتنوّع مرورًا بالإعداد والاستعداد والتأهب، وكلّ ذلك مرتبط بالإنسان الذي ليس له غنى عن العدّة المحققة للغاية.

ولذا فإنَّ {وَأَعِدُّوا} تشمل الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولما كانت العدّة من الأشياء المادّيَّة؛ فنادرًا ما تحقّق المفاجآت؛ لأنَّها ضمن مجال الإحصاء والعَدّ، أمَّا الجانب الآخر من {وَأَعِدّوا} فهو الذي يتّسع مجاله في الجانب العقلي؛ ليشمل الفكر والمهارة والتدريب والتخطيط الذي يخرج عن الحيّز المادّي، ويكمن بين العقل والشُّعور وردَّة الفعل.

أمّا قوله تعالى: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} أي: بعد أن تعدّوا العُدّة القتاليّة وتستعدّوا بها وتتهيؤوا وتتأهّبوا ستلفتون انتباه أعدائكم لأنفسهم بأنَّ الأمر تجاهكم لم يعدّ كما كانوا يعتقدون، بل إنَّه تغيّر إلى ما هو أخطر وأفضل، (تغيّر من حالة الخوف منهم إلى حالة استمداد الثّقة بالأنفس مع وافر التهيؤ)؛ فقوله: {تُرْهِبُونَ}، أي: بتهيؤكم استعدادًا وعدّة ستفاجئون أعدائكم بالقوّة التي هيأتموها للمواجهة إذا ما كُتبت عليكم، وهذه العُدّة لم يكن أعداؤكم قد أعدّوا لها حِسابًا من قبل؛ ولذا فالإرهاب بالنّسبة إلى مَنْ كان خائفًا أصبح مبعثَ ثقةٍ وطمأنةٍ في النّفس، وبالنّسبة إلى مَنْ كان مخيفًا أصبح الإرهاب ناقوسَ خطرٍ يدقُّ في آذانه؛ لينتبه إلى أنَّ الأمر لم يعدّ كما كان يتوقّع.

وعليه: يترتّب على إعداد العدّة والتهيؤ بها أمرين:

الأمر الأوَّل: تخلّص الخائف من الخوف.

الأمر الثَّاني: إحساس المخيف بالإرهاب.

ويترتّب على هذين الأمرين التهيؤ لأمورٍ منها:

. الاعتراف بالآخر.

. المصالحة معه.

. التفاوض معه.

. أخذ الحيطة والحذر منه.

. استيعابه.

. التفاهم معه، والتسامح[266].

العدوان:

العدوان فعل لا يقدم عليه إلَّا أعداء يعتدون على الحقّ بغاية كسره وإيذاء الآخرين بالباطل، وفي معظم الأحيان لا يكون الاعتداء إلَّا على الضّعفاء سواء أكانوا أفرادًا أم جماعاتً أم دولةً بحالها، وفي المقابل ردُّ العدوان يعدُّ رخصة لاسترداد الكرامة والحفاظ على الحقوق الممكّنة من الحفاظ على الهويّة، ومع ذلك فالعدوان هو المسبب لترويع الآمنين في أنفسهم وأموالهم

[266] عقيل حسين عقيل، التهيؤ، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2017م، ص 101 – 110.

وأعراضهم وأوطانهم وتدمير مصالحهم، ومقومات حياتهم، والاعتداء على حريَّاتهم وكرامتهم الإنسانيَّة بغيًا وإفسادًا في الأرض بغير حقّ.

والعدوان لا يقتصر على نوع معين من البشر أو جنس أو لون أو عرق، بل الذي يصدر منه شيء ممّا تقدّم ذكره من البغي والظُّلم بحقّ الآخرين هو معتدٍ ويمارس العدوان، سواءٌ أكان مسلمًا أم مسيحيًّا أم يهوديًّا أم بوذيًّا، أم غيرهم، أي: إنَّ العدوان ليس له دين أو عقيدة أو ملّة غير العدوان؛ لأنَّه لا يندرج إلاّ تحت باب البغي والظُّلم؛ فالعدوان يحمل في مضمونه ظلمٌ، والذين يمارسونه ظالمين؛ لذلك شرّع الله –تعالى– الردّ على العدوان بعدوان مثله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[267].

ومن هنا فلن نغفل عن البعض الذين راودت أذهانهم تساؤلات تعجُّبيَّة، بقولهم: إن كنتم ترفضون العدوان، فكيف تعتدون على من اعتدى عليكم؟

نقول:

إنَّ العدوان على العدوان هو ردٌّ عادل بمثل ما اعتدى، فمن حقّ من اعتُدي عليه، أو وقع عليه العدوان الظَّالم، أن يبدأ بردّ العدوان، وتسميته من باب العدوان المماثل: {فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} هو من قبيل التذكير أنَّ الظَّالم هو الذي بدأ العدوان وباشره، والعدوان على العدوان بالمثل هو من باب العدل والإنصاف؛ لدفعه وردعه، وقد نبّه الله –تعالى–

[267] – البقرة: 194.

على عدم الإفراط في العدوان الرّادع للعدوان عندما ذكر التقوى؛ منعًا للبغي في الردّ؛ ذلك لأنَّ ردّ العدوان بمثله لا يزيد عن كونه عدلًا وإنصافًا، وأمَّا إذا تجاوز الردّ في الإفراط والتنكيل بمن اعتدى عليكم فقد خرج الردّ عن حدود المثل إلى البغي، فمن اعتُدي عليه كان له حقّ الشروع بالعدوان المضاد دون ظلم على من اعتدى عليه وتمدّد على حساب كرامته أو هويّته وأراضيه وممتلكاته ووطنه.

ومن جانب آخر لا يكون العدوان الرادع على العدوان المعتدي مساوٍ له في الظُّلم؛ لأنَّ الذي يباشر العدوان يكون ظالمًا، والذي يدفع العدوان الظَّالم بعدوان مضاد يكون قد مارس حقّه في الدِّفاع عن النَّفس، وهذا جليٌّ في أعراف النَّاس كما هو جليّ في القرآن الكريم؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[268].

ومن ثمَّ فإنَّ العدوان سيئة من السيئات، وجزاء السيئة أمر مشروع، ولكن لماذا سمي الجزاء بالسيئة؟

نقول:

إنَّ السّيئة بداية هي ما يسوء من يقع عليه فعلها، فلمّا كان العدوان يسوء من يقع عليه، كذلك العدوان على العدوان الذي هو جزاء السّيئة، سوف يسوء المعتدي، ومن هنا كان صدق الدّلالة على المفهوم لكلا الحالين؛ لأنَّ ما يسوؤني يسوؤك؛ ولذا فنحن معًا في هذا الأمر؛ ذلك أنَّ

[268] – الشورى: 40.

العدوان والردّ عليه بعدوان كلاهما يحمل ما يسوء للآخر؛ وذلك لما ينزل من المصائب والضّرر من كلا العدوانين اللذين لم يصبحا على التثنية لو لم يقع العدوان الظَّالم أوَّلًا، ممّا يجعل ردّ العدوان حقًّا مشروعًا في كلّ الأعراف والأديان السماوية.

ومن جانب آخر إنَّ ردَّ العدوان بعدوان مشروعٌ ليس في الأديان السماويّة فحسب، وإنّما في جميع الدساتير والقوانين الوضعيّة والأعراف الاجتماعيَّة أن تقابل كلّ جريمة بما يدفعها ويمنعها؛ ولذا وجب ردُّ العدوان على العدوان بمثله؛ من أجل الزّجر والرّدع، وأمَّا الزّيادة عن مقدار ذلك العدوان فهو بغي، ولمنع البغي وجب أن يكون العدوان على العدوان بمثله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[269].

وعليه: فإنَّ تسمية الردّ على العدوانِ عدوانٌ من باب أنَّ الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[270]، فالسّيئة الأوَّلى ظلم وعدوان وأمَّا السّيئة الثانية فهي جزاء الظُّلم والعدوان، وهو من الجزاء على الفعل بمثل لفظه، كما قال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}[271]، وقال تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[272]؛ ولذا فالعدوان الأوَّل ظُلم، والثَّاني جزاءٌ، والجزاء لا يكون ظلمًا بحال من الأحوال، وهو ما يسميه علماء البلاغة بـ(المشاكلة)؛ حيث يذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته؛ فمقابلة الاعتداء بمثله لا يسمى في الأصل

---

[269] – النحل: 126.

[270] – الشورى: 40.

[271] – آل عمران: 54.

[272] – البقرة: 194.

اعتداءً، ولكن سوغ هذا الإطلاق داعي المشاكلة، وليعطي اللفظ معنى المماثلة في تطبيق العقوبة دون زيادة عليها.

ومع ذلك فأنَّ النهي عن العدوان أمرٌ واجبُ الطاّعة؛ أي: يجب الامتناع عن العدوان على أيّ أحد ما دام لم يعتدِ ودون النظر إلى دينه أو معتقده أو لونه أو عرقه؛ استدلالًا بقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[273].

ومن ثمَّ فلا قتال للمخالفين في الدين أو العقيدة أو الرّأي، وإنّما القتال جاء مشرّعًا (للذين يقاتلونكم والذين يعتدون)، ومن هنا فحكمة القتال وسببه ليس قتال المخالفين في الدين؛ ذلك لأنَّ الدين قد بيّن الرّشد من الغي ولا إكراه.

طاعةُ أُولي الأمر

الطَّاعةُ اتباعٌ وانقيادٌ، سواء أكان الاتباع للحقّ أم للباطل، وسواء أكان طوعًا أم كرهًا، ومع أنَّ الانقياد طوعًا قد يكون عن وعيٍ أو غفلةٍ أو جهلٍ أو خوفٍ، فإنَّ الواعين سيظلّون منقادين للحقِّ إرادة، أمَّا الغافلون

[273] – البقرة: 190.

والجاهلون سيكونون في حاجة لمن يرشدهم، وفي المقابل المقادون كرهًا سيظلّون في حاجة لمن يلفتهم إلى أنفسهم أو أنْ يفكّ القيد عنهم.

ومع أنَّ الغافلة قلوبهم والمتَّبعين أهواءهم يستطيعون أن يقودوا الغافلين عن أنفسهم فإنَّه لا إمكانيَّة لهم أن يقودوا الواعين، ومن هنا فالواعون لا يقودهم إلَّا واعٍ، أمَّا الغافلون فالكل يقودهم.

ومع أنَّ الغافلين قابلون لأنْ يقادوا فإنَّ أنفس الواعين بما يجب اتباعه طاعة لا تأبى قيادة الغافلين إلى الباطل: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[274].

ومن هنا ينبغي أن نميّز بين الطَّاعة والمطاوعة؛ فالطَّاعة لا تكون إلَّا للحقِّ اتباعًا، أمَّا المطاوعة فلا تكون إلَّا عن تقبُّل العقل للتبعيَّة وكأنّه بلا بوصلة، مما يجعله على أرجوحة الانقياد بين هنا وهناك ولا ثوابت ترشده، أو تثبّته وعيًا.

وعليه: فإنَّ الذين يقولون طاعة أولي الأمر واجبة، نقول لهم: نعم، ولكن في مرضاة الله تعالى، أي: لا طاعة لهم في غير ذلك، فإذا كان قلب الحاكم غافلًا عن ذكر الله ومتّبعًا لأهوائه الخاصَّة فلا يطاع؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}.

ولذا، إذا كان الحاكم ظالمًا، **فهل الله –تعالى– يؤيّد ظالمًا أو يناصره ليكون عبيده المؤمنون مؤيّدين له وطائعين؟**

---

[274] الكهف: 28.

وإذا كان الحاكم مفسدًا في الأرض، **فهل يعقد الأمل عليه إصلاحًا ونهضةً إنسانيَّة؟**

أقول: لكي نتبيَّن الحقّ من الباطل ينبغي علينا أنْ نعود إلى ما أمر الله به في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[275]. هذه الآية الكريمة تستوجب تبيان الفرق بين مفهومين: طاعة أولي الأمر منكم، وأولي أمركم؛ فأولي أمركم همّ الوالدين أو من يحلّ محلّهم من الأخوة والأقارب الذين يتعلّق الأمر بهم، أمَّا أولي الأمر منكم فهم الذين أوليتموهم أمركم وفقًا لإرادة ورغبة واختيار، ووفقًا لدستور أو عرف أو قانون أو عقد اجتماعي وإنساني، ممّا يجعل طاعتهم طاعة للأمر الذي هو منكم.

وهنا فمفهوم قوله: (وأولي الأمر منكم) جاء على دلالتين اثنتين:

الأولى: أنَّ من يتولّى إدارة أمركم ينبغي أن يكون منكم، أي: أن يتمَّ اختياره إرادة منكم ولا إكراه.

الثَّانية: ألَّا يكون الأمر المولّى عليه إلا بقرارٍ منكم، والأمر هنا هو (ما قررتموه دستورًا)، ومن ثمَّ يصبح من أوليتموهم على أمركم هم المأمورون والمقيدون به؛ إذ لا أمر لهم إلَّا منكم، وعندما **يكون** أُولو الأمر مقيدين بأمركم وبه ملتزمون، فليس لكم إلَّا طّاعة أمرهم المقيّد بأمركم.

[275] النساء 59.

ولتوضيح ذلك: عندما يقرّر الشّعب سياساته الدّاخليّة والخارجيّة وفقًا لما أقرّه دستورًا فلا ينبغي لأحدٍ من الشّعب أن يخرج عن طاعة المنفِّذين للأمر (أولي الأمر) بما أنَّهم مقيدون بالأمر دستورًا؛ ومن هنا فالدّستور قيد على الحاكم وقيد على المحكوم، ومن يخالف منهما (الحاكم أو المحكوم) سيكون تحت طائلة القانون المستمد من الدستور والمنفّذ له والمرسّخ للسيادة الوطنيّة.

وعليه: فالمطاع هو الذي يتمَّ اتِّباعه عن رغبة وإرادة، والطّاعة الحقّ لا تكون إلّا للحقّ والذي يأمر به؛ ولهذا في الطّاعة اتباع، ونيل تقدير، ونيل احترام، ونيل اعتراف، وتحقيق اعتبار، وفي معكوس المفهوم اللغوي للطّاعة يكون الضلال والإنكار، وهنا يصبح الرّفض والمعصية في مقابل القبول والطّوع.

ولأنَّ الدّين الحقّ من عند الله؛ فالله أوجب طاعة الرّسول بعد طاعته، حتى تلازمت طاعة الرَّسُول مع طاعته جلَّ جلاله: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}[276]، ثمّ تلاها بطاعة أولي الأمر في غير معصية لله؛ ولذا فإنَّ قوله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} لا تعني أولي أمركم، فأولي أمركم تعني مَنْ يتولاكم بالرّعاية والعناية كالوالدين والأجداد والأخوة، أمَّا أولي الأمر منكم فتعني: الذين اخترتموهم طواعيَّة ليتولَّوا رعاية الأمر الذي هو منكم، وهذا الأمر هو أيِّ أمر منكم، سواء أكان سياسة داخليَّة أم خارجيَّة أم سلمًا أم حربًا؛ فالذي اخترتموه لذلك عليكم بطاعته في الأمر الذي اخترتموه من أجله، وهذا يعني: أنَّه لا طاعة له في غير الأمر الذي تمَّ اختياره ليكون عليه وليًّا راعيًا.

[276] النساء: 80.

ومع ذلك فهناك من يُولّى على الأمر فينقلب على من أولوه رعاية الأمر الذي أولوه عليه، فيلغي أمر الشّعب وهو (الدّستور المعمول به) ويعمل بقوانين الطّوارئ كرهًا؛ فيقمع الشّعب بكلّ الوسائل المكمّمة للأفواه والمطالبة بالحرّية، ويغيّر عناوين الإدارات والمؤسّسات، كما يغيّر ملابسه، فيغيّر المسئولين من مسئولين لهم من القُدرات والمهارات والخبرات ما يكفي لإدارة البلاد بآخرين تُبّع طائعين؛ فيولّي على النفط من لا علاقة له بعلم النفط وسياساته، ويولّي على التعليم من لم يتأهل حتَّى بالشهادة الإعدادية، ويولي على الصّحة مَن تخصّصه جغرافيا، وهكذا كلّ شيء يتغيّر بغير حقّ.

وعليه: **كيف يمكن للوطن أن يتقدّم؟!! وكيف يمكن للمواطن أن يطيع أولي الأمر وهم على هذه المفاسد؟!!**

أقول:

لمعرفة دلائل هذا المفهوم ينبغي علينا أن نتبيّن الفارق بين طاعة أولي الأمر، وطاعة ولي الأمر، فولي الأمر كما سبق الإشارة إليه مثل الوالدين أو من يحلّ محلّهم بأسباب الفقدان؛ ولهذا فطاعة وليّ الأمر واجبة في غير معصية ما أمر الله به، ولكن إنْ أصبح ولي الأمر على مجموعة من المفاسد فلا طاعة له فيما يرتكبه من مفاسد، وهكذا فإنَّ طاعة أولي الأمر واجبة هي الأخرى في غير معصية الله ولا تكون إلّا وفقًا للأمر الذي به كُلّف رغبة وإرادة، أي: عندما يقرّر الشّعب قرارًا (سواءً في حالة السّلم أو حالة الحرب) فلا ينبغي لأولي الأمر أن يخالفوه، وأيضًا عندما يصدر الشّعب دستورًا فلا ينبغي لأولي الأمر أن يخالفوه، وكذلك لا ينبغي لمواطنٍ قرّر دستورًا أن يخالفه؛ ذلك كونه

قرارًا جمعيًّا وليس فرديًّا ولا جماعيًّا، قرار شعبٍ بأسره أو أمَّة بكاملها، ومن ثمَّ فلا طاعة لولي أمر في غير ما أُولي إليه من أمر؛ ولهذا فالدساتير عندما تكون عن إرادة حرة تعدُّ حُجّة ملزمة[277].

ولأنَّ المقصود من طاعة أُولي الأمر هو طاعة للأمر الذي هو منكم (من الجميع) أي: من الذين يتعلّق الأمر بهم، وهو أيُّ أمر يتعلّق بالنَّاس وشئونهم العامّة؛ ولهذا قال: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} ولم يقل: (وأولي أمركم) والفرق بينهما أن الأولى تعود على من يتولّى أمركم إرادة مع وضوح الأمر المكلّف به ولايةً منكم، أمَّا الثَّانية فتخصّ ولي أمركم من والدين أو من يتولّى رعايتكم وأنتم قصّر، ومع ذلك حتَّى الوالدين لا طاعة لهما في معصية الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}[278].

وهنا: فطاعة أُولي الأمر في مرضاة الله لا يمكن أن تكون فيما يرتكبه أُولو الأمر من مفاسد ومعاصٍ، بل الطّاعة فقط في مرضاة الله؛ حيث لا مفاسد؛ ولذا إنْ كانت المفاسد سائدة في سياسة أُولي الأمر منكم فلا طاعة لهم في معصية وإفساد في الأرض؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ إِلّا إِنَّهُمْ هم الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[279].

---

[277] عقيل حسين عقيل، تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا) مكتبة الخانجي، القاهرة: 2018م، ص 87 – 90.

[278] العنكبوت: 8.

[279] البقرة: 11، 12.

وبالعودة إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[280]، نلحظ من هذه الآية الكريمة تفاصيل، منها:

أوَّلًا: أنَّ الله قد نصَّ على طاعته طاعة مطلقة {أَطِيعُوا اللَّهَ} وهنا طاعة الله جاءت أمرًا {أَطِيعُوا}، وكذلك نصَّ على طاعة الرَّسُول طاعة مطلقة {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، وهنا أيضًا طاعة الرّسول جاءت هي الأخر أمرًا {أَطِيعُوا}.

ثانيًا: إنَّ طاعة أولي الأمر لم تأتِ مُطلقة، ولم يأتِ أمر الطّاعة مرتبطًا بها؛ ولهذا لم يقل: (وأطيعوا أولي الأمر منكم) بل قال: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} أي: جاءت طاعة أولي الأمر معطوفة بحرف (الواو)؛ وذلك بقوله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، ولم تأتِ (وأطيعوا أولي الأمر منكم)، وهذا العطف المشار إليه أفقدها أمر الطّاعة المطلقة كما جاء أمرًا منزّلًا بالمطلق طاعة لله ولرسوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}.

. وعليه: إنَّ قوله تعالى: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} جاء قولًا جامعًا لمفاهيم ثلاثة:

1 – أولي، وتعني: الأفراد الذين يوليهم النَّاس إدارة شئونهم.

2 – الأمر: وهو ما يقرّه النَّاس من أمرٍ يتعلّق بشئونهم الداخليَّة والخارجيَّة (سلمًا وحربًا).

---

[280] النساء: 59.

3- منكم: كلمة في مفهومها أمرين:

أ – إنَّ قول الله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} تعني: إنَّ أولي الأمر لا يكونون إلَّا منكم، والمفهوم هنا جاء متعلّقًا بالذين لا يبلغون القمم السُّلطانيَّة حكّامًا إلّا بإرادتكم.

ب – إنَّ قول الله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} أيضًا تعني: إنَّ الأمر المتعلّق بشئونكم السياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، وشئون الهويّة والمواطنة، والسّلم والحرب) هو الآخر لا ينبغي أنْ يقرّ دستورًا إلَّا منكم.

ثالثًا: جاء التفصيل الثَّالث، بأسباب عدم مُطلقيَّة الطّاعة لأولي الأمر؛ ولهذا فالتنازع معهم والخصام يحدث في أيّ شيءٍ لم يكن أمرًا من عند الله ولا سنّة لرسوله، وأيضًا يحدث الخصام والنزاع معهم فيما لم يرد فيه قرارٌ دستوريٌّ من عند الرّعيّة (الشَّعب)، ومن ثمَّ فعندما يحدث النزاع والخلاف بين الرَّاعي والرّعيَّة وجب العودة إلى أمر الله ورسوله (القرآن والسُّنَّة)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}، وهنا فالضمير في قوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتمْ} يعود على الحاكم والمحكومين الذين إذا ما تنازعوا وتخالفوا في شيءٍ رجعوا إلى النص القرآني وسنّة الرّسُول الكريم؛ تسوية للتنازع والخلاف: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}.

رابعًا: كلّ التفاصيل والشّروط السّابقة، وبما جاء فيها من مُطلقيّة جاءت مقيدة بالإيمان: {إِنْ كُنْتمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}؛ ذلك لأنَّ المؤمن بالله مؤمن بالحقِّ، ومن يؤمن بالحق يسلّم بإحقاقه وبه يتقيّد ويلتزم؛

ولهذا فالقبول بردِّ الأمر المتخالف عليه إلى الله ورسوله يخرج المتخالفين من النزاع وما يترتّب عليه من تأزُّمات.

خامسًا: ألَّا ينفرد أحدٌ برأيه وتفسيراته الخاصّة ويصدر الأحكام هكذا جزافًا، بل على المتنازعين أن يعودوا بالأمر إلى مصدره وهو خير ما يؤول إليه الأمر المتخالف عليه: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، ومن ثمّ وجب طاعة الأمر الذي به يتساوى النَّاس عدلًا؛ سواء أكانوا أولي أمرٍ أم أكانوا الشّعب الذي أولاهم أمرًا (الرَّاعي والرَّعيّة)، ولكن السؤال المترتّب على ذلك: **من الذي يحسن التأويل؟**

أقول:

الذي يحسن التأويل هو مَنْ له دراية بحقيقة الشّيء المتنازع عليه، فإنْ كان الشّيء المتنازع عليه اقتصادًا فرجالات الاقتصاد المتميّزين (أهل الاختصاص) هم من يستطيع تأويل المرامي الاقتصاديَّة التي تُمكّن من المعرفة دون لبسٍ أو غموض، وإذا كان الشّيء المتنازع عليه متعلّقًا بأمور الدّين فإنَّ أهل الاختصاص فيه (العلماء الحكماء) هم أكثر دراية ومعرفه بتأويله وفقًا للقرآن والسّنة، وإذا كان الشّيء المتنازع عليه يتعلّق بالسياسة فأهل السياسة هم أكثر دراية بتأويله، وعندما يكون الشيء المتنازع عليه يتعلّق بالقوانين فإنَّ المتخصّصين في القوانين هم أهل الدراية، وكذلك الرأي الطبّي لا يدري به إلَّا طبيبٌ متخصّصٌ ومتمكّنٌ، وهكذا بالتمام عندما يكون الشّيء المتنازع عليه يتعلّق بالشئون الاجتماعيّة فإنَّ أهل التخصص والمعرفة

الاجتماعيّة هم من يشار إليهم بأهل الدّراية؛ ومع ذلك فلا كمال إلَّا لله وحده: {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[281].

ومع أنَّ أهل التخصّص إن أحسنُوا رأيًا تمكّنوا من فك الفتيل ونزعه فإنَّهم إن لم يتّقوا الله قد يوقدونها ويقولون عنها: شُعلة.

وعليه: مع أنَّ الطَّاعة فضيلة خيّرة وقيمة حميدة فإنَّها لم تكن مُطلقة إلَّا لله ولرسوله (قرآن وسنّة)، أمَّا ما دون ذلك فكل شيء جاء مقيّدًا بمرضاته تعالى؛ ومن هنا فلا تقييد للحريّة، بل التقييد جاء لمفسداتها وعلى رأسها الإكراه؛ إذ قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[282]، ومن هنا فلا طاعة لأحدٍ يريد أن يسيطر على أحدٍ ويقيّد حريّته في غير مرضاة الله حتى وإن كان ولي أمر: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[283]، وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[284].

إذن: الطَّاعة المطلقة لله تعالى، أمَّا الطَّاعة في دائرة الممكن فلا تكون إلَّا للأمر؛ ولهذا دائمًا نقول: طاعة أولي الأمر واجبة، ولكن في مرضاة الله تعالى، ومن هنا فإنْ كان الحاكم ظالمًا؛ **فهل الله –تعالى– يؤيّدُ ظالما، أو يناصره ليكون عبيد الله المؤمنون مؤيدين له ومناصرين؟!!!**

---

[281] الإسراء: 85.

[282] البقرة: 256.

[283] يونس: 99.

[284] الغاشية: 21، 22.

أقول: من دون شكّ إنَّ لكثيرٍ من الحكّام كثيرًا من المفاسد وبخاصّة الذين يتولّون الحكم بالقوّة كرهًا تحت أيّ عنوان: (ثورة أو انقلاب أو تصحيح مسارٍ) ومن مفاسدهم الكثيرة: تقليل شأن المواطن، وتغييب الشّعب عما لا يجب أن يغيب عنه، وتقييد حريّة المواطن في ممارسة حقوقه وأداء واجباته، وحمْل مسئوليَّاته، والعمل على شراء الذّمم وتزوير الانتخابات، واختلاس أموال الشَّعب والعبث بثرواته وتبذيرها، وبثّ الفتن بين المواطنين مع نشر الوساطة، والمحسوبيَّة، واصطناع التأزُّمات الوطنيَّة بغاية إلهاء الشّعب في نفسه وحاجاته التي لم تشبع، وفي المقابل المستولي على الحكم بالقوّة يعمل على تمكين أبنائه من المشهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي؛ حتى يتصدّروا الكبيرة والصغيرة مع وافر الإقصاء والتهميش لغيرهم من أبناء الشّعب.

ولذا، **كيف يُمكن للمواطنين أن يطيعوا الحكّام وهم متربّعون كرهًا على القمم السُّلطانيّة وهم على هذه المفاسد المخالفة لما يرضي الله جلَّ جلاله؟!!**

أقول: نعم، إنَّ طاعة أُولي الأمر في مرضاة الله، وليس فيما يرتكبونه من مفاسد ومعاصٍ، ومن ثمَّ، فإن كانت المفاسد سائدة في سياسة أُولي الأمر منكم فلا طاعة لهم في إفسادٍ ومعصيةٍ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[285].

[285] البقرة: 11، 12.

ولأنَّ من بين الإفساد في الأرض قتل النّفس التي حرّم الله؛ فوليّ الأمر إن قتل نفسًا بغير حقٍّ فقد أفسد، ولأنَّ بعضًا من أُولي الأمر يعلم أنَّ من قتل نفسًا بغير نفسٍ فلا كفَّارة له ليكفِّرَ بها عن ذنبه؛ فهو إن قتل نفسًا فكأنّما قتل النَّاس جميعًا؛ ولهذا لن يتوقّف عن قتل المزيد من الأنفس بما أنَّه قد قتل نفسًا من قبل، بل سيكون أكثر تماديًا في سفك الدِّماء، وأكثر مخالفة لأمر الله الذي قال: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نفسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا}[286].

ومع أنَّ قتل النّفس بغير حقّ محرّمٌ، ومجرّمٌ دينًا، وعرفًا، وخُلقًا، فإنَّ الذين لا علاقة لهم بهذه، ولا بتلك، لا يتردّدون ظلمًا أن يتولوا أمور الغير بغير حقّ كرهًا؛ فمثل هؤلاء لا طاعة لهم؛ كونهم ظلموا، وخرجوا عمَّا أمر الله به من وجوب الطَّاعة

وعليه: فإنَّ طاعة ولي الأمر واجبة بما أنَّه لم يخالف الأمر، ولكن إن حاد عن الأمر؛ فلا طاعة له، بل يجب إعادته إلى الأمر المستوجب الطّاعة، كما هو حال إمام الصَّلاة عند المسلمين الذي يصطفَّ المصلّون وراءه يركعون، ويسجدون لله طاعة؛ فإن خلَّ، أو أخطأ في غفلةٍ عن قراءة القرآن المصلّى به، وجب على المصلّين أن يصحّحوا له ما أخطأ فيه قراءةً، وإن أخطأ في أداء سجدة، أو ركعة فلا يطاع، بل ينبّه لما أخطأ فيه؛ حتى يعود إلى الأمر، وفي حالةٍ لم يعد؛ فلا يتبعه المصلُّونَ فيما ذهب إليه خطأً، بل عليهم تنبيهه حتى العودة إلى صحّة الأمر، وسلامة أدائه أمرًا (هو كما هو).

---

[286] المائدة: 32.

ومن هنا، يتّضح الفارق بين طاعة الأمر، وطاعة أولي الأمر؛ ولذلك فلا طاعة لوليّ أمرٍ خرج عن الأمر الذي كُلّف به من قِبل النَّاس، أمَّا إذا كان وليّ الأمر قد استلب الأمر استلابًا؛ فلا وجوب لطاعته أبدًا، بل مقاومته واجبة من أجل إعادة المسلوب، والمنهوب والمستولى عليه كرهًا.

ولذا فإنَّ الخلاف مع من يخالف الشرَّع حقّ شرعي، ومع من يخالف الدّستور حقّ دستوري، ومع من يخالف العرف حقّ عرفي، ومع من يخالف القيم الحميدة حقّ قيمي، وفي المقابل يجب احترام وتقدير المختلفين دينًا، وعرفًا؛ إذ لا إكراه في ممارسة الحريَّة المرسّخة لكرامة الإنسان.

ومن هنا فالنّزاعات والخلافات بين أولي الأمر ومن ولّاهم عليه إنْ لم يكن من بعدها تفهّم وتفاهم فستكون بداياتها المعروفة ذات نهايات غير معروفة.

ولذا فالطَّاعة الحقّ لا تكون إلا للحقّ، والذي أمر به؛ ولهذا في الطَّاعة اتباع، ونيل تقدير، ونيل احترام، ونيل اعتراف، وتحقّيق اعتبار، وفي معكوس المفهوم اللغوي للطَّاعة يكون الضلال والمعصية، وفي مقابل الطوع يكون الكره[287].

والطَّاعة قد تكون بعد تبيُّن، وقد تكون طاعة للأمر الموثوق فيه وفي مصدره: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[288]،

---

[287] عقيل حسين عقيل، كشف أوراق (الخلاف في دوائر التاريخ)، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة: 2020م، ص 104 – 108.

[288] آل عمران: 32.

في هذه الآية الكريمة جاء أمر طاعة الرّسول مرتبطًا بطاعة الله، فالذي يطيع الله ليس له بدٌّ إلا أن يطيع الرّسُول صلّى الله عليه وسلّم.

ولأنَّ الدّين الحقّ من عند الله، فالله –تعالى–أوجب طاعة الرّسول، ثم تلاها بطاعة أولي الأمر من النَّاس، طاعة في غير معصية لله؛ ومن هنا جاءت طاعة الرَّسُول مطلقة، وطاعة أولي الأمر مقيَّدة[289].

والحمد لله ربِّ العالمين.

[289] عقيل حسين عقيل، كشف أوراق (الخلاف في دوائر التاريخ)، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة: 2020م، ص 123 – 126.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (163) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة، 2021م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (163) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com